دولة فلسطين
دار الإفتاء الفلسطينية

الرسول الأسوة
محمد صلى الله عليه وسلم

إعداد: الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

القدس
1437هـ - 2016 م

هدية

من إصدارات

دار الإفتاء الفلسطينية

القدس

1437هـ - 2016 م

إعداد:

الشيخ محمد أحمد حسين / المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

مراجعة شاملة

الشيخ إبراهيم خليل عوض الله/ الوكيل المساعد لدار الإفتاء الفلسطينية/ مفتي محافظة رام الله والبيرة

منسق أعمال الفريق	أ. مصطفى أعرج
المونتاج وتصميم الغلاف	يوسف تيسير
تدقيق لغوي	هالة عقل
تخريج الآيات والأحاديث	نجود بدران

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد؛

فدراسة الهدي النبوي أمر له أهميته عند كل مسلم، فهو يحقق أهدافاً عدة؛ من أهمها معرفة شخصية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأعماله وأقواله وتقريراته، التي تكسب المسلم محبته صلى الله عليه وسلم وتنميها وتباركها، وتظهر للمسلم بوضوح أنه كان زوجًا وأبًا وقائدًا ومحاربًا، وحاكمًا، وسياسيًا ومربيًا وداعية وزاهدًا وقاضيًا، ومن منطلق واجبنا الشرعي ورسالتنا الدينية؛ فإن دار الإفتاء الفلسطينية تهدي لقرائها الأعزاء الجزء التاسع من كتاب (الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم)، الذي يعرض بعضاً من هدي المصطفى، عليه الصلاة والسلام، وسيرته الطاهرة، بطريقة ميسرة، تمتاز ببساطة العرض، ووضوح الفكرة، ودقة المعلومة.

وأسوة بالحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، القائل: (لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ) (سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، وصححه الألباني)، يسرني أن أتقدم بالشكر والتقدير من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل المتميز، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم، وأن ينفع الله بعملهم المسلمين، كما أسأله عزوجل أن يديم دار الإفتاء الفلسطينية منهلاً للعلم والخير والهداية، إنه الموفق إلى سبيل الرشاد.

فإن أصبنا في هذا الكتاب وغيره من الأعمال، فبنعمة من الله وفضل، وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا، سائلين الله العفو والعافية، وقبول الأعمال الصالحة، بفضل جوده وكرمه.

الشيخ محمد أحمد حسين

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

القدس : 1437هـ / 2016م

الفصل الأول
عقيدة

الرسول الأسوة صلى الله عليه وسلم		
.1	يخبر عن فتنة أصحاب الأخدود	6
.2	واستذكار حتمية الموت ـ الحلقة الأولى	11
.3	واستذكار حتمية الموت ـ الحلقة الثانية	16
.4	واستذكار حتمية الموت ـ الحلقة الأخيرة	21
.5	يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الأولى	25
.6	يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الثانية	31
.7	يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الثالثة	36
.8	يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الرابعة	41
.9	يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الخامسة	46
.10	يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الأخيرة	51
.11	يستعيذ بالله من الهم والحزن ـ الحلقة الأولى	56
.12	يستعيذ بالله من الهم والحزن ـ الحلقة الثانية	61
.13	يستعيذ بالله من الهم والحزن ـ الحلقة الثالثة	66
.14	يستعيذ بالله من الهم والحزن ـ الحلقة الأخيرة	71
.15	أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الأولى	76
.16	أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الثانية	81
.17	أمره ربه أن يتخذه وكيلا ـ الحلقة الثالثة	85
.18	أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الرابعة	90
.19	أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الخامسة	95
.20	أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الأخيرة	100

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يخبر عن فتنة أصحاب الأخدود

ما أشبه اليوم بالبارحة، اليوم تحرق عائلة عن بكرة أبيها، وهي تغط في نومها، ثم تلحق بها ألسنة اللهب بعد محاولة الفرار منها، فيقضي رضيع نحبه على الفور، ويلحقه والده بعد بضعة أيام، وأمه وشقيقه في وضع وصف بأنه حرج وصعب للغاية، وبالأمس البعيد كان الحرق أداة الظالمين للقضاء على مناوئيهم المسالمين، كما في قصة أصحاب الأخدود التي تطرقت سورة البروج للإشارة إليها، وفصل الرسول، صلى الله عليه وسلم، خبرها، حسب الرواية الصحيحة الآتية عن صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (كان مَلِكٌ فِيمَنْ كان قَبْلَكُمْ، وكان له سَاحِرٌ، فلما كَبِرَ، قال لِلْمَلِكِ: إني قد كَبِرْتُ، فأبعث إلي غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إليه غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ في طَرِيقِهِ إذا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إليه، وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إذا أتى السَّاحِرَ، مَرَّ بِالرَّاهِبِ، وَقَعَدَ إليه، فإذا أتى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فشكى ذلك إلى الرَّاهِبِ، فقال: إذا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وإذا خَشِيتَ أَهْلَكَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هو كَذَلِكَ، إِذْ أتى على دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قد حَبَسَتْ الناس، فقال: الْيَوْمَ أَعْلَمُ الساحر أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ، فَأَخَذَ حَجَرًا، فقال: اللهم إن كان أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ من أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذه الدَّابَّةَ، حتى يمضي الناس، فَرَمَاهَا، فَقَتَلَهَا، وَمَضَى الناس، فَأَتَى الرَّاهِبَ، فَأَخْبَرَهُ، فقال له الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أنت الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قد بَلَغَ من أَمْرِكَ ما أَرَى، وإنك سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عَلَيَّ، وكان الْغُلَامُ يُبْرِئُ الأكمه وَالْأَبْرَصَ، ويداوي الناس من سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كان قد عمي، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فقال: ما ها هنا

لك أَجْمَعُ ان أنت شفيتني، فقال: إني لَا أشفي أَحَدًا، إنما يشفي الله، فَإِنْ أنت آمَنْتَ بِاللهِ؛ دَعَوْتُ اللهَ فَشَـفاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ، فَشَفَاهُ الله، فَأَتَى الْمَلِكَ، فَجَلَسَ إليه كما كان يَجْلِسُ، فقال لـه الْمَلِكُ: من رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قال: رَبِّي، قال: وَلَـكَ رَبٌّ غَيْرِي، قال: رَبِّي وَرَبُّكَ الله، فَأَخَـذَهُ، فلم يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتـى دَلَّ على الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فقال له الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قد بَلَغَ من سِـحْرِكَ ما تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فقال: إني لَا أشـفي أَحَدًا، إنما يشـفي الله، فَأَخَـذَهُ، فلم يَزَلْ يُعَذِّبُهُ، حتى دَلَّ على الرَّاهِـب، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَـارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حتى وَقَعَ شِـقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ، فَقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِئْشَـارَ في مَفْرِقِ رَأْسِـهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حتى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إلى نَفَـرٍ من أَصْحَابِهِ، فقال: اذْهَبُوا بِهِ إلى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فإذا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَـهُ، فَإِنْ رَجَعَ عن دِينِـهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعِـدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فقال: اللهم أكفنيهم بِمَا شِـئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمْ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يمشي إلى الْمَلِكِ، فقال له الْمَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قـال: كَفَانِيهِمُ الله، فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ من أَصْحَابِهِ، فقال: اذْهَبُوا بِهِ، فَاحْمِلُوهُ في قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّـطوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عن دِينِهِ، وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فقال: اللهم أكفنيهم بِمَا شِـئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمْ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يمشي إلى الْمَلِكِ، فقال له الْمَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ، قال: كَفَانِيهِمُ الله، فقال لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حتى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ بِهِ، قال: وما هو؟ قال: تَجْمَعُ الناس في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي على جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَـهْمًا من كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعْ السَّـهْمَ في كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْـمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّـكَ إذا فَعَلْتَ ذلك قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ الناس في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ على جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ

سَــهْمًا من كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّــهْمَ في كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قال: بِاسْمَ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ في صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ في صُدْغِهِ في مَوْضِعِ السَّهْمَ، فَمَاتَ، فقال الناس: آمَنَّــا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فأتــى الْمَلِكُ، فَقِيلَ له: أَرَأَيْتَ ما كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قد والله نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قد آمَنَ الناس، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ[1] في أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُــدَّتْ، وَأَضْــرَمَ النِّيرَانَ، وقال: من لم يَرْجِــعْ عن دِينِهِ فَأَقْحُمُوهُ فيهــا، أو قِيلَ له: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حتى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لها، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فيها، فقال لها الْغُلَامُ: يا أُمَّهْ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ على الْحَقِّ).[2]

فهذه القصة المعبرة تحكي عن محنة انتابت طائفة من المؤمنين في زمن غابر، حيث طالت يد الغدر نفوساً بريئة، فأزهقت أرواحها، ومحقتها عن وجه الأرض، إلا أن هذه المحنة أثمرت في نهاية المطاف انتصار الحق على الباطل، بعد أن عجز الباطل بجبروته وعنفوان طغيانه عن الصمود أمام صلابة الحق وحاملي رايته.

تفاصيل جديدة عن حرق أسرة سعد دوابشة:

نقلت بعض وسائل الإعلام المتابعة لخبر حادث الحرق الآثم الذي تعرضت له عائلة دوابشة تفاصيل جديدة حول الجريمة التي ارتكبها المستوطنون الإرهابيون بحق عائلة دوابشة في قرية دوما جنوب مدينة نابلس، التي أسفرت عن استشهاد الرضيع علي دوابشة ووالده وإصابة والدته وشقيقه بجروحٍ خطرة.

وذكرت الأخبار أن المستوطنين قاموا باختيار المنزل المستهدف بعناية بهدف القتل،

---

1. معنى الأخدود: الشق في الأرض، يحفر مستطيلاً، وجمعه الأخاديد، ويمكن أن يكون المراد بأصحاب الأخدود القاتلين، ويمكن أن يكون المراد بهم المقتولين. التفسير الكبير، 31 /108.
2. صحيح مسلم، كتاب الزهدوالرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام.

وألقوا الزجاجات الحارقة من شبابيك المنزل، واستيقظ أصحاب المنزل الزوج والزوجة، وبدأت عملية الصراخ، وعند محاولتهم الخروج من المنزل، كان في المدخل الرئيس أكثر من مستوطن موجودين ينتظرون العائلة، وعند خروجهم على الفور ألقوهم أرضاً، وقاموا بإحراقهم بمادة حارقة، ثم بدأوا يطوفون حولهم.

وكان الإرهابيون ينظرون إلى الزوج والزوجة وهم يحترقون، وكانوا يطوفون حولهم ويتشفوا بهم، وكانوا مجموعة إرهابية ولم يكونوا شخصاً أو اثنين.[1]

قاسم مشترك بين أصحاب الأخدود وأسرة دوابشة:

الذي يطّلع على خبر إحراق أسرة سعد دوابشة، ويطلع على خبر قتل أصحاب الأخدود، يجد أن قاسماً مشتركاً أعظم يجمع بين الحادثين، فمنفذ كل منهما طغى في البلاد، وأكثر فيها الفساد، فالذين قتلوا ظلماً وحرقاً في الأخدود ومن قبلهم الراهب والغلام المؤمن، ومحمد أبو خضير، وأسرة الشهيد سعد دوابشة، تعرضوا لفتنة عصيبة جراء تشبثهم بمبدأهم الحق الذي آمنوا به، فقتلوا بأساليب مختلفة، لكن النتيجة كانت واحدة، أنهم جميعاً قتلوا لأنهم تمسكوا بإيمانهم برب العالمين، وعن هذا يقول الله تعالى: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}.[2]

والتمسك بالإيمان يعني التمسك بالحق والمبادئ والثوابت التي لا تقبل التفريط، وهذا ما كان وسيكون من أبناء شعبنا المرابطين في قراهم ومدنهم ومخيماتهم، مثلما كان من أصحاب الأخدود.

---

1. وكالة سما الإخبارية – تفاصيل جديدة مرعبة حول حرق عائلة...
samanews.com/ar/index.php?act=post&id=244092...

2. البروج: 8.

سائلين الله العلي القدير أن يتقبل سعد دوابشة وطفله الرضيع علي ومحمد أبو خضير وشهداء شعبنا كافة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، وأن يكتب الشفاء والسلامة لوالدة الطفل الشهيد علي دوابشة وأخيه أحمد اللذين يرقدان على سرير الشفاء، فقد ألهبت النار التي أحرقت هذه الأسرة وبيتها قلوب الملايين من أحرار العالم وبخاصة من أبناء شعبنا الصابر المرابط، وكان لصبر عائلة دوابشة وذوي الشهداء المثل الحسن للجلد والمصابرة والمرابطة التي نسأل الله تعالى أن تتوج بنصرنا على من يظلمنا، ويحرق أطفالنا، ويعتدي على شبابنا، ويدنس مقدساتنا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا المصطفى، وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
واستذكار حتمية الموت ـ الحلقة الأولى

يخاطب الله تعالى الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيقول جل شأنه: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}.[1]

كلمات عددها قليل، لكن معناها جليل، وأثرها جزيل، وفي التسهيل لعلوم التنزيل، أن في هذه الآية الكريمة وعداً للنبي، صلى الله عليه وسلم، ووعيداً للكفار، فإنهم إذا ماتوا جميعاً، وصاروا إلى الله، فاز من كان على الحق، وهلك من كان على الباطل، وفي الآية إخبار بأنه صلى الله عليه وسلم سيموت؛ لئلا يختلف الناس في موته، كما اختلفت الأمم في غيره، وقد جاء أنه لما مات صلى الله عليه وسلم أنكر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، موته حتى احتج عليه أبو بكر الصديق بهذه الآية، فرجع إليها.[2]

ويقول سبحانه وتعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ}[3]

وبين الرازي في التفسير الكبير، أن هؤلاء الأقوام، وإن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة، بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم في الدنيا، فلا تبال يا محمد بهذا، فإنك ستموت، وهم أيضاً سيموتون، ثم تحشرون يوم القيامة، وتختصمون عند الله تعالى، والعادل الحق، يحكم بينكم، فيوصل إلى كل واحد ما هو حقه، وحينئذٍ يتميز المحق من المبطل، والصديق من الزنديق، فهذا هو المقصود من الآية، وقوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ}؛ أي إنك وإياهم، وإن كنتم أحياء، فإنك وإياهم في أعداد الموتى؛ لأن كل ما هو آت آت.[4]

---

1. الزمر: 30.
2. التسهيل لعلوم التنزيل، 3 /195.
3. الأنبياء: 34.
4. التفسير الكبير، 26 /242.

ومن الشعر الذي قيل في حتمية الموت، ما جاء في قصيدة البردة لكعب بن زهير، التي مدح فيها الرسول، صلى الله عليه وسلم، فكان من أبياتها قوله:

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وإنْ طالَتْ سَلامَتُهُ يَوْماً على آلَةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ

فناء الخلق وبقاء الحي الذي لا يموت:

مبدأ الفناء الحتمي للخلق أكده الله تعالى في عدد من الآيات القرآنية، التي منها قوله عز وجل: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ}.[1]

فكل المخلوقات هالكة لا محالة، ويبقى الله تعالى موجوداً، فهو منزه عن الفناء، وقد أكد الله تعالى هذا المعنى العقائدي في آيات أخرى، فقال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً}[2]، وقال جل شأنه:{وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.[3]

فالموت حق لازم، وكأس لا بد أن يشربه كل مخلوق، وما أجمل التعبير القرآني الذي وصف حتمية الموت بلفظ التذوق الذي تجده كل نفس، فقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}.[4] أي كل نفس مخلوقة لا بد لها أن تذوق الموت، والذوق هنا استعارة.[5]

وقوله: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} يدل على أن النفوس لا تموت بموت البدن؛ لأنه تعالى جعل النفس ذائقة الموت، والذائق لا بد وأن يكون باقياً حال حصول الذوق، والمعنى: أن كل نفس ذائقة موت البدن، وهذا يدل على أن النفس غير البدن، وعلى أن النفس لا تموت بموت البدن، وأيضاً لفظ النفس مختص بالأجسام، وفيه تنبيه على أن الموت مختص بالحياة

1. الرحمن: 26 – 27
2. الفرقان: 58.
3. القصص: 88.
4. العنكبوت: 57.
5. التسهيل لعلوم التنزيل، 3 /26.

الجسمانية، فأما الأرواح المجردة فلا.

ويذكر الرازي أن في هذه الآية تأكيداً لتسلية الرسول، عليه الصلاة والسلام، والمبالغة في إزالة الحزن من قلبه، وذلك من وجهين؛ أحدهما أن عاقبة الكل الموت، وهذه الغموم والأحزان تذهب وتزول، ولا يبقى شيء منها، والحزن متى كان كذلك لم يلتفت العاقل إليه، والثاني أن بعد هذه الدار دار يتميز فيها المحسن عن المسيء، ويتوافر على عمل كل واحد ما يليق به من الجزاء، وكل واحد من هذين الوجهين في غاية القوة في إزالة الحزن والغم عن قلوب العقلاء.[1]

من ثمرات استذكار حتمية الموت:

يترك استذكار حتمية الموت آثاراً في نفوس المستذكرين، وبصمات على سلوكهم، ومن أبرز تلك الآثار والبصمات ترك الغلو في التكالب على الدنيا، والتعلق بمتاعها الزائل، والإعداد ليوم تشخص فيه الأبصار، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ومن شعر الشافعي[2] ، رحمه الله تعالى، بهذا الصدد، قوله:

عليكَ بتقــوى اللهِ إن كنتَ غافـــــلاً يأتيـــــــكَ بالأرزاقِ من حيــثُ لا تدري
فكيـــــف تخـــافُ الفقـــرَ واللهُ رازقٌ فقد رزق الطيـــــــــر والحوت في البحر
ومن ظنَّ أنَّ الـــــرزقَ يأتـــي بقوةٍ ما أكلَ العصفـــــــــــورُ شيئاً مع النســـرِ
تزولُ عن الدنيـــــا فإنّـــكَ لا تـــدري إذا جُنَ عليك الليلُ هل تعيشُ إلى الفجر
فكم من صحيحٍ ماتَ من غيرِ علّـــةٍ وكم من ســـــــقيمٍ عاشَ حيناً من الدهرِ
وكم من فتىً أمسى وأصبحَ ضاحكاً وأكفانُهُ في الغيبِ تُنســـجُ وهو لا يدري
وكم من صغارٍ يرتجى طولَ عمرهم وقد أُدخلت أجســـــــــامهم ظلمةَ القبرِ

1. التفسير الكبير، 9/ 101 – 102.
2. أنظر: http://www.saaid.net/bahoth/23.htm.

وكم من عروسٍ زينوها لزوجـــــــها وقد قُبضـــــت أرواحـــــــهم ليلـــــة القدر

فمـــــــن عاش ألفـــــــاً وألفيـــــــن فلا بدَّ من يومٍ يســـــــــــير إلى القبـــــر

باقة من الأقوال في الموت وذكره:

عنْ مُطَرِّفٍ، قَالَ:(إِنَّ هَذَا الْمَوْتَ قَدْ أَفْسَدَ عَلَى أَهْلِ النَّعِيمَ نَعِيمَهُمْ، فَاطْلُبُوا نَعِيمًا لا مَوْتَ فِيهِ). [1]

وقد أورد الإمام الغزالي في الجزء الرابع من كتابه إحياء علوم الدين، كتاب ذكر الموت، وفي فاتحته يقول: الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق، فأرداهم في الحافرة، فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان، إلى مقاساة الهوام والديدان، ومن التنعم بالطعام والشراب، إلى التمرغ في التراب، ومن أنس العشرة، إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير، إلى المصرع الوبيل، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً وعزاً؟ واتخذوا من دونه حجاباً وحرزاً؟ وانظر هل تحس منهم من أحد؟ أو تسمع لهم ركزاً؟ فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر باستحقاق البقاء، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصاً للأتقياء، وموعداً في حقهم للقاء، وجعل القبر سجناً للأشقياء، وحبساً ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة، وله الشكر في السماوات والأرض، وله الحمد في الأولى والآخرة.[2]

ومن الآثار التي ذكرها الغزالي بشأن الموت وتذكره، قول الحسن، رحمه الله تعالى: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لب فرحاً. وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه: يا

1. حلية الأولياء لأبي نعيم، مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ الله، 2 /204.
2. إحياء علوم الدين، 4 /448.

أخي؛ احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت، فلا تجده.

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء: عظني، فقال: لست أول خليفة تموت، قال: زدني، قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت، وقد جاءت نوبتك، فبكى عمر لذلك.

وكان الربيع بن خثيم، قد حفر قبراً في داره، فكان ينام فيه كل يوم مرات، يستديم بذلك ذكر الموت، وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد. وقال عمر ابن عبد العزيز لعنبسة: أكثر ذكر الموت، فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك.(*)

وإلى لقاء قادم إن شاء الله لمواصلة الحديث عن استذكار حتمية الموت، وصلى الله وسلم على الرسول محمد، وعلى آله، وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* إحياء علوم الدين، 4/ 451.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
واستذكار حتمية الموت ـ الحلقة الثانية

يخاطب الله تعالى الرسول، صلى الله عليه وسلم، ليبلغ الناس بأمر الموت والبعث من بعده، فيقول جل شأنه: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}.[1]

تواصلاً مع ماجاء في الحلقة السابقة من حديث عن استذكار الموت، الذي تنتهي به حياة الخلق في الدنيا، إلى جانب الوقوف فيها عند ما تيسر من ثمرات هذا الاستذكار، وعرض لباقة من الآثار الواردة عن السلف الصالح بالخصوص، وهذه الحلقة تتابع الوقوف عند بعض القضايا ذات العلاقة، حيث تخاطب الآية الكريمة المذكورة أعلاه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بصفته المبلغ عن ربه؛ ليعلم الناس أن وفاتهم حتمية لازمة، لا مفر منها، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}[2]، فإذا جاء الأجل تحضر الوفاة، ويكون الموت، الذي لا يفرق بين صغير أو كبير، ولا بين غني أو فقير، ولا بين أمير أو غفير، فمن حضرته الوفاة، لا يملك دفعها بكنوز الدنيا ولا بجاهها، ولا بسلطانها، ولا بجبروتها، بغض النظر عن الظرف المحيط بالوفاة، فبعض الناس يكون مريضاً حينها، وبعضهم يكون بكامل قوته، فتأتيه رصاصة، أو طعنة مفاجئة، أو حادث عرضي يموت خلاله، فليست العبرة بالحادثة بقدر ما هو السبب الحقيقي الذي وقف وراء الوفاة، وهو انتهاء الأجل المقدر، فلكل أجل كتاب، فإذا ما حضر الموت لا يملك أحد من الخلق دفعه، والله تعالى يقول: {الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ

1. السجدة: 11.
2. الأعراف: 34.

وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[1]، وقول: (لا ينفع حذر من قدر)، يتماشى بالنسبة إلى الموت مع مضمون قوله تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ...}.[2]

الموت خلق الله وقدره:

الموت والحياة حادثان خلقهما الله تعالى، مصداقاً لقوله جل شأنه: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}.[3]

والموت والحياة معنيان يتعاقبان جسم الحيوان، يرتفع أحدهما بحلول الآخر.[4]

قال عطاء عن ابن عباس: يريد الموت في الدنيا، والحياة في الآخرة، وقال قتادة: أراد موت الإنسان وحياته في الدنيا، جعل الله الدنيا دار حياة وفناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء، قيل: إنما قدم الموت؛ لأنه إلى القهر أقرب، وقيل: قدمه؛ لأنه أقدم لأن الأشياء في الابتداء، كانت في حكم الموت، كالنطفة، والتراب، ونحوهما، ثم طرأت عليها الحياة.[5]

والموت مقدر من الله، إذ يقول تعالى: {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[6]، أي قدرنا لموتكم آجالاً مختلفة، وأعماراً متفاوتة، فمنكم من يموت صغيراً، ومنكم من يموت شاباً، ومنكم من يموت شيخاً، وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُمْ مَّن

---

1. آل عمران: 168.
2. النساء: 78.
3. الملك: 2.
4. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 5/ 337.
5. تفسير البغوي 4/ 369
6. الواقعة: 60.

يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ}[1]، وقوله تعالى: {وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ...}[2]

قابض الأرواح:

يبين ظاهر قوله تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ...} أن الذي يقبض أرواح الناس ملك واحد معين، وهذا هو المشهور. وقد بيَّن تعالى في آيات أُخر أن الناس تتوفّاهم ملائكة، لا ملك واحد، فيقول تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}[3]، إلى غير ذلك من الآيات.

والعلماء يوضحون أن الموكل بقبض الأرواح ملك واحد هو المذكور هنا، ولكن له أعوان، يعملون بأمره، ينتزعون الروح إلى الحلقوم، فيأخذها ملك الموت، أو يعينونه إعانة غير ذلك.[4]

اتقاء الموت:

يعمل الإنسان جهده في الأحوال الطبيعية على تجنب التعرض للموت، الذي ساعة مجيئه يجهلها، حتى وهو يحتضر لا يدري متى تكون، ولا يتنافى الحرص على اتقاء الموت مع الإيمان بحتميته، فخيار الصحابة كانوا يقولون في هذا: نفر من قدر الله إلى قدر الله، فعن عبد اللهِ بن عَبَّاسٍ: (أَنَّ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، خَرَجَ إلى الشام حتى إذا كان بِسَرْغَ، لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ، أبو عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قد وَقَعَ بِأَرْضِ الشأم، قال ابن عَبَّاسٍ: فقال عُمَرُ: ادْعُ لي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ،

1. الحج: 5.
2. فاطر: 11، أضواء البيان، 7 /529.
3. محمد: 27.
4. أضواء البيان، 6 /184.

فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قد وَقَعَ بالشأم، فَاخْتَلَفُوا، فقال بَعْضُهُمْ، قد خَرَجْتَ لِأَمْرٍ، ولا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عنه، وقال بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ الناس، وَأَصْحَابُ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ولا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ على هذا الْوَبَاءِ، فقال: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قال: ادع لي الْأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ، فقال: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قال: ادْعُ لي من كان هَا هُنَا، من مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ، من مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ فلم يَخْتَلِفْ منهم عليه رَجُلَانِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ، ولا تُقْدِمَهُمْ على هذا الْوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ في الناس: إني مُصَبِّحٌ على ظَهْرٍ، فَأَصْبِحُوا عليه، قال أبو عُبَيْدَةَ ابن الْجَرَّاحِ: أَفِرَارًا من قَدَرِ اللهِ؟ فقال عُمَرُ: لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ، نعم؛ نَفِرُّ من قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ اللهِ، أَرَأَيْتَ لو كان لك إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا له عُدْوَتَانِ؛ إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إن رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ؟ قال: فَجَاءَ عبد الرحمن بن عَوْفٍ، وكان مُتَغَيِّبًا في بَعْضِ حَاجَتِهِ، فقال: إِنَّ عِنْدِي في هذا عِلْمًا، سمعت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: إذا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بها، فلا تَخْرُجُوا فِرَارًا منه، قال: فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ، ثُمَّ انْصَرَفَ).[1]

لا تقدم عن ساعة الموت ولا تأخر:

الموت إذا ما حانت ساعته لا يجدي معه فرار، ولا استخباء، ولا تحرز، والله تعالى يقول: {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}.[2]

ولما طلب الله تعالى من بني إسرائيل تمني الموت للبرهنة على صدقهم في أن الدار

1. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون
2. الأحزاب: 16.

الآخرة لهم من دون الناس، لم يقدموا على تمنيه، وفي هذا يقول تعالى: {قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }[1]، وسبب تخلفهم عن تمني الموت، هو حرصهم المفرط على الحياة، حيث عقب سبحانه على ذلك بقوله: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}.[2]

وتكرر هذا الموقف منهم حين طولبوا بتمني الموت للبرهنة على صدقهم في أنهم أولياء الله من دون الناس، كما ورد في سورة الجمعة.

ومن العبث استجداء الرجعة، أو البقاء في الحياة الدنيا، بعد مجيء أجل الموت، كما يفعل الجاهلون، الذين قال الله تعالى في بعضهم: {حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ}.[3]

وقال تعالى: {وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ* وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}.[4]

أحسن الله خواتيم أعمالنا، حتى نلقاه جل ذكره، مع أصحاب النفوس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، وإلى لقاء قادم إن شاء الله لمواصلة الحديث عن استذكار حتمية الموت، وصلى الله على الرسول محمد، وعلى آله، وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. البقرة: 94 - 95.
2. البقرة: 96.
3. المؤمنون: 99.
4. المنافقون: 10 - 11.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
واستذكار حتمية الموت ـ الحلقة الأخيرة

عن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (لا يَتَمَنَّيَنَّ أحد منكم الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كان لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ، فَلْيَقُلْ: اللهم أَحْيِنِي ما كانت الْحَيَاةُ خَيْرًا لي، وَتَوَفَّنِي إذا كانت الْوَفَاةُ خَيْرًا لي).(*)

للموت أجل محدد، لا يتقدم عنه ولا يستأخر، والإنسان يذوق من حلو الحياة ومرها، مما يجعله ينسى فراقها، وهو يتلذذ بنعيمها، ويطلب أحياناً فراقها من شدة بأسها ومصاعبها، وفي الحديث المذكور أعلاه، ينهى الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن تمني الموت؛ هروباً من مصاعب الدنيا وإحباطاتها، ووجه من تنتابه مثل هذه الظروف إلى دعاء الله تعالى طلباً للخير، بغض النظر عن مسألة الحياة أو الممات، فالمعيار يتعلق بالخير، فأيهما تحقق فيه كان هو المطلوب والمرتجى، فالحياة في الدنيا ليست دائماً هي الخير، وفراقها ليس دائماً هو الأفضل، فخير الناس من طال عمره، وحسن عمله، والدنيا بطبيعتها حبلى بالمنغصات الكثيرة، ولا تدوم على حال، ومن الشعر المعبر عن أحوالها وطبيعتها، ما جاء في قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس، وكان مما قال:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سرهُ زَمَنٌ ساءته أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شانُ
أين الملوك ذوي التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ؟
وأين ما شادهُ شدّاد في إرم ... وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ؟

* صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء بالموت والحياة.

وأيـن مـا حـازه قـارون مـن ذهـبٍ ... وأيـــن عـــادٌ وشـــدادٌ وقـحـطـانُ؟

أتى عـلـى الـكل أمـر لا مـرد لـه ... حـتـى قـضـوا فـكـأن الـقـوم مـا كـانـوا

وصـار مـا كان مـن ملـك ومـن ملـكٍ ... كـما حـكى عـن خـيـال الطيف وسـنـانُ

فجـــائـع الدهـر أنـواع منوعـةٌ ... ولـلـزمـان مـــســـــراتٌ وأحـــزانُ

(1)

كراهية الموت:

ليس عجيباً أن يكره الناس الموت؛ لأنهم بطبيعتهم مجبولون على حب الحياة، وأملهم معلق على الاستزادة من البقاء، حتى إن الله تعالى لم يذم كراهية المؤمن للموت، بل بين سبحانه وتعالى أنه يكره أذى المؤمن الحاصل لا محالة نتيجة حتمية الموت الذي يكرهه الإنسان، وفي الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ قال: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ).(2)

جاء في فتح الباري، عن الخطابي أن التردد في حق الله غير جائز، ولكن له تأويلان، أحدهما: أن العبد قد يشرف على الهلاك في أيام عمره من داء يصيبه، وفاقة تنزل به، فيدعو الله، فيشفيه منها، ويدفع عنه مكروهها، فيكون ذلك من فعله، كتردد من يريد أمراً، ثم يبدو له فيه، فيتركه، ويعرض عنه، ولا بد له من لقائه إذا بلغ الكتاب أجله؛ لأن الله

1. موسوعة الأدب الإسلامي، 1 / 434

2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.

قد كتب الفناء على خلقه، واستأثر بالبقاء لنفسه.

والثاني: أن يكون معناه ما رددت رسلي في شيء أنا فاعله، كترديدي إياهم في نفس المؤمن.

وبعضهم عبر عن هذا بأن الموت حتم مقضي، وهو مفارقة الروح للجسد، ولا تحصل غالباً إلا بألم عظيم جداً، كما جاء عن عمرو بن العاص أنه سئل وهو يموت، فقال: (كأني أتنفس من خرم إبرة، وكأن غصن شوك يجر به من قامتي إلى هامتي). وعن كعب أن عمر سأله عن الموت، فوصفه بنحو هذا. فلما كان الموت بهذا الوصف، والله يكره أذى المؤمن، أطلق على ذلك الكراهة، ويحتمل أن تكون المساءة بالنسبة إلى طول الحياة؛ لأنها تؤدي إلى أرذل العمر، وتنكس الخلق، والرد إلى أسفل سافلين.[1]

ذبح الموت:

كل مخلوق مفارق للحياة لا محالة بالموت، حتى الموت نفسه تجري عليه سنة الموت، فعن أبي سَعِيدٍ قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يوم الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ -زَادَ أبو كُرَيْبٍ، فَيُوقَفُ بين الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَاتَّفَقَا في بَاقِي الحديث- فَيُقَالُ: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ هل تَعْرِفُونَ هذا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ، وَيَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: نعم؛ هذا الْمَوْتُ، قال، وَيُقَالُ: يا أَهْلَ النَّارِ؛ هل تَعْرِفُونَ هذا؟ قال: فَيَشْرَئِبُّونَ، وَيَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: نعم؛ هذا الْمَوْتُ، قال: فَيُؤْمَرُ بِهِ، فَيُذْبَحُ، قال: ثُمَّ يُقَالُ: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فلا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فلا مَوْتَ، قال: ثُمَّ قَرَأَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: {وَأَنْذِرْهُمْ يوم الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ في غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، وَأَشَارَ بيده إلى الدُّنْيَا).[2]

---

1. فتح الباري، 11/ 345 - 346.

2. صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.

وفي شرح الحديث، قال الكسائي: الأَمْلَح الذي فيه بياض وسواد، ويكون البياض أَكثر[1]

قوله: (فيشرئبون) يقال: اشرأب إذا مد عنقه لينظر، وقال الأصمعي: إذا رفع رأسه.

قوله: (فيقولون نعم) وقد عرفوا ذلك؛ لأنهم يعاينون ملك الموت في هذه الصورة عند قبض أرواحهم.

قوله:(فيذبح)؛ أي فيذبح بين الجنة والنار، وقيل: يذبح على الصراط، وقيل: يذبح على السور الذي بين الجنة والنار.

وكيف يذبح الموت؟ قيل: يجعله الله مجسماً حيواناً، مثل الكبش، أو المقصود منه التمثيل.

وبالنسبة إلى ذابح الموت، فقيل: يذبحه يحيى بن زكريا، عليه الصلاة والسلام، بين يدي النبي، صلى الله عليه وسلم، وقيل: الذي يذبحه جبريل، عليه الصلاة والسلام، ذكره القرطبي في التذكرة.

قوله (خلود لا موت) لفظ خلود إما مصدر، وإما جمع خالد، فإذا كان مصدراً، يكون تقديره أنتم خلود، وصف بالمصدر للمبالغة، كما تقول رجل عدل، وإذا كان جمعاً يكون تقديره أنتم خالدون، وهذا أيضاً يدل على الخلود لأهل الدارين لا إلى أمد وغاية.

قوله تعالى: (وهم في غفلة) فسر بهؤلاء؛ ليشير إليهم بياناً لكونهم أهل الدنيا؛ إذ الآخرة ليست دار غفلة.[2]

الله يمهل ولا يهمل

بقاء العاصين على قيد الحياة دون أخذهم بالموت الفوري، يتماشى مع قدر الله تعالى، الذي يؤخر الناس إلى أن تحل آجالهم، فإذا ما حضرتهم مناياهم، كان أخذ العزيز المقتدر، والله تعالى يقول: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ

1. لسان العرب، 14 /117.
2. عمدة القاري، 19 /52.

فِيهِ الأَبْصَارُ}.[1]

{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}.[2]

فهاتان الآيتان تبينان أن الظالمين مؤخرون إلى أن تحل آجالهم، والتأخير إلى أن يحل موعد الأجل لا يقتصر على الظالمين والفاجرين.

ومعنى التأخير إلى الأجل المسمى هنا؛ أي إلى حين استيفاء آجالهم، فلا يعاجلهم بالعذاب، والله تعالى أعلم.[3]

والمعتزلة يفسرون التأخير هنا بمعنى يؤخركم إن آمنتم إلى آجالكم، وإن لم تؤمنوا، عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت، وهذا بناء على قولهم بالأجلين، وأهل السنة يأبون هذا، فإن الأجل عندهم واحد محتوم.[4]

فهذه وقفات عند بعض مسائل الموت وقضاياه تم التعرض إليها خلال هذه الحلقة وسابقتيها، بهدف التنبيه إلى أهمية استذكار الموت وحتميته، عسى أن يكون في هذا التذكير ما يرقق قلوب المستذكرين ويحفزهم تجاه الإعداد ليوم الرحيل، فيخشون الله، ويخافون عذابه، ويشرئبون إلى رحمته ورضوانه.

وصلى الله وسلم على نبيه محمد وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. إبراهيم: 42.
2. النحل: 61.
3. تفسير البغوي، 3 /27.
4. التسهيل لعلوم التنزيل، 2 /138

عن جَابِر بن عبد اللهِ الْأَنْصَارِيَّ، قال: (أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ، وقد جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ، وَأَقْبَلَ إلى مُعَاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ، أو النِّسَاءِ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ، وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ منه، فَأَتَى النبي، صلى الله عليه وسلم، فَشَكَا إليه مُعَاذًا، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: يا مُعَاذُ؛ أَفَتَّانٌ أَنْتَ أَوْ أَفَاتِنٌ؟ ثَلَاثَ مِرَارٍ، فَلَوْلا صَلَّيْتَ بـ {سبح اسْمَ رَبِّكَ}، {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}، {وَاللَّيْلِ إذا يَغْشَى}، فإنه يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ).[1]

وفي رواية عن مُعَاذ بن جَبَلٍ، رضي الله عنه: (أنه كان يُصَلِّي مع النبي، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ، فَيُصَلِّي بِهِمْ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمْ الْبَقَرَةَ، قال: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ، فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذلك مُعَاذًا، فقال: إنه مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذلك الرَّجُلَ، فَأَتَى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صلى بِنَا الْبَارِحَةَ، فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: يا مُعَاذُ؛ أَفَتَّانٌ أنت ثَلَاثًا؟ اقْرَأْ: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} {وسبح اسْمَ رَبِّكَ الأعلى} وَنَحْوَهَا).[2]

جاء في عون المعبود، أن النواضح في قوله: (وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا) جمع ناضحة، أنثى ناضح، وهي الإبل التي يستقى عليها للشجر والزراعة.

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب من شكا إمامه إذا طوّل.
2. صحيح البخاري كتاب الأدب، باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً.

وقوله: (أَفَتَّانٌ أَنْتَ)؛ أي أمنفر، ومُوقِعٌ للناس في الفتنة؟ قال الطيبي: استفهام على سبيل التوبيخ، وتنبيه على كراهة صنعه؛ لأدائه إلى مفارقة الرجل الجماعة، فافتتن به.

و(الفتنة) صرف الناس عن الدين، وحملهم على الضلالة، قال تعالى: {مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ}[1]؛ أي بمضلين. وقال الحافظ: ومعنى الفتنة ها هنا، أن التطويل يكون سبباً لخروجهم من الصلاة، ولتكره الصلاة في الجماعة.

وقول الرجل: (يا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا)، أراد إنا أصحاب عمل وتعب، فلا نستطيع تطويل الصلاة.[2]

وقال الداودي: يحتمل أن يريد بقوله: فتّان؛ أي معذب؛ لأنه عذبهم بالتطويل، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ}[3]، قيل معناه عذبوهم. وورد فيمن قطع صلاته التي كان يصليها وراء إمامه الذي أطال، أن الصحابة، رضي الله عنهم، قالوا له: أنافقت يا فلان؟ قال: لا؛ والله لآتين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلأخبرنه.

فبلغ ذلك النبي، صلى الله عليه وسلم، قيل: إن الذي بلغه ذلك على سبيل الشكوى هو معاذ، ففي رواية قال معاذ: لئن أصبحت لأذكرن ذلك لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، فأرسل إليه، فقال: ما حملك على الذي صنعت؟ فقال: يا رسول الله؛ عملت على ناضح لي، فذكر الحديث، وكان معاذ سبقه بالشكوى، فلما أرسل إليه، جاء فاشتكى من معاذ.[4]

يتضح من روايتي الحديث أعلاه، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان له موقف

---

1. الصافات: 162.
2. عون المعبود، 3/ 4 – 5.
3. البروج: 10.
4. فتح الباري، 2/ 195.

صارم تجاه الأعمال التي تؤدي إلى تنفير الناس عن الدين، حتى وإن كان العمل المنفر في ظاهره حسن وخير، فالإمام الذي يطيل القراءة في صلاة الجماعة، يؤدي عملاً في ظاهره طيباً غير أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، نهى عن هذا العمل الطيب، حين يتصادم أداؤه مع قدرة المصلين على تحمله، واختار عليه الصلاة والسلام لفظاً قاسي المعنى، أنب فيه الإمام الذي أطال ونفر، فقال له: (أَفَتَّانٌ) والفتنة عن الدين على النقيض تماماً من تحبيب الناس به، وترغيبهم فيه، فالذي يسيء في عمله، أو قوله فيؤدي إلى أن يبني الناس تصوراً سيئاً عن دينه، الذي يمثله في سلوكه، إنما هو كحامل معول يهدم به بناء الإسلام وكيانه، بخلاف الذي ينجذب الناس إلى الإسلام حين مخالطته، ومشاهدة حسن الإسلام في سلوكه ولمسه فيه، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (... فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلًا، خَيْرٌ لك من أَنْ يَكُونَ لك حُمْرُ النَّعَمَ).(*)

فالإمام الذي يطيل في خطبته، أو صلاته، إلى حد الإضرار ببعض المصلين من المرضى، أو أصحاب الحاجة، إنما هو يسيء في عمله، وإن كان يرمي من ورائه أموراً غاية في الحسن والفضل، وفي روايات أخرى ذكر الصحابة، رضي الله عنهم، مدى تشديد الرسول، صلى الله عليه وسلم، على منع التنفير من الدين، بأعمال يظن فاعلوها أنها حسنة، وهي كذلك،

غير أنها لما تضاربت مع قدراتهم وطاقاتهم، أصبحت على النقيض من ذلك، فعن أبي مَسْعُودٍ، رضي الله عنه، قال: (أتى رَجُلٌ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: إني لَأَتَأَخَّرُ عن صَلَاةِ الْغَدَاةِ من أَجْلِ فُلَانٍ، مِمَّا يُطِيلُ بِنَا، قال: فما رأيت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قَطُّ أَشَدَّ غَضَبًا في مَوْعِظَةٍ منه يَوْمَئِذٍ قال، فقال: يا أَيُّهَا الناس؛ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ

* صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن، رضي الله عنه.

فَأَيُّكُمْ ما صلى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ، فإن فِيهِمْ الْمَرِيضَ، وَالْكَبِيرَ، وَذَا الْحَاجَةِ)[1].

استخدام المرونة من غير خلل في الإسلام:

صحيح أن رضا الناس غاية لا تدرك، غير أن هناك مجالاً للمرونة المشروعة التي ينبغي استخدامها عند التعامل مع الناس في معاشهم، وعبادتهم، ومخالطتهم، حتى وعند حربهم وسلمهم، وبهذه المرونة يمكن اللجوء إلى اختيار الأسلوب الأجدى، والطريقة المثلى التي تراعى فيها ظروف الناس وعقولهم وطباعهم، ألم يأمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، بسكب ماء مكان بول الأعرابي الذي بال في المسجد، مع النهي عن إجراء ما يؤديه إلى أن يقطع تبوله، تجنيباً له من التضرر صحياً، ففي الحديث الصحيح، عن أَنَسِ ابن مَالِكٍ: (أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامُوا إليه، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا تُزْرِمُوهُ، ثُمَّ دَعَا بِدَلْوٍ من مَاءٍ، فَصُبَّ عليه).[2]

ومعنى (لا تُزْرِمُوهُ): بضم أوله، وسكون الزاي وكسر الراء، من الإزرام؛ أي لا تقطعوا عليه بوله، يقال: زرم البول إذا انقطع، وأزرمته قطعته، وكذلك يقال في الدمع.[3]

وفي رواية صحيحة أخرى، عن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه: (أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَثَارَ إليه الناس؛ ليَقَعُوا بِهِ، فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم: دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا على بَوْلِهِ ذَنُوبًا من مَاءٍ، أو سَجْلًا من مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، ولم تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ).[4]

قوله: (وَأَهْرِيقُوا) أي صبوا، وأصله أريقوا من الإراقة. وقوله: (ذَنُوبًا) هو الدلو الملآن. وقوله: (أو سَجْلًا من مَاءٍ) السجل هو الدلو فيه الماء قل أو كثر.[5]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله.
3. فتح الباري، 10 /449.
4. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم (يسروا ولا تعسروا).
5. عمدة القاري، 22 /169.

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، حجز المسلمين عن الفتك بالرجل الذي بال في مسجدهم الطاهر، الذي يؤدون فيه الصلاة لربهم عز وجل، ليس لأنه يستهين بالمسجد، أو يستخف بحرمته، ولا لأنه يقلل من فظاعة التبول في المسجد وتنجيسه، وإنما فعل ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ لأنه الرحمة المهداة، ولأنه الرؤوف الرحيم، الذي اجتمع الناس حوله مؤمنين برسالته لرأفته، ولم ينفروا عنه لفظاظته، وصدق الله العلي العظيم، إذ قال في الثناء على رسوله، صلى الله عليه وسلم: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}. (*)

فهذه وقفة عند ما تيسر من التوجيهات الربانية والنبوية فيما يخص التحذير من سلوك ما ينفر الناس عن الدين، آملين أن نوفق في عرض المزيد من هذه التوجيهات في الحلقة القادمة من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* آل عمران: 159.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الثانية

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يَدْعُو: اللهم إني أَعُوذُ بِكَ من عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ).[1]

تعرضت الحلقة السابقة من هذه الزاوية الصحفية إلى التحذير من فتنة الناس عن الدين، من خلال التركيز على شواهد تتعلق ببعض أمور العبادات، التي كان منها التحذير من إطالة الإمام في الصلاة لدرجة تحرج المصلين أو تؤذيهم، وتبين كيف وجه الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلمين إلى حسن التعامل مع حدث التبول في المسجد، الذي وقع من أحد الأعراب، وذلك انطلاقاً من اتصافه صلى الله عليه وسلم بالرحمة، التي شجعت الناس على الدخول في دين الله أفواجاً، وجعلت من الصحابة الكرام، رضي الله عنهم، خير من التف حول الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأحبوه، وفدوه بأغلى ما يملكون، مع لفت الأنظار إلى مبدأ المرونة في الإسلام، الذي بموجبه تراعى أحوال الناس ضمن ضوابط الشرع الحنيف، وهذه الحلقة تتابع الحديث عن هذا الموضوع بالغ الحساسية والأهمية، بادئة بالوقوف عند استعاذة الرسول، صلى الله عليه وسلم، من فتنة المحيا والممات، وهي كلمة جامعة لمعان كثيرة، وينبغي للمرء حيالها أن يرغب إلى ربه في رفع ما نزل، ودفع ما لم ينزل، ويستشعر الافتقار إلى ربه، في جميع ذلك.[2]

وعن ابن عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (كان يُعَلِّمُهُمْ هذا الدُّعَاءَ،

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر.
2. فتح الباري، 11 /177.

كما يُعَلِّمُهُمْ السُّورَةَ من الْقُرْآنِ، يقول: قُولُوا اللهم إِنَّا نَعُوذُ بِكَ من عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ من عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ من فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ من فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، قال مُسْلِم بْن الْحَجَّاج: بَلَغَنِي أَنَّ طَاوُسًا قال لِابْنِهِ: أَدَعَوْتَ بها في صَلَاتِكَ؟ فقال: لَا، قال أَعِدْ صَلَاتَكَ؛ لأَنَّ طَاوُسًا رَوَاهُ عن ثَلَاثَةٍ أو أَرْبَعَةٍ، أو كما قال).[1]

وموضع الدعوة بهذا الدعاء في الصلاة؛ يكون في آخرها، بعد التشهد قبل السلام، والله أعلم.[2] ويؤيد هذا ما صرحت به رواية مسلم عن أَبي هُرَيْرَةَ، قال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، (إذا فَرَغَ أحدكم من التَّشَهُّدِ الآخِرِ، فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ من أَرْبَعٍ، من عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ).[3]

مفهوم فتنة المحيا والممات:

فِتْنَة الْمَحْيَا وَالْمَمَات: هي ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتتان بالدنيا، والشهوات، والجهالات، وأعظمها –والعياذ بالله– أمر الخاتمة عند الموت، وفتنة الممات، قال الباجي: هي فتنة القبر).[4]

والمقصود بالمحيا، زمن الحياة، والممات زمنه.[5]

وفتنة المحيا والممات؛ أي فتنة الحياة والموت.[6]

وقال ابن دقيق العيد: يجوز أنها الفتنة عند الموت، أضيفت إليه لقربها منه، وفتنة المحيا ما قبل ذلك، ويجوز أنها فتنة القبر. وقيل: فتنة المحيا الابتلاء مع زوال الصبر، والممات السؤال في القبر، مع الحيرة، وهو من العام بعد الخاص؛ لأن عذاب القبر داخل تحت فتنة

1. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في صلاة.
2. عمدة القاري، 6/ 116.
3. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في صلاة.
4. شرح الزرقاني، 2/ 54.
5. فتح الباري، 11 /177.
6. صحيح مسلم بشرح النووي، 17 /30.

الممات، وفتنة الدجال داخلة تحت فتنة المحيا.[1]

وبالنسبة إلى أنواع الفتن وصورها التي يتعرض إليها المسلم في حياته الدنيا، فهي كثيرة ومتنوعة، ومن ذلك: فتنة المال، والولد، والسلطان، والنساء، والشهوات، وفتنة السحر، إضافة إلى بعض الصفات السلوكية، مثل: الغرور، والعجب، والأحوال المعيشية، المتمثلة في الفقر، والغنى، والعنوسة...إلخ، وقد يكون من المفيد الوقوف عند بعض أنواع هذه الفتن الرئيسة، في ضوء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تطرقت إلى ذكرها:

فتنة المال والولد:

من أبرز أنواع زينة الحياة الدنيا المال والولد، فالله تعالى يقول: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[2]

وإلى جانب أن المال والولد من الزينة، فهما من الفتن الصعبة التي تواجه الإنسان، وبخاصة المؤمن الذي يخشى ربه عز وجل، والله تعالى يقول:{وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}.[3]

والأموال والأولاد يكونان فتنة، حين يشغلان البال عن القيام بالطاعة، وعندما يصدَّان عن أمور الآخرة، وقد عقب الله تعالى على تحذيره من هذا الافتتان بقوله جل ذكره: {وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}؛ أي لا تفوتوا أجر الله العظيم بالانشغال بالأموال والأولاد، وفعل المعاصي لأجلهم، وفي هذا يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.[4]

---

1. شرح الزرقاني، 2/ 54.
2. آل عمران: 14.
3. الأنفال: 28.
4. المنافقون: 9.

وتكرر هذا التحذير الرباني في سورة التغابن، فقال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَالله عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[1]، وفي هذه السورة نبه العلي القدير إلى لون من ألوان الفتنة بالأزواج والأولاد، والمتمثل بالعداوة التي يمكن أن تواجه الشخص من أبنائه وأزواجه، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.[2]

قيل: إن سبب نزول هذه الآية الكريمة أن قوماً أسلموا، وأرادوا الهجرة، فثبطهم أزواجهم وأولادهم عنها، فحذرهم الله من طاعتهم في ذلك، وقيل: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، وذلك أنه أراد الجهاد، فاجتمع أهله وأولاده، فشكوا من فراقه، فرقَّ لهم ورجع، ثم إنه ندم، وهَمَّ بمعاقبتهم، فنزلت الآية محذرة من فتنة الأولاد، ثم صرف تعالى عن معاقبتهم بقوله: {...وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا...} الآية، ولفظ الآية مع ذلك على عمومه في التحذير، ممن يكون للإنسان عدواً من أهله وأولاده، سواء أكانت عداوتهم بسبب الدين أم الدنيا.[3]

وفي تفسير أسرار ترتيب القرآن، قيل: إن الإنسان يأتي يوم القيامة، وقد جمع مالاً ولم يعمل فيه خيراً، فأخذه وارثه بسهولة من غير مشقة في جمعه، فأنفقه في وجوه الخير، فالجامع محاسب معذب مع تعبه في جمعه، والوارث منعم مثاب مع سهولة وصوله إليه، وذلك هو التغابن، ولهذا قال تعالى: {...وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[4].

وفي آخر سورة المنافقون، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا

1. التغابن: 15.
2. التغابن: 14..
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 4 /124.
4. التغابن: 16.

أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.[1]

وفي سورة التغابن تعليل لتلك الجملة الواردة في آية سورة (المنافقون) السابقة، فقال تعالى:{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَالله عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[2]، ولذا ذكرت على ترتيبها.[3] فلا ينبغي للإنسان الاشتغال بزينة الحياة الدنيا عما ينفعه في آخرته.[4]

وفي صحيح البخاري، بَاب ما يُتَّقَى من فِتْنَةِ الْمَالِ وَقَوْلِ الله تَعَالَى: {أنما أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} وفيه عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (تَعِسَ عبد الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَالْقَطِيفَةِ، وَالْخَمِيصَةِ، إن أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لم يُعْطَ لم يَرْضَ).[5]

وعن عَطَاءٍ، قال: سمعت ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، يقول: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لو كان لابن آدَمَ وَادِيَانِ من مَالٍ، لابْتَغَى ثَالِثًا، ولا يَمْلأُ جَوْفَ بن آدَمَ إلا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ الله على من تَابَ).[6]

فهذه وقفة أخرى عند ما تيسر من التوجيهات الربانية والنبوية فيما يخص التحذير من سلوك ما ينفر الناس على شاكلة الفتن عن الدين، آملين أن نوفق في عرض المزيد من هذه التوجيهات في الحلقة القادمة من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. المنافقون: 9.
2. التغابن:15.
3. أسرار ترتيب القرآن، 1 /139 - 140.
4. أضواء البيان، 3 /281.
5. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال.
6. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الثالثة

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لو كان لي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، لَسَرَّنِي أَنْ لا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلَاثُ لَيَالٍ، وَعِنْدِي منه شَيْءٌ، إلا شيئاً أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ).(*)

تعرضت الحلقة السابقة من هذه الزاوية الصحفية إلى التحذير من فتنة الناس عن الدين، حيث تمَّ التطرق إلى مفهوم فتنة المحيا والممات، وتركز الحديث عن فتنة المحيا، التي تعني ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتتان بالدنيا، والشهوات، وتم الوقوف عند بعض أنواع هذه الفتن الرئيسة في ضوء الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، التي تضمنت ذكرها، وكان من ذلك الوقوف عند فتنة المال والولد، حيث يكونان فتنة، حين ينشغل بال صاحبهما بهما عن القيام بالطاعة، وعندما يصدانه عن أمور الآخرة، وفي الحديث أعلاه، بيان واضح من النبي، صلى الله عليه وسلم، يبدي فيه زهداً في الدنيا وزينتها ومالها، حيث لم يكن يحرص على كنوزها، بخلاف أولئك الذين فتنوا بمال الدنيا وكنوزها، فانشغلوا بها عن طاعة الله، وانحرفوا عن العمل بشرعه وأحكامه في سبيلها، حتى إن كنوز بعضهم تؤول في نهاية المطاف إلى نار تكوي جباههم وجنوبهم، لأنهم لم يخرجوا منها حق الله المتمثل في زكاتها والصدقة منها، إضافة إلى جريمة الذين لا يبالون من أين يكتسبون الأموال، فلا يتحرزون عن أكل الحرام، والله تعالى يحذر من هذين السلوكين المنحرفين، فيقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا.

الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[1]، وقد استشهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالوعيد الرباني للذين لا يؤدون حق الله في أموالهم، فقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ، يَعْنِي شِدْقَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا {وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ} الْآيَةَ).[2]

فالذين لا يؤدون زكاة أموالهم، يسقطون في حبال فتنة المال؛ لأنهم انجذبوا إلى بريقه ولمعانه، وأغراهم الشغف إليه، حتى آلَ إلى أن يحمى به في نار جهنم، ثم تصلى به جلودهم.

الآية المشار إليها في هذا الحديث هي من سورة آل عمران، ونصها: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ولله مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}.[3]

عذاب من يسقط في فتنة المال:

إن طوق العذاب الذي ينتظر المقصرين في أداء حق الله في أموالهم، هو نفسه ذلك القدر من المال الذي تم التقاعس عن إخراجه في سبيل الله، انقلب بقدرة الله تعالى من صورته المرغوبة إلى صورة مفزعة، حين أصبح طوقاً من العذاب يلف رقاب البخلاء، الذين يبخلون عن أداء حق الله في أموالهم التي ما وصلت أيديهم إليه إلا بفضل الله،

---

1. التوبة: 34.
2. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة.
3. آل عمران: 180.

فالمال لله، وما أصحابه إلا مستخلفون فيه، وهؤلاء البخلاء يختلف منهجهم عن هدي الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي صرّح أنه لو قدّر له أن يملك مثل جبل أحد ذهباً، لم يكن يسر أن تمر عليه ثلاث ليال وعنده من هذا الكم الهائل من المال شيء، إلا ما كان سبب ادّخاره يعود إلى أمر واجب، يتمثل في تخصيصه لسداد دين مستحق عليه، مما يعني أنه عليه الصلاة والسلام كان يحرص على إنفاذ المال في الوجوه المشروعة، ولم يكن يرغب في ادّخاره واكتنازه.

فمنهج الرسول، صلى الله عليه وسلم، هو طوق النجاة من فتنة المال، وفتنة المحيا والممات، فجميل أن يكون المال بين الأيدي، ليسخر في استخدامات الناس المشروعة، غير أنه يكون قبيحاً حين يستوطن القلوب، ولا يُبالى به من أين يُكتسب وكيف يُنفق.

وتعدّدت الروايات في صحاح السنة التي تؤكد على تحلي الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالزهد في الدنيا ومالها، فعن أبي ذَرٍّ، قال: (كنت أَمْشِي مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في حَرَّةِ الْمَدِينَةِ[1] عِشَاءً، اسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ، فقال: يا أَبَا ذَرٍّ؛ ما أُحِبُّ أَنَّ أُحُدًا لي ذَهَبًا، يَأْتِي عَلَيَّ لَيْلَةٌ، أو ثَلَاثٌ، عِنْدِي منه دِينَارٌ إلا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ، إلا أَنْ أَقُولَ بِهِ في عِبَادِ الله هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وَأَرَانَا بيده، ثُمَّ قال: يا أَبَا ذَرٍّ؛ قلت: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يا رَسُولَ الله، قال: الْأَكْثَرُونَ هُمْ الْأَقَلُّونَ[2]، إلا من قال هَكَذَا وَهَكَذَا...).[3]

من هنا كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يخشى على المسلمين من بعده من أن يفتنوا بالدنيا وزينتها إن بسطت لهم، فقال: (...فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِن

1. المقصود بـ (حَرَّةِ الْمَدِينَةِ): مكان معروف بالمدينة من الجانب الشمالي منها. وقيل: الحرة الأرض التي حجارتها سود، فتح الباري، ابن باز، 11 /262.
2. قوله: (الْأَكْثَرُونَ هُمْ الْأَقَلُّونَ)؛ الأكثرون أي من جهة المال، هم الأقلون ثواباً، عمدة القاري، 33 / 2.
3. صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك.

أَخْشَى عليكم أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ).[1]

موقف للفاروق عمر بن الخطاب:

إن خير الخلق بعد الرسل، عليهم السلام، هم الصحابة، رضي الله عنهم، الذين اقتفوا أثر الرسول، صلى الله عليه وسلم، فزهدوا في الدنيا وزينتها، وتعلقوا بالآخرة، فأدوا حق الله في أموالهم وجاهدوا فيها بأنفسهم؛ لينالوا الحظ الموعود الوافر في جنات النعيم، وينجحوا في امتحان فتنة المال، متأسين برسولهم وقدوتهم صلى الله عليه وسلم، فعن الْمِسْوَرِ بن مَخْرَمَةَ، قال: (لَمَّا طُعِنَ عُمَرُ، جَعَلَ يَأْلَمُ، فقال له ابن عَبَّاسٍ وَكَأَنَّهُ يُجَزِّعُهُ [2]: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَئِنْ كان ذَاكَ، لقد صَحِبْتَ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ، وهو عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ أَبَا بَكْرٍ، فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ، وهو عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحَبَتَهُمْ، فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُمْ، وَلَئِنْ فَارَقْتَهُمْ، لَتُفَارِقَنَّهُمْ، وَهُمْ عَنْكَ رَاضُونَ، قال: أَمَّا ما ذَكَرْتَ من صُحْبَةِ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ من الله تَعَالَى مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا ما ذَكَرْتَ من صُحْبَةِ أبي بَكْرٍ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ من الله جَلَّ ذِكْرُهُ، مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا ما تَرَى من جَزَعِي، فَهُوَ من أَجْلِكَ، وَأَجْلِ أَصْحَابِكَ، والله لو أَنَّ لي طِلاعَ الأرض ذَهَبًا، لَافْتَدَيْتُ بِهِ من عَذَابِ الله عز وجل قبل أَنْ أَرَاهُ).[3]

فهذا عمر الفاروق، رضي الله عنه، على درب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقسم

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها.
2. والمقصود بـقوله: (وَكَأَنَّهُ يُجَزِّعُهُ)؛ أَيْ يَنْسُبهُ إِلَى الْجَزَع، وَيَلُومهُ عَلَيْهِ، أَوْ مَعْنَى يُجَزِّعُهُ يُزِيل عَنْهُ الْجَزَع. فتح الباري، 10 /488.
3. صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي، رضي الله عنه.

لو أن له طلاع الأرض ذهباً؛ أي ملء الأرض، وأصل الطلاع ما طلعت عليه الشمس، والمراد هنا ما يطلع عليها ويشرق فوقها من المال أو الذهب، لافتدى به من عذاب الله، وإنما قال ذلك لغلبة الخوف الذي وقع له من خشية التقصير فيما يجب عليه من حقوق الرعية.(*)

فهذه وقفة أخرى عند ما تيسر من التوجيهات الربانية والنبوية، فيما يخص التحذير من سلوك ما ينفر الناس عن الدين، آملين أن نوفق في عرض المزيد من هذه التوجيهات في الحلقة القادمة من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* عمدة القاري، 16 /200.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الرابعة

عن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، رضي الله عنه: (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ على الْمِنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فقال: إني مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ من بَعْدِي ما يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ من زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، فقال رَجُلٌ: يا رَسُولَ الله؛ أو يأتي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَقِيلَ له: ما شَأْنُكَ تُكَلِّمُ النبي، صلى الله عليه وسلم، ولا يُكَلِّمُكَ؟ فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يُنْزَلُ عليه، قال: فَمَسَحَ عنه الرُّحَضَاءَ، فقال: أَيْنَ السَّائِلُ وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ؟ فقال: إنه لا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ، وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ، أو يُلِمُّ إلا آكِلَةَ الْخَضْرَاءِ، أَكَلَتْ حتى إذا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا، اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ، فَثَلَطَتْ، وَبَالَتْ، وَرَتَعَتْ، وَإِنَّ هذا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ، ما أَعْطَى منه الْمِسْكِينَ، وَالْيَتِيمَ، وابن السَّبِيلِ، أو كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم: وَإِنَّهُ من يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عليه يوم الْقِيَامَةِ).(*)

تعرضت الحلقة السابقة من هذه الزاوية الصحفية إلى التحذير من فتنة الناس عن الدين، من خلال التركيز على طوق النجاة من فتنة المحيا والممات.

وأشارت إلى العذاب الذي ينتظر المقصرين بأداء حق الله في أموالهم، مبينة أن المال لله، وما أرباب المال من البشر إلا مستخلفون فيه، والرسول، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، رضي الله عنهم، زهدوا من بعده في الدنيا وزينتها، وتعلقوا بالآخرة، فأدوا حق الله في أموالهم وجاهدوا فيها وبأنفسهم؛ لينالوا الحظ الموعود الوافر في جنات النعيم،

* صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى.

ونجحوا بالتالي في امتحان فتنة المحيا.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، حذر في حديثه الذي بين أيدينا من الفتنة بزينة الحياة الدنيا ومالها، مبدياً تخوفه على المسلمين من بعده لسبب قد يغيب عن بال بعض الناس الانتباه إليه، ويتمثل في الخوف عليهم مما قد يفتح عليهم من زهرة الدنيا وزينتها؛ أي أن هذا الذي يبدو في ظاهره خيراً، قد يختبئ في باطنه شر عظيم.

شرح الحديث:

مما جاء في شرح الحديث المذكور أعلاه أن المراد بالزهرة في قوله (زَهْرَةِ الدُّنْيَا) الزينة والبهجة، وهي مأخوذة من زهرة الشجر، وهو نورها، والمراد ما فيها من أنواع المتاع، والثياب، والزروع، وغيرها، مما يفتخر الناس بحسنه، مع قلة البقاء.

قوله: (أو يأتي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ) أي هل يأتي، أي أتصير النعمة عقوبة؟ لأن زهرة الدنيا نعمة من الله، فهل تعود هذه النعمة نقمة؟ وهو استفهام استرشاد، لا إنكار، أي هل يستجلب الخير الشر؟

قوله: (يُنْزَلُ عليه)؛ أي الوحي، وكأنهم فهموا ذلك بالقرينة من الكيفية التي جرت عادته بها عندما يوحى إليه.

الرُّحَضَاءَ في قوله: (فَمَسَحَ عنه الرُّحَضَاءَ) هو العَرَق، وقيل: الكثير، وقيل: عرق الحمى، وأصل الرَحْض بفتح ثم سكون الغَسْل، ولهذا فسره الخطابي أنه عرق يرحض الجلد لكثرته.

قوله: (أَيْنَ السَّائِلُ؟ وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ) فالصحابة لاموه أولاً، حيث رأوا سكوت النبي، صلى الله عليه وسلم، فظنوا أنه أغضبه، ثم حمدوه آخراً؛ لما رأوا مسألته سبباً لاستفادة ما قاله النبي، صلى الله عليه وسلم.

وأما قوله: (وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ) فأخذوه من قرينة الحال.

قوله: (إنه لَا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ) يؤخذ منه أن الرزق ولو كثر فهو من جملة الخير، وإنما يعرض له الشر بعارض البخل به عمن يستحقه، والإسراف في إنفاقه فيما لم يشرع، وأن كل شيء قضى الله أن يكون خيراً، فلا يكون شراً، وبالعكس ولكن يخشى على من رزق الخير أن يعرض له في تصرفه فيه ما يجلب له الشر.

قوله: (وَإِنَّ هذا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ) من قبيل ضرب المثل. ومعناه أن صورة الدنيا حسنة، والعرب تسمي كل شيء مشرق ناضر أخضر، فشبه المال والرغبة فيه بالفاكهة الخضراء المستلذة.

الرَّبِيعُ في قوله: (وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ)؛ هو النهر، أو الفصل المشهور بالإنبات، وإسناد الإثبات إليه مجازي، والمنبت في الحقيقة هو الله تعالى. و(مِمَّا) في قوله: (مِمَّا يُنْبِتُ) للتكثير، وليست من للتبعيض، وهذا الكلام كله وقع كالمثل للدنيا.

قوله: (يُلِمُّ)؛ أي يقرب من الهلاك.

وقوله: (آكِلَةَ الْخَضْرَاءِ) هو ضرب من الكلأ، يعجب الماشية وواحده خضرة. وهو النبات الأخضر، التي تستلذ الماشية أكله، فتستكثر منه، وقيل هو ما ينبت بعد إدراك العشب وهياجه؛ فإن الماشية تقتطف منه مثلاً شيئاً فشيئاً، وقال الزين بن المنير: آكلة الخضر هي بهيمة الأنعام، التي ألف المخاطبون أحوالها في سومها ورعيها، وما يعرض لها من البشم وغيره.

قوله: (امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا) الخاصرتان هما جانبا البطن من الحيوان.

وثَلَطَتْ في قوله: (اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ، فَثَلَطَتْ، وَبَالَتْ، وَرَتَعَتْ): أي ألقت ما في بطنها رقيقاً، والمعنى أنها إذا شبعت، فثقل عليها ما أكلت تحيلت في دفعه؛ بأن تجتر

فيزداد نعومة، ثم تستقبل الشمس فتحمي بها، فيسهل خروجه، فإذا خرج زال الانتفاخ فسلمت، وهذا بخلاف من لم تتمكن من ذلك، فإن الانتفاخ يقتلها سريعاً.[1]

دلالة الأمثلة المذكورة في الحديث وبعض توجيهاته:

قال الأزهري: هذا الحديث إذا فرق لم يكد يظهر معناه، وفيه مثلان:

أحدهما: للمفرط في جمع الدنيا، المانع من إخراجها في وجهها، وهو ما تقدم؛ أي الذي يقتل حبطاً.

والثاني: المقتصد في جمعها، وفي الانتفاع بها، وهو (آكِلَةَ الْخَضْرَاءِ)، فإن الخضر ليس من أحرار البقول التي ينبتها الربيع، ولكنها الحبة، والحبة ما فوق البقل، ودون الشجر التي ترعاها المواشي بعد هيج البقول.

فضرب آكلة الخضر من المواشي مثلاً لمن يقتصد في أخذ الدنيا وجمعها، ولا يحمله الحرص على أخذها بغير حقها، ولا منعها من مستحقها، فهو ينجو من وبالها، كما نجت آكلة الخضر، وأكثر ما تحبط الماشية إذا انحبس رجيعها في بطنها.

وقال الغزالي: مثل المال، مثل الحية التي فيها ترياق نافع وسم ناقع، فإن أصابها العارف الذي يحترز عن شرها، ويعرف استخراج ترياقها كان نعمة، وإن أصابها الغبي، فقد لقي البلاء المهلك.

وفي الحديث التحذير من المنافسة في الدنيا.

وفيه تسمية المال خيراً، ويؤيده قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}[2]

وقال القاضي عياض: ضرب صلى الله عليه وسلم لهم مثلاً بحالتي المقتصد والمكثر،

---

1. فتح الباري، 11/ 246 - 248.
2. العاديات: 8، فتح الباري 11/ 246 - 248.

فكأنه صلى الله عليه وسلم يقول: أنتم تقولون إن نبات الربيع خير، وبه قوام الحيوان، وليس هو كذلك مطلقاً، بل منه ما يقتل، أو يقارب القتل، فحالة المبطون المتخوم، كحالة من يجمع المال، ولا يصرفه في وجوهه، فأشار صلى الله عليه وسلم إلى أن الاعتدال والتوسط في الجمع أحسن، ثم ضرب مثلاً، لمن ينفعه إكثاره، وهو التشبيه بآكلة الخضر، وهذا التشبيه لمن صرفه في وجوهه الشرعية، ووجه الشبه أن هذه الدابة تأكل من الخضر، حتى تمتلىء خاصرتها، ثم تثلط، وهكذا من يجمعه، ثم يصرفه، والله أعلم.(*)

فهذا الحديث بمضامينه وأمثلته يبرز خطورة الفتنة التي تكمن في ملذات الدنيا وزينتها وانفتاح خيراتها، وكثير هم الذين تغريهم هذه الفتنة، فينسيهم الله أنفسهم كما نسوه، بسبب فسقهم.

فهذه وقفة أخرى عند ما تيسر من التوجيهات الربانية والنبوية، فيما يخص التحذير من زينة الدنيا من أن تفتن عن الدين، آملين أن نوفق في عرض المزيد من هذه التوجيهات في الحلقة القادمة من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح مسلم بشرح النووي، 7/ 143 - 144.

قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (لم يَتَكَلَّمْ في المَهْدِ إلا ثَلاثَةٌ؛ عِيسَى، وكان في بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ، يُقَالُ له جُرَيْجٌ، كان يُصَلِّي، جَاءَتْهُ أُمُّهُ، فَدَعَتْهُ، فقال: أُجِيبُهَا، أو أُصَلِّي؟ فقالت: اللهم لا تُمِتْهُ حتى تُرِيَهُ وُجُوهَ المُومِسَاتِ، وكان جُرَيْجٌ في صَوْمَعَتِهِ، فَتَعَرَّضَتْ له امْرَأَةٌ، وَكَلَّمَتْهُ، فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِيًا، فَأَمْكَنَتْهُ من نَفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلامًا، فقالت من جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ، فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ، وَأَنْزَلُوهُ، وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ، وَصَلَّى، ثُمَّ أتى الْغُلامَ، فقال: من أَبُوكَ يا غُلامُ؟ قال: الرَّاعِي، قالوا، نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ من ذَهَبٍ، قال: لا إلا من طِينٍ، وَكَانَتْ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لها من بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَرَّ بها رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ، فقالت: اللهم اجْعَلْ ابْنِي مثله، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا، وَأَقْبَلَ عَلى الرَّاكِبِ، فقال: اللهم لا تَجْعَلْنِي مثله، ثُمَّ أَقْبَلَ على ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ، قال أبو هُرَيْرَةَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، يَمَصُّ إِصْبَعَهُ، ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ، فقالت: اللهم لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هذه، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا، فقال: اللهم اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فقالت: لِمَ ذَاكَ؟ فقال: الرَّاكِبُ جَبَّارٌ من الْجَبَابِرَةِ؟ وَهَذِهِ الْأَمَةُ يَقُولُونَ: سَرَقْتِ، زَنَيْتِ، ولم تَفْعَلْ).(*)

تعرضت الحلقة السابقة من هذه الزاوية الصحفية إلى التحذير من افتتان الناس بزينة الحياة الدنيا عن الدين، وبمناسبة ذكرى يوم الأم نود التطرق إلى جانب من الفتنة عن الدين من طرف الوالدين، والحديث النبوي المذكور يذكر في جانب منه قصة العابد

* صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: { واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً} (مريم: 16).

جريج، الذي آثر الانشغال بصلاته عن إجابة أمه لما نادته، فاستمر في صلاته دون أن يجيبها، فدعت عليه، فقالت: (اللهم لا تُمِتْهُ حتى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ) ثم كان ما كان من الابتلاء، وهدمت صومعته، ثم انتهت هذه الفتنة بظهور الحق، وإبطال الباطل، وعاد جريج إلى عبادته.

الشاهد من الاستشهاد بهذا الخبر النبوي أن الفتنة عن الدين يقوم بفعلها أحياناً الوالدان أو أحدهما، فغضب أحد الوالدين قد يُحْرِف مسار الشخص عن الاستقامة على الدين، أو قد يسبب له متاعب وصعاب، جراء التناقض الذي يحدث أحياناً مع والديه أو أحدهما، بسبب خلاف بينه وبينهما حول مسألة دينية، أو حتى حول أصل التدين، فبعض الأبناء يكون لديه توجه للعمل وفق ما يرضي الله في سلوكه وعبادته، ووالداه أو أحدهما يعترض عليه، ويواجهه بالغضب، وقد يتخذ إجراءات تصل إلى حد الاعتداء الجسدي عليه، أو حرمانه من بعض حقوقه على والديه، كالإمساك عن النفقة عليه، أو حجب الميراث عنه، وهذه الفتنة يتعرض لها بعض الأبناء الذين آمنوا، وبقي آباؤهم أو أمهاتهم على غير إيمان، وحصلت في عهود الأنبياء السابقين، وفي عصر النبوة المحمدية، وما زالت مثل هذه الفتن تقع، فيشاهد بعضها وتتداول وسائل الإعلام أخبار بعض منها.

فتنة سعد بن أبي وقاص من قبل والدته:

الصحيح أن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، تعرض من قبل والدته لفتنة شديدة بسبب إسلامه، وكانت مصرة على أن يرتد عن دينه، ومارست ضغوطاً نفسية عليه من خلال امتناعها عن الطعام والشراب، حتى يعود عن دينه، فعن مُصْعَب بن

سَعْدٍ، عن أبيه: (أَنَّهُ نَزَلَتْ فيه آيَاتٌ من الْقُرْآنِ، قال: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ، أَنْ لا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا، حتى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، ولا تَأْكُلَ، ولا تَشْرَبَ، قالت: زَعَمْتَ أَنَّ الله وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ، وأنا أُمُّكَ، وأنا آمُرُكَ بهذا، قال: مَكَثَتْ ثَلاثًا حتى غُشِيَ عليها من الْجَهْدِ، فَقَامَ ابن لها يُقَالُ له عُمَارَةُ، فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو على سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ الله عز وجل في الْقُرْآنِ هذه الْآيَةَ: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ على أَنْ تُشْرِكَ بِي} وَفِيهَا {وَصَاحِبْهُمَا في الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}).[1]

والآية المذكور طرفها في هذا الحديث الشريف هي من سورة لقمان ونصها: {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[2]، وتشترك هذه الآية الكريمة مع ما أنزل الله تعالى بشأن الأمر بمصاحبة الوالدين المشركين بالمعروف، حتى وإن جاهدا الولد على اتباع منهجهما المضل، فقال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.[3]

إبراهيم، عليه السلام، يتصدى لفتنة والده عن الدين:

واجه نبي الله إبراهيم، عليه السلام، فتنة قاسية عن الدين من قبل والده، حين أصرَّ والده على اختيار درب الكفر والطغيان، غير أنه صبر، وحافظ على سلوك الأدب مع والده، فتلطف في خطابه، واستغفر له في مرحلة ما قبل النهي عن الاستغفار للكافرين،

1. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه.
2. لقمان: 15
3. العنكبوت: 8.

وفي هذا يقول تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ}[1]، وقد قابل إبراهيم، عليه السلام، قسوة والده وعناده، بالملاطفة والموادة له، مع المحافظة على الثبات على دينه، فردَّ على أبيه بكلام فيه اللطف والحنان والدفء، فأخبر الله تعالى في محكم التنزيل عن ذلك في مشهد قرآني ناطق ومعبر، فقال جل شأنه: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً* يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمَ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً* يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً* يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً* قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً* قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً* وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً}.[2]

فتنة الأبناء عن الدين بظلمهم:

سلب الحقوق، أو الظلم فيها، يجر أحياناً إلى النقمة والغضب ممن يقومون بذلك، وحين يكون أحد الوالدين يصلي ويصوم، وفي الوقت نفسه، يظلم أبناءه في النفقة، أو يحرم بعضهم من حقوقهم المشروعة، فإن بعض الأبناء يعبرون عن احتجاجهم على مثل هذا السلوك الخاطئ لآبائهم، من خلال رفض الدين الذي يزعمون أنهم من أتباعه، ووقوع مثل هذا السلوك على مرأى من الأبناء، يدفعهم أحياناً إلى رفض الدين الذي يحمله آباؤهم، أو تحمله أمهاتهم، من هنا حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على

1. التوبة: 114
2. مريم: 41 - 48.

توعية الآباء على حفظ حقوق أبنائهم، والمساواة بينهم في العطاء، حتى لا يجد الشيطان مدخلاً لأنفسهم، فيحرفهم عن صراط الله المستقيم.

عن النُّعْمَانِ بن بَشِيرٍ، رضي الله عنهما، قال: (سَأَلَتْ أُمِّي أبي بَعْضَ الْمَوْهِبَةِ لي من مَالِهِ، ثُمَّ بَدَا له، فَوَهَبَهَا لي، فقالت: لَا أَرْضَى حتى تُشْهِدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَأَخَذَ بِيَدِي، وأنا غُلَامٌ، فَأَتَى بِيَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: إِنَّ أُمَّهُ بِنْتَ رَوَاحَةَ، سَأَلَتْنِي بَعْضَ الْمَوْهِبَةِ لِهَذَا، قال: أَلَكَ وَلَدٌ سِوَاهُ؟ قال: نعم، قال: فَأُرَاهُ، قال: لَا تُشْهِدْنِي على جَوْرٍ، وقال أبو حَرِيزٍ عن الشَّعْبِيِّ: لا أَشْهَدُ على جَوْرٍ)(*)، وفي هذا توجيه إلى أهمية الكف عن ظلم الأبناء أو بعضهم.

فهذه وقفة أخرى عند ما تيسر من التوجيهات الربانية والنبوية، فيما يخص التحذير من الفتنة عن الدين، آملين أن نوفق في عرض المزيد من هذه التوجيهات في الحلقة القادمة من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الأخيرة

قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (ما تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ على الرِّجَالِ من النِّسَاءِ).[1]

تتواصل هذه الحلقة من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، مع سابقاتها في التحذير من فتنة الناس عن الدين، والحديث الشريف أعلاه يشير إلى خطورة فتنة النساء على الرجال، وهي مشاهدة في كثير من المجالات، والصور الحياتية، ولا مجال لمواربتها أو تجاهلها، ومع ذلك؛ فإن بعض الناس من النساء والرجال ينكر الحديث عن هذه الفتنة، انطلاقاً من الظن أن مجرد الحديث عنها ينتقص من مقام المرأة، ويحط من شأنها، والأمر ليس كذلك، وإنما هو يتماشى مع حقائق يلمسها الناس رجالاً ونساء في حياتهم وعلاقاتهم، وتنزع إليها نفوسهم ورغباتهم وشهواتهم، وهن يذهبن بلب الرجل الحازم بزينتهنَّ وتصنعهنّ، ولا يكاد يسلم من ذلك أحد من البشر، واختلافهم في ذلك يتعلق بمستوى هذه النزعة، وليس في أصل وجودها، والإسلام بواقعيته واعترافه بفطرة الإنسان، وطبيعة خلقه وغرائزه، لا ينكر الانجذاب إلى دوافع الغريزة، لكنه يهذبها ويضبطها؛ حتى تتم الاستجابة لها بطريقة تأتي بالخير، وتصرف عن صاحبها ومجتمعه، الويل والفساد والانحطاط.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (ما تَرَكْتُ بَعْدِي)؛ أي ما أترك، وعبر بالماضي لتحقق الموت، ومعنى (فِتْنَة)؛ أي امتحاناً وبلية، وقوله: (أَضَرَّ على الرِّجَالِ من النِّسَاءِ)؛ لأن الطباع كثير ما تميل إليهن، وتقع في الحرام لأجلهن، وتسعى للقتال والعداوة بسببهن.[2]

1. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة.

2. تحفة الأحوذي 8/ 53.

قال الحافظ: إن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن، ويشهد له قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا والله عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[1]، فجعل الله تعالى النساء من عين الشهوات، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك، ومن شر الافتتان بهن، عدم الاستغناء عنهن، وأنهن يحملن الرجال على الانشغال عن طلب أمور الدين، وعلى التهالك على طلب الدنيا، وذلك أشد الفساد.[2]

ووقاية من تفاقم الافتتان بالنساء وغيرهن من متعلقات الروابط العائلية وزينة الحياة الدنيا، فإن الله تعالى حذر من تقديم شيء من ذلك على حب الله والرسول، صلى الله عليه وسلم، والجهاد في سبيله تعالى، فقال سبحانه: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.[3]

ومخالفة هذا التحذير تعني الوقوع في الفتنة عن الدين، ومن ثم الانزلاق في وحل المعاصي والآثام.

أول فتنة بني إسرائيل:

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ الله مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فإن أَوَّلَ

1. آل عمران: 14.
2. فتح الباري، 9/ 138.
3. التوبة: 24.

فِتْنَةِ بني إِسْرَائِيلَ كانت في النِّسَاءِ).[1]

قيل: إن المراد بأول فتنة بني إسرائيل، قتل النفس التي أمروا فيها بذبح البقرة، حيث قُتِل رجل من قبل ابن أخيه أو عمه، ليتزوج ابنته، أو زوجته، وقيل: يحتمل كونه أشار إلى قصة هاروت وماروت؛ لأنهما فتنا بسبب امرأة من بني إسرائيل، ويحتمل أنه أشار إلى قضية رجل هلك بمطاوعة زوجته.[2]

امرأة العزيز أنموذج لفتنة النساء:

عرض القرآن الكريم في سورة يوسف قصته، عليه السلام، مع امرأة العزيز، التي ظهرت فيها ملامح واضحة لفتن النساء، متجلية بالكيد، والإغواء، واستخدام ما وهبهنَّ الله من خلقة، وطبيعة في تطويع الرجال للاستجابة لمؤثراتهن المتقاطعة مع نزوعهم إليهن، وحبهم لهن، ومما جاء بخصوص امرأة العزيز، ونسوة المدينة، ويوسف، عليه السلام، قوله تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ الله إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ* وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ* وَاستَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ* وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ* فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ* يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي

1. صحيح مسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء.
2. فيض القدير 2 /180.

لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ* فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لله مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ* قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ* قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ* فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.[1]

ثم عادت السورة لمتابعة هذا الجانب من هذه القصة القرآنية، فقال تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ* قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ* ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ* وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[2]

الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ:

أرشد الإسلام إلى بعض خصائص المرأة وكيفية التعامل معها، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْمَرْأَةَ كَالضِّلَعِ، إذا ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنْ تَرَكْتَهَا اسْتَمْتَعْتَ بها، وَفِيهَا عِوَجٌ).[3]

1. يوسف: 23 - 34.
2. يوسف: 50 - 53.
3. صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء.

وإلى جانب الإقرار بهذه الحقيقة، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، يوصي بالمرأة خيراً، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ؛ فإن الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ من ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ في الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لم يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ).[1]

يعني أن النساء جبلن على طباع معينة، ومعنى كسرته، قيل: هو فراقها بالطلاق؛ أي إن أردت منها أن تترك اعوجاجها، أفضى الأمر إلى فراقها.[2]

أما المرأة إذا كانت صالحة، فتكون خير زينة الحياة الدنيا، وأفضل بهجتها، فعن عبد الله ابن عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا، الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ)[3]، والله تعالى أشاد بالنساء الصالحات، فقال سبحانه: {...فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ الله...}[4]، وبالصلاح تخف حدة الفتنة والإغواء.

فهذه وقفة ختامية عند ما تيسر من التوجيهات الربانية والنبوية، فيما يخص التحذير من الفتنة عن الدين، آملين أن نوفق في الاستفادة من هذه التوجيهات بما ينفعنا في ديننا وآخرتنا، وصلى الله وسلم على الرسول الأسوة، محمد، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم، صلوات الله عليه، وذريته.
2. فتح الباري، 6 /368.
3. صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة.
4. النساء: 34.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يستعيذ بالله من الهم والحزن ـ الحلقة الأولى

عن أنس، رضي الله عنه، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: اللهم إني أَعُوذُ بِكَ من الْهَمِّ، وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ).[1]

الحزن في اللغة: هو نقيضُ الفرَح، وهو خلافُ السُّرور.[2]

وعن الخطابي قال: أكثر الناس لا يفرقون بين الهم والحزن، وهما على اختلافهما في الاسم، يتقاربان في المعنى، إلا أن الحزن إنما يكون على أمر قد وقع، والهم إنما هو فيما يتوقع ولم يكن بعد .

وقال القزاز: الهم هو الغم والحزن، تقول: أهمني هذا الأمر وأحزنني، ويحتمل أن يكون من همه المرض، إذا أذابه وأنحله، مأخوذ من هم الشحم إذا أذابه، والشيء مهموم؛ أي مذاب.[3]

وقيل: إن الحزن خشونة في النفس؛ لحصول غم، والهم حزن يذيب الإنسان، فهو أخص من الحزن، وقيل: هما بمعنى.[4]

وقيل: الفرق بينهما بالشدة والضعف، فالهم أبلغ وأشد من الحزن.[5]

نعمة إذهاب الخوف والحزن ومسبباتها:

يذكر الرازي أن الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع حصول مضرة في المستقبل،

1. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من الجبن والكسل.
2. لسان العرب: 4/ 109.
3. عمدة القاري: 14/ 177.
4. تحفة الأحوذي، 9/ 320 - 321.
5. فيض القدير: 2/ 151.

والغم عبارة عن تألم القلب بسبب قوة نفع كان موجوداً في الماضي، وإذا كان كذلك، فدفع الخوف أولى من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم إذا عرفت هذا، فنقول: إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم في أول الأمر يخبرون بأنه لا خوف عليكم بسبب ما تستقبلونه من أحوال القيامة، ثم يخبرون بأنه لا حزن عليكم بسبب ما فاتكم من أحوال الدنيا، وعند حصول هذين الأمرين، فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية، ثم بعد الفراغ منه، يبشرون بحصول المنافع، وهو قوله تعالى: {...وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ}[1]

فيا ترى من هم الذين يذهب الله عنهم الخوف والحزن في الدنيا والآخرة؟ أجابت عن هذا السؤال مضامين عدد من الآيات القرآنية الكريمة، التي اشترك معظمها في التبشير بصرف الخوف والحزن عن عباد الله المخلصين، الذين ذكروا بأوصاف متعددة، منها، أنهم أولياء الله والذين اتقوا، والذين اتبعوا هدى الله تعالى، والذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وعملوا صالحاً، والذين أسلموا وجوههم لله وهم محسنون، والذين ينفقون أموالهم في سبيل الله سراً وعلانية، والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، والذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، وفي حجب الخوف والحزن عن أولياء الله تعالى، يقول جل شأنه: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[2]

وفي رفعهما عن الذين اتقوا، يقول جل ذكره: {وَيُنَجِّي الله الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}[3]، ويقول سبحانه: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.[4]

والله يحمي الذين اتبعوا هداه من الخوف والحزن، يقول تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً

1. فصلت:30. التفسير الكبير: 27 /106.
2. يونس: 62.
3. الزمر: 61.
4. الأعراف: 35.

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.[1]

والمؤمنون الذين يعملون الصالحات في مختلف العصور، تكفل الله بحسن جزائهم، الذي من أبرزه حمايتهم من تبعات الخوف والحزن، فيقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[2]، وتكرر مضمون هذا البيان الرباني في الآية 69 من سورة المائدة.

كما تكرر التأكيد على حماية عموم المؤمنين المصلحين من الخوف والحزن، في قوله تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.[3]

وقوله جل شأنه: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.[4]

ومن أجمل مجازاة الذين آمنوا واستقاموا أن الله تعالى تكفل بصرف الخوف والحزن عنهم، فقال جل ذكره: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}.[5]

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}.[6]

والأخيار الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله تعالى على الوجه الذي يرضاه سبحانه، يحميهم الله جل شأنه من تبعات الخوف والحزن، فيقول جل ذكره: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

1. البقرة: 38.
2. البقرة: 62.
3. الأنعام: 48.
4. البقرة: 112.
5. فصلت: 30.
6. الأحقاف: 13.

فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[1]، ويقول تعالى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.[2]

أما الشهداء، الذين لفظوا أنفاسهم في الحياة الدنيا على درب الشهادة في سبيل الله، فهم إضافة إلى حسن مقامهم عند ربهم، فهم كذلك محميون من الخوف والحزن، والله تعالى يقول: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ*فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.[3]

صرف الخوف والحزن عن أهل الجنة:

الحزن الأعظم يكون يوم القيامة، حين تظهر الأهوال، ويكون الحشر والحساب والجزاء، فإذا ما نجي المرء من ويلات ذلك اليوم وحزنه، فقد فاز، مصداقاً لقوله تعالى عن حال المؤمنين يوم القيامة: {لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}.[4]

ولمزيد من تبكيت أهل النار، فإنهم لما ينظرون إلى المؤمنين الذين كانوا يستضعفونهم في الدنيا، ويسخرون منهم، يتساءلون وهم ينظرون إليهم وهم في الجنة، أليس هؤلاء الذين كنا نعتقد أن الله لا يمن عليهم برحمة منه وفضل؟! فها هم اليوم يتنعمون بمنازلهم في الجنة، إضافة إلى أنهم لا ينتابهم حزن أو خوف فيها، فيقول تعالى: {أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ}.[5]

1. البقرة: 262.
2. البقرة: 274.
3. آل عمران: 169 – 170.
4. الأنبياء: 103.
5. الأعراف: 49.

والسؤال الوارد في صدر هذه الآية الكريمة موجه من أصحاب الأعراف خطاباً لأهل النار، والإشارة بهؤلاء إلى أهل الجنة، وذلك أن الكفار كانوا في الدنيا يقسمون أن الله لا يرحم المؤمنين، ولا يعبأ بهم، فظهر خلاف ما قالوا، وقيل: هو من كلام الملائكة خطاباً لأهل النار، والإشارة بهؤلاء إلى أصحاب الأعراف {ادخلوا الجنة} خطاباً لأهل الجنة إن كان من كلام أصحاب الأعراف تقديره قد قيل لهم ادخلوا الجنة، أو خطاباً لأهل الأعراف، إن كان من كلام الملائكة.[1]

شكر الله تعالى على إذهاب الحزن:

يحمد المؤمنون ربهم يوم القيامة أن نجاهم من الحزن، وعن ذلك يقول الله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ}[2]، وبالنسبة إلى المراد بالحزن هنا، ففيه أقوال عند المفسرين، فقيل: هو عذاب النار، وقيل: أهوال القيامة، وقيل: هموم الدنيا، والصواب العموم في ذلك كله.[3]

نسأل الله تعالى أن يمن علينا بالرحمة والسكينة والطمأنينة، وأن يذهب الخوف، والهم، والحزن في الدنيا والآخرة، وإلى لقاء قادم إن شاء الله تعالى، لمتابعة الحديث عن الاستعاذة من الهم والحزن، في إطار هذه الزاوية الصحفية الخاصة بأحاديث الرسول الأسوة، وسيرته العطرة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1.التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 33 - 34.

2. فاطر: 34.

3.التسهيل لعلوم التنزيل، 3/ 159.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يستعيذ بالله من الهم والحزن ـ الحلقة الثانية

الحلقة السابقة المعنونة بالاستعاذة بالله من الهم والحزن تعرضت لمعنى الحزن والهم، ونعمة إذهاب الخوف والحزن ومسبباتها، وصرف الخوف والحزن عن أهل الجنة، وشكر الله تعالى على إذهاب الحزن، وإن هذه القضايا لها بُعدان رئيسان، أحدهما ديني، والآخر نفسي، وبينهما صلة وثيقة في الأسباب والآثار، وقد قيل لا يخرج إنسان من الدنيا إلا حزيناً، فإن كان مسيئاً، فعلى إساءته، وإن كان محسناً فلتقصيره، فالخوف من المستقبل أمامهم، والحزن على الماضي خلفهم، والله تعالى أعلم[1]، ويتواصل الحديث في هذه الحلقة عن بعض قضايا الحزن، وعلى وجه الخصوص قضية النهي عن الإفراط في الحزن.

النهي الرباني للرسول، صلى الله عليه وسلم، عن الحزن:

يقول ابن تيمية: إن الله تعالى لم يأمر بالحزن ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع، وأمثال ذلك كثير؛ وذلك لأن الحزن لا يجلب منفعة، ولا يدفع مضرة، فلا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به، نعم لا يأثم صاحبه، إذا لم يقترن بحزنه محرم، كالحزن على المصائب، فالله لا يؤاخذ على دمع العين، ولا على حزن القلب، ولكن يؤاخذ على قول اللسان، أو يرحم، فالعين تدمع، والقلب يحزن.[2]

والنهي الرباني عن الحزن ورد في عدد من الآيات القرآنية، كان الخطاب في معظمها موجهاً إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، لكنه غالباً لا يقتصر عليه، فهو له وللمؤمنين الذين معه، والذين يأتون من بعده، ومن تلك الآيات الكريمة، قوله تعالى: {وَلاَ يَحْزُنكَ

1. أضواء البيان، 9/ 92.
2. مجموع الفتاوى، 34/ 16.

الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.[1]

تساءل الرازي عن مبرر النهي عن الحزن على كفر الكافر، ومعصية العاصي، والحزن على ذلك طاعة، فكيف نهى الله عن الطاعة، وأجاب عن ذلك من وجهين؛ الأول: أن المقصود النهي عن الإفراط في الحزن على كفر الناس، حتى كاد يؤدي ذلك إلى إلحاق الضرر بالرسول، صلى الله عليه وسلم، فنهاه الله تعالى عن الإسراف فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: {فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ}[2]، الثاني: أن المعنى لا يحزنوك بخوف أن يضروك، ويعينوا عليك، ألا ترى إلى قوله: {إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئاً} يعني أنهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، ولا يعود وبال ذلك على غيرهم البتة.[3]

ومن الآيات المتضمنة النهي عن الحزن، قوله تعالى: {وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[4]

فالإنسان إنما يحزن من وعيد الغير، وتهديده، ومكره، وكيده، كونه مؤثراً في حاله، فإذا علم من جهة علّام الغيوب أن ذلك لا يؤثر، خرج من أن يكون سبباً لحزنه، فإذا كان الله تعالى هو الذي أرسله إلى الخلق، وهو الذي أمره بدعوتهم إلى هذا الدين، كان لا محالة ناصراً له، ومعيناً، ولما ثبت أن العزة والقهر والغلبة ليست إلا له، فقد حصل الأمن، وزال الخوف[5].

وفي موضع قرآني آخر يقول تعالى: {فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}[6]؛

1. آل عمران: 176.
2. فاطر: 8.
3. التفسير الكبير، 9/ 85.
4. يونس: 65.
5. التفسير الكبير، 17/ 104.
6. يس: 76.

أي فلا يحزنك يا أيها الرسول قول المكذبين الذين يقدحون بك، أو فيما جئت به؛ أي فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم، إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون، فنجازيهم على حسب علمنا بهم.[1]

وفي موضع قرآني آخر، يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ...}.[2]

أي لا تهتم أيها الرسول، ولا تبالِ بمسارعة المنافقين في الكفر؛ وذلك بسبب احتيالهم في استخراج وجوه الكيد والمكر في حق المسلمين، وفي مبالغتهم في موالاة المشركين، فالله ناصرك عليهم، وكافيك شرهم.[3]

وفي آية أخرى يقول تعالى: {لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ}[4]

فالله تعالى لما عرّف رسوله، صلى الله عليه وسلم، عظم نعمه عليه، فيما يتعلق بالدين، وهو أنه آتاه سبعاً من المثاني، والقرآن العظيم، نهاه عن الرغبة في الدنيا، فحظر عليه أن يمد عينيه إليها رغبة فيها.

والحاصل أن قوله: { لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ} نهي له عن الالتفات إلى أموالهم، وقوله: {وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} نهي له عن الالتفات إليهم، وأن يحصل لهم في قلبه قدر ووزن.[5]

وفي موضع قرآني آخر، يقول جلَّ شأنه: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

---

1. تفسير السعدي، 1/ 699.
2. المائدة: 41.
3. التفسير الكبير، 11/ 183.
4. الحجر: 88.
5. التفسير الكبير، 19/ 166 - 167.

وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}[1] ويقول تعالى: {وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ }[2]

ففي هاتين الآيتين ينهى الله تعالى رسوله، صلى الله عليه وسلم، عن أن يتأسف لكفرهم، ولا يضيق صدره بمكرهم.[3]

وفي آية أخرى ينهى الله تعالى رسوله، صلى الله عليه وسلم، عن الحزن، فيقول تعالى: {وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[4]

أي لا تحزن على تكذيبهم، فإن صدقك وكذبهم، يتبين عن قريب عند رجوعهم إلينا.[5]

فهذه طائفة من الآيات القرآنية التي جاء النهي فيها عن الحزن في سياق متنوع ومناسبات مختلفة، يجمعها الحث على البعد عن الحزن المفرط المفضي إلى الهلاك أو الإحباط، وهما من صور الفشل الذريع أو أسبابه.

نهي المؤمنين عن الحزن:

تنوع الخطاب الرباني بالنهي عن الحزن، فصدر لفئات أو أشخاص معينين، فوجه لجماعة المؤمنين، فقال تعالى: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.[6]

فكأن الله تعالى يقول للمؤمنين إذا بحثتم عن أحوال القرون الماضية، علمتم أن أهل الباطل وإن اتفقت لهم الصولة، لكن كان مآل أمرهم إلى الضعف والفتور، وصارت

---

1. النحل: 127.
2. النمل: 70.
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 165.
4. لقمان: 23.
5. التفسير الكبير، 25/ 136.
6. آل عمران: 139.

دولة أهل الحق عالية، وصولة أهل الباطل مندرسة، فلا ينبغي أن تصير صولة الكفار عليكم يوم أحد، سبباً لضعف قلبكم، ولجبنكم، وعجزكم، بل يجب أن يقوى قلبكم، فإن الاستعلاء، سيحصل لكم، والقوة والدولة راجعة إليكم.[1]

وهكذا المسلمون اليوم وفي كل زمان ينبغي أن لا يحزنوا حزن إحباط، بسبب هزيمة، أو جراح عارضة.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، طلب من صديقه أبي بكر الصديق أن لا يحزن، لما كان يرافقه في غار ثور أثناء رحلة هجرتهما من مكة إلى المدينة المنورة، وعن ذلك يقول تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا}.[2]

قوله هنا: { لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا}؛ أي دع الحزن، فإن الله بنصره وعونه وتأييده معنا، ومن كان الله معه، فلن يغلب، ومن لا يغلب، فيحق له أن لا يحزن.[3]

هذه بعض التوجيهات القرآنية المتضمنة النهي عن الحزن المفرط، الذي غالباً ما يؤدي إلى الإحباط والفشل، واستجلاب الألم دون فائدة، والأصل أن يتسامى المؤمنون عن الجراح التي تصيبهم؛ لأنهم الأعلون بإذن الله تعالى.

وإلى حلقة قادمة أخرى إن شاء الله تعالى، لمتابعة الحديث عن الاستعاذة من الهم والحزن، في إطار هذه الزاوية الصحفية الخاصة بسيرة الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. التفسير الكبير، 9/12.
2. التوبة: 40.
3. فتح القدير، 2/362.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يستعيذ بالله من الهم والحزن ـ الحلقة الثالثة

الحلقتان السابقتان من حديث الاستعاذة بالله من الهم والحزن وقفتا عند ما تيسر من الآيات القرآنية ذات الصلة بالنهي عن الإفراط في الحزن، سواء تلك التي كان الخطاب فيها موجهاً إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، أم إلى المؤمنين، وهناك آيات قرآنية أخرى تناولت في مضامينها وعباراتها نهياً عن الحزن، وُجه لأشخاص لامعين دينياً وتاريخياً، ومن أولئك:

مريم عليها السلام

صدر النهي عن الحزن من الملك جبريل، أو من عيسى، عليهما السلام، على خلاف بين المفسرين إلى مريم، عليها السلام، فقال تعالى: {فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلا تَحْزَنِي...}.[1]

فلشدة ما لقيت مريم، عليها السلام، بحملها المباغت والفريد بعيسى، عليه السلام، سليت بقوله: {أَلا تَحْزَنِي}: أي لا تهتمي بالوحدة، وعدم الطعام والشراب، ومقالة الناس.[2]

لوط، عليه السلام:

الملائكة المرسلون إلى لوط، عليه السلام، نهوه عن الحزن، فقال تعالى: {وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}[3]؛ أي لا تخف من قومك علينا، ولا تحزن بإهلاكنا إياهم.[4]

1. مريم: 24.
2. تفسير النسفي، 3/ 34.
3. العنكبوت: 33.
4. تفسير السمعاني، 4/ 179.

موسى، عليه السلام:

في سياق الإخبار القرآني عن قصة موسى، عليه السلام، مع قومه، يقول تعالى:{قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}[1]؛ أي لا تحزن على الفاسقين، قال مقاتل: إن موسى لما دعا عليهم، أخبره الله تعالى بأحوال التيه، ثم إن موسى، عليه السلام، أخبر قومه بذلك، فقالوا له: لِمَ دعوت علينا؟ وندم موسى على ما عمل، فأوحى الله تعالى إليه {فلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}، وجائز أن يكون ذلك خطاباً لمحمد، صلى الله عليه وسلم، أي لا تحزن على قوم لم يزل شأنهم المعاصي، ومخالفة الرسل، والله أعلم.[2]

ونهي موسى، عليه السلام، عن الحزن بهذا اللفظ، وجه إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فنهاه الله تعالى عن الحزن على القوم الكافرين، بقوله: {فلا تَأْسَ} كما جاء في قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}.[3]

أم موسى، عليهما السلام:

تلقت أم موسى إلهاماً ربانياً، من بين مضامينه ثنيها عن الحزن، فقال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}[4]

---

1. المائدة: 26.
2. التفسير الكبير، 11 /159.
3. المائدة: 68.
4. القصص: 7.

فقد ألقي في خلدها وروعها أن لا تخافي، ولا تحزني، فإنه إن ذهب، فإن الله سيرده إليك.[1]

فهذه نماذج من النواهي عن الحزن، صدرت إلى أولياء الله وأصفيائه؛ ليكونوا قدوة لأتباعهم المؤمنين من بعدهم، في الصبر والمصابرة والأمل، بعيداً عن محبطات الأحزان، وضعف العزائم، ولأهمية النجاة من الحزن المحبط، فإن النص القرآني يدور الحديث فيه أحياناً عن صرف الحزن عن أشخاص أو فئات، ومن أمثلة ذلك:

صرف الحزن عن أم موسى: عليهما السلام:

تكرر ذكر هدف صرف الحزن عن أم موسى في سورتي طه والقصص، فقال تعالى: {... فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ...}[2]، وقال جل شأنه: {فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[3]، فقد يسر الله تعالى لأم موسى، عليهما السلام، سبل التخلص من مسببات الحزن، فرجع إليها طفلها الذي ألقته في البحر بإلهام من الله تعالى، بعد أن التقطه رجال فرعون، وكان في رجوعه إلى حضنها ودفئها طمأنة لها، وقرار لعينها، وصرف للحزن عنها، فكان نزع الحزن من قلبها هدفاً لقدر الله تعالى المتمثل في رد ابنها الرضيع إليها، سبحانك ربي ما أعظم شأنك!

صرف الحزن عن نساء النبي، صلى الله عليه وسلم:

القرآن الكريم لم يقصر الإشارة بصرف الحزن عن أم موسى فحسب، بل تعرض لذكر هذه النعمة، في سياق الحديث عن جانب من علاقة الرسول، صلى الله عليه وسلم،

1. البداية والنهاية، 1 /239.
2. طه: 40.
3. القصص: 13.

مع نسائه، فقال تعالى: {تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ...}.[1]

معناه أنهن إذا علمن أن هذا مما أنزل الله تعالى، كان أطيب لأنفسهن، وأقل لحزنهن، وأقرب إلى رضاهن.[2]

صرف الحزن عن المؤمنين بالقدر:

من أهداف الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره، النجاة من الحزن على ما فات من إدبار الدنيا أو الفرح من إقبالها، وفي هذا يقول تعالى: {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}[3]، فما قدره الله نافذ، وما لم يقدر لن يكون، فلا داعي للحزن على ما فات وضاع.

حزن يعقوب، عليه السلام:

ورد في القرآن الكريم على لسان يعقوب، عليه السلام، قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ}[4]

قوله: {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ} يشير إلى علمه بذلك الواقع، وقيل: إنه والخوف كلاهما في المستقبل، لكن الخوف استشعارهم لفقد مطلوب، والحزن استشعار غم لفوت محبوب، وجعل هنا نفي الخوف؛ كناية عن نفي العقاب، ونفي الحزن كناية عن نفي الثواب، وهي أبلغ من الصريح وآكد؛ لأنها كدعوى الشيء ببينة، والمعنى لا خوف عليه، مفضلاً عن أن يحل بهم مكروه، ولا هم يفوت عنهم محبوب، فيحزنوا عليه،

1. الأحزاب: 51.
2. تفسير المعاني، 4/298.
3. الحديد: 23.
4. يوسف: 13.

فالمنفي عن الأولياء خوف حلول المكروه والحزن في الآخرة، وفيه إشارة إلى أنه يدخلهم الجنة، التي هي دار السرور والأمن، لا خوف فيها، ولا حزن، وحينئذ يظهر التقابل بين الصنفين في الآيتين.[1]

وعن حزن يعقوب، عليه السلام، يقول تعالى أيضاً: {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}[2]؛ أي ابيضت عيناه من البكاء الذي هو ثمرة الحزن، وروي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أن يعقوب حَزِنَ حُزْنَ سبعين ثكلى، وأعطي أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله قط، {فَهُوَ كَظِيمٌ} فعيل بمعنى فاعل؛ أي كاظم لحزنه، لا يظهره لأحد، ولا يشكو إلا لله، وقيل: بمعنى مفعول، كقوله: إذ نادى وهو مكظوم؛ أي مملوء القلب بالحزن، أو بالغيظ على أولاده، وقيل: الكظيم الشديد الحزن.[3]

وعلى لسانه يقول تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[4]، رد يعقوب على بنيه في تفنيدهم له، بقوله: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ}؛ أي إنما أشكو إلى الله، لا إليكم، ولا إلى غيركم، والبث أشد الحزن.[5]

فهذه وقفة متواضعة مع بعض النصوص الشرعية التي تعرضت لذكر الحزن والنهي عنه، وصرفه عن أولياء الله وأصفيائه، وإلى لقاء قادم إن شاء الله تعالى، لمتابعة الحديث عن الاستعاذة من الهم والحزن، في إطار هذه الزاوية الصحفية الخاصة بسيرة الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. روح المعاني، 1 /239.
2. يوسف: 84.
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 2 /126.
4. يوسف: 86..
5. التسهيل لعلوم التنزيل، 2 /126.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يستعيذ بالله من الهم والحزن ـ الحلقة الأخيرة

متابعة لما ورد في الحلقات الثلاث السابقة حول الاستعاذة بالله من الهم والحزن، تختم هذه الحلقة هذا الموضوع من خلال الوقوف عند المزيد من أنواع الحزن، في ضوء حديث القرآن والسنة عنه، فهناك حزنان متباينان في الدوافع والآثار والجزاء، وهما حزن الكافرين، وحزن المؤمنين، الذين يعتريهم الحزن أحياناً حسب طبيعتهم وفطرتهم حين يتعرضون لبعض المصائب، واستدل على مشروعية هذا النوع من الحزن بمواقف للرسول، صلى الله عليه وسلم، وأقوال وردت في أحاديث صحيحة، وفي الختام تمَّ التعريج على التحذير من دور الشيطان في إثارة الحزن المحبط.

حزن الكافرين:

حال الكافرين يختلف عن حال المؤمنين في السلوك والعاقبة، ومن ذلك حالهم تجاه الخوف والحزن، فالمؤمن مطمئن معافى من الحزن، بينما الكافر يعاقب به، ومن ذلك أن فرعون استثنى موسى الطفل من القتل، بهدف أن يكون قرة عين له ولامرأته، بناء على طلبها، كما جاء في القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}[1]

غير أن الله تعالى عاقب فرعون بأن جعل موسى، عليه السلام، مبعثاً لحزنه، فقال تعالى: { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}[2]،

1. القصص: 9.
2. القصص: 8.

واللام في قوله: {لِيَكُونَ...} هي لام العاقبة، لا أن المقصد بالالتقاط كان لأن يكون عدواً.[1]

وفي المجمل؛ فإن حزن الكافرين سيكون بالغاً يوم القيامة، حيث يتحسرون على ما فات، ويحزنون على ما يجدون من سوء المصير، والله تعالى يقول: {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}.[2]

حزن المؤمنين:

حزن المؤمنين يختلف عن حزن غيرهم، فهم محميون من الحزن في الآخرة، التي لا يفزعون فيها، ولا يضطربون، إلا أنهم في الدنيا ينتابهم الحزن حين يشعرون بتقصير من قبلهم، أو عجزهم عن القيام بواجب أمرهم الله تعالى به، وفي هذا يقول تعالى: {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ}.[3]

والمؤمنون قد يحزنون أيضاً عندما يجدون إعراضاً من الناس أو بعضهم عن الاستجابة لدعوة الخير التي جاءوا ليحملوها إليهم، وفي هذا يقول سبحانه: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ}.[4]

وحتى لا يؤذيهم هذا النوع من الحزن، فإن الله تعالى بين لهم أن الهداية ليس أمرها مملوكاً لبشر، وإنما هي من عند الله العزيز القهار، لذلك لا داعي للتحسر حزناً على عناد الجاحدين وإنكارهم، فقال تعالى: {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن

1. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 4/277.
2. مريم: 39.
3. التوبة: 92.
4. الأنعام: 33.

يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}.[1]

القلب يحزن والله لا يعذب بدمع العين:

الإنسان يتعرض أحياناً لظروف أو مصائب تتسبب في شعوره بالحزن والألم، ومن الحوادث التي وردت بها أحاديث صحيحة بهذا الصدد، ما يأتي: (اشْتَكَى سَعْدُ بن عُبَادَةَ، شَكْوَى له، فَأَتَاهُ النبي، صلى الله عليه وسلم، يَعُودُهُ مع عبد الرحمن بن عَوْفٍ، وَسَعْدِ ابن أبي وَقَّاصٍ، وَعَبْدِ الله بن مَسْعُودٍ، رضي الله عَنْهُمْ، فلما دخل عليه، فَوَجَدَهُ في غَاشِيَةِ أَهْلِهِ، فقال: قد قَضَى، قالوا: لَا يا رَسُولَ الله، فَبَكَى النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ النبي، صلى الله عليه وسلم، بَكَوْا فقال: ألا تَسْمَعُونَ إِنَّ الله لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، ولا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بهذا، وَأَشَارَ إلى لِسَانِهِ، أو يَرْحَمُ، وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عليه، وكان عُمَرُ، رضي الله عنه، يَضْرِبُ فيه بِالْعَصَا، ويرمي بِالْحِجَارَةِ، ويحثي بِالتُّرَابِ)[2]، فالنبي، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تدمع عيونهم وتحزن قلوبهم، لكنهم لا يقولون إلا الحق.

ومن حالات حزن المؤمنين التي ورد ذكرها في صحاح السنة، أن أَنَسَ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه: يقول: (اشْتَكَى ابن لأَبِي طَلْحَةَ، قال: فَمَاتَ وأبو طَلْحَةَ خَارِجٌ، فلما رَأَتْ امْرَأَتُهُ أَنَّهُ قد مَاتَ، هَيَّأَتْ شيئاً، وَنَحَّتْهُ في جَانِبِ الْبَيْتِ، فلما جاء أبو طَلْحَةَ، قال: كَيْفَ الْغُلَامُ؟ قالت: قد هَدَأَتْ نَفْسُهُ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قد اسْتَرَاحَ،وَظَنَّ أبو طَلْحَةَ أنها صَادِقَةٌ، قال: فَبَاتَ فلما أَصْبَحَ اغْتَسَلَ، فلما أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، أَعْلَمَتْهُ أَنَّهُ قد مَاتَ، فَصَلَّى مع النبي، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ أَخْبَرَ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِمَا كان مِنْهُمَا، فقال رسول الله،

1. فاطر: 8.
2. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض.

صلى الله عليه وسلم: لَعَلَّ الله أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا، قال سُفْيَانُ: فقال رَجُلٌ من الْأَنْصَارِ: فَرَأَيْتُ لَهُمَا تِسْعَةَ أَوْلَادٍ، كلهم قد قَرَأَ الْقُرْآنَ).[1]

وعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (دَخَلْنَا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أبي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وكان ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ، عليه السَّلام، فَأَخَذَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إبراهيم فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عليه بَعْدَ ذلك، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تَذْرِفَانِ، فقال له عبد الرحمن بن عَوْفٍ، رضي الله عنه: وَأَنْتَ يا رَسُولَ الله؟ فقال: يا ابن عَوْفٍ: إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فقال صلى الله عليه وسلم: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، ولا نَقُولُ إلا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ).[2]

وجاء في صحيح البخاري، بَاب من جَلَسَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، يُعْرَفُ فيه الْحُزْنُ، وفيه عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (لَمَّا جاء النبي، صلى الله عليه وسلم، قَتْلُ ابن حَارِثَةَ، وَجَعْفَرٍ، وابن رَوَاحَةَ، جَلَسَ يُعْرَفُ فيه الْحُزْنُ، وأنا أَنْظُرُ من صَائِرِ الْبَابِ، شَقِّ الْبَابِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فقال: إِنَّ نِسَاءَ جَعْفَرٍ، وَذَكَرَ بُكَاءَهُنَّ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْهَاهُنَّ...).[3]

وعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (قَنَتَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شَهْرًا حين قُتِلَ الْقُرَّاءُ، فما رأيت رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، حَزِنَ حُزْنًا قَطُّ أَشَدَّ منه).[4]

فهذه بعض الشواهد للحزن المشروع، الذي يعبر عن مشاعر يصعب على صاحبها إخفاؤها في بعض الأحيان العصيبة، فيمكن لعين الإنسان أن تدمع لموت حبيب، ويمكن

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من لم يظهر حزنه عند المصيبة.
2. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: إنا بك لمحزنون.
3. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من جلس عند المصيبة يعرف فيه الحزن.
4. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من جلس عند المصيبة يعرف فيه الحزن.

لقلبه أن يحزن لنقص يعتريه في الأموال والأنفس والثمرات، غير أن المؤمن لا يتعدى هذه الحدود في الحزن، فلا يقنط ولا يجزع ولا يحبط، وإنما يسترجع قائلاً: {إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[1]، ليكون مع المهتدين الذين أنعم الله عليهم بالصلوات والرحمة.

إثارة الشيطان للحزن:

يهدف الشيطان إلى إيذاء المؤمنين بكل ما أوتي من وسائل وأساليب، ومن ذلك استهدافهم بما يحزنهم، فيقول تعالى: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ الله وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.[2]

فالشيطان يحمل المتناجين بالإثم والعدوان على فعل النجوى، التي تسبب الحزن للمؤمنين؛ وذلك لأن المؤمنين إذا رأوهم متناجين قالوا ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا، الذين خرجوا إلى الغزوات أنهم قتلوا وهزموا، ويقع ذلك في قلوبهم، ويحزنون له.[3]

أعاننا الله تعالى على الانصياع لشرعه في حزننا وفرحنا وأمرنا كله، رغم أنف الشيطان وحزبه، متأسين بإمام المتقين، رسولنا محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. البقرة: 156
2. المجادلة: 10.
3. التفسير الكبير، 29 /233.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الأولى

يخاطب الله الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيقول سبحانه: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً}.[1]

فالله يأمر رسوله، صلى الله عليه وسلم، بالتوكل عليه سبحانه، مؤكداً بأنه هو الكافي الذي لا معطي لما منع، ولا مانع لما يعطي، وكان صلى الله عليه وسلم، يقول في دُبُرِ كل صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: (لَا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ له، له الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وهو على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللهم لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ).[2]

التفريق بين التوكل والتواكل:

التوكل هو تفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى، وقبل الخوض في بعض قضايا التوكل ومسائله، ينبغي التأكيد على أمرين، أولهما: أن من مقتضيات الإيمان أن يعتقد المؤمن جازماً بأن مجريات الأمور جميعها تتم بإرادة الله الذي لا يعجزه أمر بالغ ما بلغ في العظمة والقوة، والمرء حين يلجأ إلى الله، ويفوض الأمر إليه، فإنه حقيقة يستند إلى القدرة الأعظم، فعبارة (الله أكبر) يكررها المسلم مرات عديدة في كل صلاة يؤديها في نهاره وليله، ويسمعها في صدر الآذان المتكرر يومياً لكل صلاة، وهي ذات دلالة عقائدية عظيمة، تتجاوز رحاب الصياغة اللفظية المتناسقة، لتخدم غرض التأكيد المتكرر المذكر بحقيقة أن الله أكبر من كل كبير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، مصداقاً لقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ

1. الأحزاب: 3.
2. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء بعد الصلاة.

مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً} [1]

أما الأمر الثاني الذي ينبغي التأكيد عليه في صدر الحديث عن هذه القضية العقائدية، فيتعلق بالتفريق بين التوكل المطلوب بمعناه المشروع، الذي يراد منه الاعتماد على الله تعالى مع الأخذ بالأسباب، وبين التواكل المرفوض، والذي يعني الاستسلام للكسل والخمول، وترك الأخذ بالأسباب، فعن عمرو بن أمية الضمري، رضي الله عنه، أنه قال: (يا رسول الله؛ أرسل راحلتي، وأتوكل؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: بل قيدها وتوكل).[2]

ودلت سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، على عنايته بالأخذ بأسباب نجاح جهاده، وتحصيل معاشه، وفي شأنه كله، وهو القائل صلى الله عليه وسلم: (لَوْ تَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمُ الله كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَعُودُ بِطَانًا).[3]

تفرد الله بالنفع والضر والإعطاء والمنع حقيقة استفراد الله تعالى في إعطاء الخير ومنعه، وفي صرف الشر والإصابة به، أكدها القرآن الكريم، فيقول تعالى: {مَا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[4]

جاء في أضواء البيان، أن الله تعالى ذكر في هذه الآية الكريمة أن ما يفتحه للناس من رحمته، وإنعامه عليهم بأنواع النعم جميعاً، لا يقدر أحد كائنًا ما كان أن يمسكه عنهم، وما يمسكه عنهم من رحمته، وإنعامه لا يقدر أحد كائنًا من كان أن يرسله إليهم، وهذا معلوم بالضرورة من الدين.

1. فاطر: 44.
2. المستدرك على الصحيحين، 3 /722.
3. صحيح ابن حبان، 2 /509.
4. فاطر: 2.

والرحمة المذكورة في الآية عامة في كل ما يرحم الله به خلقه من الإنعام الدنيوي والأخروي، كفتحه لهم رحمة المطر، كما قال تعالى: {فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[1]

ومن أساليب القرآن الكريم في ترسيخ الإيمان بقدرة الله تعالى دون سواه على تصريف الأمور، استخدامه الاستدلال بالقدرة على إنزال الغيث، وتهيئة الأجواء لذلك بإرسال الرياح، فهو سبحانه القادر على ذلك دون سواه، فيقول تعالى: {أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.[2]

وطرح هذا الاستدلال بصيغة التساؤل يخدم جانب التشويق، الذي يحفّز التفكير للتدبر في حقيقة قدرة الله على الإعطاء والمنع، وعجز من سواه عن القيام بذلك إلا بإرادته سبحانه، ولما زعم النمرود أنه قادر على الإحياء والإماتة، فاجأه إبراهيم، عليه السلام، بطلب غير متوقع من قِبله، فتحداه أن يفعل أمراً على غير الحال الذي يتكرر حدوثه فيه يومياً، فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ واللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[3]، وما أجمل التعقيب على هذا السجال الذي انتهى لصالح إبراهيم المؤمن، حيث وصف الله تعالى هزيمة النمرود بقوله: {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ} ويقف صاحب التسهيل لعلوم التنزيل عند هذه الآية الكريمة، فيذكر أن معنى (بُهِتَ): أي انقطع وقامت عليه الحجة، ويقول: فإن

1. الروم: 50، أضواء البيان، 6/277 - 278.
2. النمل: 63.
3. البقرة: 258.

قيل: لم انتقل إبراهيم عن دليله الأول إلى هذا الدليل الثاني، والانتقال علامة الانقطاع؟ فالجواب أنه لم ينقطع، ولكنه لما ذكر الدليل الأول، وهو الإحياء والإماتة، كان له حقيقة، وهو فعل الله، ومجازاً، وهو فعل غيره، فتعلق نمرود بالمجاز غلطاً منه أو مغالطة، فحينئذ انتقل إبراهيم إلى الدليل الثاني؛ لأنه لا مجاز له، ولا يمكن للكافر العدول عنه أصلاً.[1]

وعلى هذا النهج نفسه، كان الرد المفحم من الله تعالى على المتوجهين للشرك، وعبادة آلهة غيره سبحانه، فضرب لهم مثلاً تعلق بحشرة بسيطة، تضايق كبار القوم وسادتهم وصغارهم، وتنغص عليهم أوقاتهم حين تتسلط عليهم، ويحاولون التخلص منها بتقنيات عديدة، هذه الحشرة هي الذبابة البسيطة، من الذي خلقها؟ وهل يستطيع أعظم الخلق صنعها؟ أو استرجاع ما تسلبه من طعامنا أو هدوئنا؟ فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}.[2]

نعم ضعف الطالب لصنع الذبابة، أو لاسترجاع غنائمها، ضعفاً يوازيه ضعف المطلوب، وهي الذبابة الضعيفة في حجمها، وفي التفسير أن المراد بالطالب الأصنام، وبالمطلوب الذباب؛ لأن الأصنام تطلب من الذباب ما سلبته منها، وقيل: الطالب الكفار، والمطلوب الأصنام؛ لأن الكفار يطلبون الخير منهم.[3]

وبغض النظر عن اختلاف المفسرين في المقصود بالطالب والمطلوب، فإن الذبابة تبقى آية دالة على عظمة خلق الله وتفرده سبحانه بالقدرة على الخلق والنفع والضر، قدرة تفوق طاقات الخلق، ولو توافقوا واجتمعوا على فعل من أفعاله الخاصة به سبحانه،

1. التسهيل لعلوم التنزيل، 1/ 90.
2. الحج: 73.
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 3/ 47.

فإنهم سيعجزون عن مضاهاة القدرة الربانية، ولن يوفقوا بعمل، أو إنجاز، خارج نطاق الإرادة الربانية، الذي له الأمر كله، من قبل ومن بعد، ولكن أكثر الناس يجهلون.

فهذه معطيات عقائدية عني القرآن الكريم بذكرها، والتأكيد على معانيها في ثنايا توجيهاته الكريمة، بهدف ترسيخ الإيمان بقدرة الله تعالى على فعل ما يشاء، وإعطاء ما يشاء، فهو سبحانه الجدير وحده بأن يتوكل الخلق عليه، وإذا ما تحقق الإيمان بهذه العقيدة الراسخة شوهدت بصماته في مواقف المؤمنين وسلوكهم وتضحياتهم، وما ذكر آنفاً ليس سوى غيض من فيض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، مما تيسر ذكره والوقوف عنده، آملين متابعة الحديث عن هذه المسألة العقائدية في الحلقة القادمة، إن شاء الله، وصلى الله وسلم على الرسول محمد، وعلى آله وأزواجه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الثانية

يخاطب الله عز وجل رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، فيقول جل شأنه: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[1]

متابعة لما تناولته الحلقة السابقة من وقوف عند أمر الله تعالى نبيه الكريم محمداً، صلى الله عليه وسلم، بأن يتخذه وكيلاً، فالآية المذكورة أعلاه شاهد قرآني واضح يركز على لب هذا المحور، فالله تعالى يعزز إيمان رسوله، صلى الله عليه وسلم، بهذا الجانب العقائدي، من خلال التأكيد على أن الضر الذي يريد الله وقوعه لن يستطيع الخلق ولو اجتمعوا أن يدفعوه، والخير الذي يريد سبحانه وتعالى التفضل به على رسوله، صلى الله عليه وسلم، أو على غيره من خلق الله تعالى، لن يملك أحد منعه، فلا راد لفضله سبحانه، وقد جاءت هذه الآية الكريمة في أواخر سورة يونس، لاحقة مباشرة بآية تنهى عن التوجه إلى غير الله تعالى بالدعاء؛ لأنه ليس إلا الله تعالى يملك النفع والضر، إذ يقول الله تعالى فيها: {وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ}[2].

وأنكر الله على المشركين تعبدهم لآلهة دون الله، مالك النفع والضر وحده، فقال تعالى: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ}[3]، فلا أحد يملك حقيقة النفع والضر إلا الله تعالى، وهو القائل سبحانه وتعالى عن تأثير السحرة: {وَاتَّبَعُواْ مَا

1. يونس: 107.
2. يونس: 106.
3. الأنبياء: 66.

تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}[1]، فهذه الآية الكريمة لا تدع مجالاً للشك في حقيقة ملك النفع والضر، فهو لله وحده، والمؤمن لا يخدعه ظهور مباشرة فعل الضر أو النفع من قبل الخلق، فلو لم يرد الله سبحانه نجاح أفعالهم لباءت بالفشل، وهو القائل سبحانه وتعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله إِنَّ الله كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}.[2]

قِصَّة أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ وَالسَّاحِرِ وَالرَّاهِبِ وَالْغُلَامِ:

من خير الشواهد الواقعية على صدق إثبات فعل النفع والضر لله وحده، قِصَّة أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ وَالسَّاحِرِ وَالرَّاهِبِ وَالْغُلَامِ، التي أوردها الإمام مسلم في صحيحه، والتي يؤمل أن يفيد تدبرها بروية وإمعان في تعزيز الإيمان بهذه الحقيقة العقائدية، فعن صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (كان مَلِكٌ فِيمَنْ كان قَبْلَكُمْ، وكان له سَاحِرٌ، فلما كَبِرَ، قال لِلْمَلِكِ: إني قد كَبِرْتُ، فأبعث إلي غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إليه غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ في طَرِيقِهِ إذا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إليه، وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إذا أتى السَّاحِرَ، مَرَّ بِالرَّاهِبِ، وَقَعَدَ إليه، فإذا أتى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فشكى ذلك إلى الرَّاهِبِ، فقال: إذا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وإذا خَشِيتَ أَهْلَكَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هو كَذَلِكَ، إِذْ أتى على دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قد حَبَسَتْ الناس، فقال: الْيَوْمَ أَعْلَمُ الساحر

1.البقرة: 102.

2.الإنسان: 30.

أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ، فَأَخَذَ حَجَرًا، فقال: اللهم إن كان أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ من أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذه الدَّابَّةَ، حتى يمضي الناس، فَرَمَاهَا، فَقَتَلَهَا، وَمَضَى الناس، فَأَتَى الرَّاهِبَ، فَأَخْبَرَهُ، فقال له الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أنت الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قد بَلَغَ من أَمْرِكَ ما أَرَى، وإنك سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عَلَيَّ، وكان الْغُلَامُ يُبْرِئُ الأكمه وَالْأَبْرَصَ، ويداوي الناس من سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كان قد عمي، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فقال: ما ها هنا لك أَجْمَعُ ان أنت شفيتني، فقال: إني لَا أشفي أَحَدًا، إنما يشفي الله، فَإِنْ أنت آمَنْتَ بِاللهِ؛ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ، فَشَفَاهُ الله، فَأَتَى الْمَلِكَ، فَجَلَسَ إليه كما كان يَجْلِسُ، فقال له الْمَلِكُ: من رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قال: رَبِّي، قال: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي، قال: رَبِّي وَرَبُّكَ الله، فَأَخَذَهُ، فلم يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتى دَلَّ على الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فقال له الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قد بَلَغَ من سِحْرِكَ ما تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فقال: إني لَا أشفي أَحَدًا، إنما يشفي الله، فَأَخَذَهُ، فلم يَزَلْ يُعَذِّبُهُ، حتى دَلَّ على الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حتى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ، فَقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حتى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ من أَصْحَابِهِ، فقال: اذْهَبُوا بِهِ إلى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فإذا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عن دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فقال: اللهم أكفنيهم بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمْ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يمشي إلى الْمَلِكِ، فقال له الْمَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قال: كَفَانِيهِمُ الله، فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ من أَصْحَابِهِ، فقال: اذْهَبُوا بِهِ، فَاحْمِلُوهُ في قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عن دِينِهِ، وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فقال: اللهم أكفنيهم بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمْ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يمشي إلى الْمَلِكِ،

فقال له الْمَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ، قال: كَفَانِيهِمُ الله، فقال لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حتى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ بِهِ، قال: وما هو؟ قال: تَجْمَعُ الناس في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي على جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا من كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ في كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إذا فَعَلْتَ ذلك قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ الناس في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ على جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا من كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ في كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قال: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ في صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ في صُدْغِهِ في مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ، فقال الناس: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فأتى الْمَلِكُ، فَقِيلَ له: أَرَأَيْتَ ما كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قد والله نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قد آمَنَ الناس، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ في أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وقال: من لم يَرْجِعْ عن دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فيها، أو قِيلَ له: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حتى جَاءَتْ امْرَأَةٌ، وَمَعَهَا صَبِيٌّ لها، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فيها، فقال لها الْغُلَامُ: يا أُمَّهْ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ على الْحَقِّ).(*)

نعم؛ هذه القصة تحمل في طياتها دلالات جلية على عجز الخلق عن القيام بفعل النفع أو الضر، إلا إذا شاء الله تعالى حصول ذلك على أيديهم.

فهذه معطيات عقائدية أخرى عني القرآن الكريم بذكرها، والتأكيد على معانيها في ثنايا توجيهاته الكريمة، بهدف ترسيخ الإيمان بقدرة الله تعالى على فعل ما يشاء، وإعطاء ما يشاء، ومنع ما يشاء، وإذا ما تحقق الإيمان بهذه العقيدة الراسخة شوهدت بصماته في مواقف المؤمنين وسلوكاتهم وتضحياتهم، وما ذكر أنفاً ليس سوى غيض من فيض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مما تيسر ذكره والوقوف عنده، آملين متابعة الحديث عن هذه المسألة العقائدية في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى، وصلى الله وسلم على الرسول محمد، وعلى آله، وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الثالثة

ينهى الله عز وجل رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، عن الانسياق في ركاب الكافرين والمنافقين، ويأمره في المقابل بالتوكل على ربه الكافي، وهو القائل سبحانه وتعالى: {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى الله وَكَفَى بِالله وَكِيلاً}[1]

متابعة لما تناولته الحلقتان السابقتان من وقوف عند أمر الله تعالى نبيه الكريم محمداً، صلى الله عليه وسلم، بأن يتخذ ربه وكيلاً، حيث إنه لن يجد من يمنع عنه ضراً، ولا يحجب عنه خيراً بخلاف إرادة الله تعالى، والآية المذكورة أعلاه تؤكد هذه الحقيقة العقائدية، بالنهي عن مداراة الكافرين والمنافقين في أمر الدعوة، وكنى عن ذلك بالنهي عن طاعتهم، مبالغة في الزجر والتنفير عنها، وقوله تعالى: {وَدَعْ أَذَاهُمْ}؛ أي لا تبال بأذيتهم لك بسبب تمسكك بحمل الدعوة، وإصرارك على تبليغها، {وَتَوَكَّلْ عَلَى الله} في كل ما تأتي وما تذر، فإنه تعالى يكفيكهم {وَكَفَى بِالله وَكِيلاً}، فيدفع عنك شرهم وأذاهم، فهو الكافي سبحانه في كل الأحوال والظروف.[2]

الكفاية الربانية:

تعقيباً على النهي الرباني للنبي، صلى الله عليه وسلم، عن طاعة الكافرين والمنافقين، إلى جانب أمره سبحانه بالتوكل عليه، أكد عز وجل أنه الكافي، يمنع عن رسوله، صلى الله عليه وسلم، أذى المنافقين والكافرين بما شاء، من هنا جاءت هذه الطمأنة الربانية بـقوله تعالى: {وكفى بالله وكيلاً} مترافقة في الآية الكريمة المذكورة أعلاه مع

1. الأحزاب: 48.
2. تفسير أبي السعود، 7/ 108

نهي وأمرين؛ نهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، وأمر بترك أذاهم، وأمر بالتوكل عليه سبحانه، ليتضافر بالتالي الأمران والنهي والتعقيب عليهما في خدمة قضية عقائدية بامتياز، عمادها الإيمان بأن الله يدفع الضر، ويأتي بالنفع دون سواه، وما يجري على أيدي الخلق من ظاهر فعل الأشياء، إنما يرجع في أصله وحقيقته إلى إذن الله تعالى به، ولو شاء لصرفه، أو لقلب النفع ضراً أو العكس، كما ظهر من قصة أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ وَالسَّاحِرِ وَالرَّاهِبِ وَالْغُلَامِ، التي تم الاستشهاد بنصها الكامل في الحلقة السابقة.

وورد التأكيد على الكفاية بالتوكل على الله في آيات قرآنية عديدة، منها قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}[1]، مما يعني أن كل شيء تحت إرادته سبحانه، والسؤال هنا تقريري وليس استفهامياً، ويذكر الرازي أن الله تعالى ذكر الاستفهام هنا وأراد تقرير ذلك في النفوس، والأمر كذلك؛ لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات، قادر على كل الممكنات، غني عن كل الحاجات، فهو تعالى عالم حاجات العباد، وقادر على دفعها، وإبدالها بالخيرات والراحات، وهو ليس بخيلاً ولا محتاجاً[2]، فهو سبحانه قادر على أن يوفر الحماية لعبده، مهما تعاظم المكر والكيد ضده.

ومن التأكيدات القرآنية الأخرى على الكفاية الربانية لرسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، قوله تعالى: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ}[3]، فالله تعالى كفى نبيه، صلى الله عليه وسلم، الذين كانوا يستهزئون به، وهم قوم من قريش، عد منهم المفسرون، الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس السهمي، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، فكفاه الله تعالى إياهم بإهلاكهم.[4]

1. الزمر: 36.
2. التفسير الكبير، 26/ 244.
3. الحجر: 95.
4. أضواء البيان، 2/ 321.

ولم تقتصر الكفاية الربانية لرسوله، صلى الله عليه وسلم، على المستهزئين، بل حفل القرآن الكريم بذكر كفايته غيرهم كذلك، كقوله تعالى في أهل الكتاب: {فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[1]

يذكر الزمخشري في الكشاف، أن قوله تعالى {فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله} ضمان من الله لإظهار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عليهم، ومعنى السين أن ذلك كائن لا محالة، وإن تأخر إلى حين.[2] وهذا ما كان واقعاً وحقيقة، حين شهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قبل وفاته دحر أعدائه وخصومه بصورة أو بأخرى.

كفاية صاحب الملكوت:

من الآيات القرآنية التي أمرت الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالتوكل على الله، قوله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً}.[3]

فهذه الآية الكريمة قدمت للأمر باتخاذ الله وكيلاً بياناً يفيد، أو يذكر، بأن الله رب المشرق والمغرب، يقول صاحب التبيان في أقسام القرآن: بأن في ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب، تنبيهاً على ربوبيته السماوات وما حوته، من الشمس والقمر والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه.[4] وفي القرآن الكريم تأكيد لهذا المعنى، حيث يقول تعالى: {وَلله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بالله وَكِيلاً}.[5]

فالله الذي له الملكوت جميعاً قادر على تحقيق الكفاية لمن يشاء من خلقه، ولن يعجزه في

1. البقرة:137.
2. الكشاف، 1 /222.
3. المزمل:9.
4. التبيان في أقسام القرآن، 1 /122.
5. النساء: 132.

ذلك الخلق جميعاً ولو اجتمعوا لذلك، من هنا نبه الله تعالى إلى مخرجات التأمل بمَلَكُوت السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، متمثلة بتأكيد اليقين بالله رب العالمين، فيقول تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ }[1]، ويقول سبحانه: {قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}.[2]

وفي استخدام القرآن الكريم لفظ {كفى} في قوله تعالى: {وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً} تحفيز للعقول لتتدبر معززات هذه الكفاية فيما ترى حولها، وفي محيطها، من عظيم خلق الله تعالى، وحسن تدبيره سبحانه، فالكون يسير بإرادته سبحانه وقدرته، بدقة متناهية، تشاهد ملاحظتها يومياً، وشهرياً وموسمياً، فلا يسبق الليل النهار، ولا العكس، والشمس والقمر يمران بمراحل حضور وغياب منتظمة، وماء السماء المنهمر يتساقط من السماء نحو الأرض في مواسم معينة، فينبت به الزرع، ولولاه لتعطلت مسيرة الحياة على البسيطة جميعها، فحق لصاحب هذا الملكوت سبحانه أن يكفي من يريد، ممن يريد، وبما شاء.

كفاية الله عباده:

الكفاية الربانية لا يقتصر الانتفاع بها على النبي، صلى الله عليه وسلم، وإنما يشمل عباده جميعاً، ففي معرض محاججة الشيطان الرجيم، تم إعلامه بحقيقة عجزه عن تولي أمر عباد الله؛ لأن الله تعالى يتولى كفايتهم وحمايتهم منه، فيقول تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً }[3]

وقد جاء هذا الإخبار الرباني تعقيباً على إعلان الشيطان الرجيم عن نواياه الخبيثة تجاه بني آدم، الذي اعتبره الشيطان مكرماً عليه، فأخذته العزة بالإثم، ورفض الانصياع لأمر

1. الأنعام: 75.
2. المؤمنون: 88.
3. الإسراء: 65.

الله تعالى بالسجود لآدم، جاء الإخبار عن ذلك في الآيات الكريمة التي سبقت الآية سالفة الذكر، فيقول تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً* وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً}[1]

فالشيطان أعلن عن خطته العدوانية ضد آدم وذريته، انطلاقاً من غيظه النابع من حسده؛ لأن الله تعالى كرم آدم عليه، فرد الله على تصريحاته العدوانية تلك، بفتح المجال له لمحاولة تنفيذ خطته الماكرة، لكنه سبحانه قرر أن يحمي عباده من آثار طغيان الشيطان وسلطانه، مؤكداً على الكفاية به وكيلاً، يكل إليه الخلق أمورهم، فهو الغني عنهم، وهم الفقراء إليه، دائماً وأبداً.[2]

جعلنا الله تعالى من الموقنين بذلك، ومن الذين يكفيهم الله شر أعدائهم، والخلق أجمعين.

فهذه معطيات عقائدية تهدف إلى ترسيخ الإيمان بقدرة الله تعالى على فعل ما يشاء، وإعطاء ما يشاء، ومنع ما يشاء، وإذا ما تحقق الإيمان بهذه العقيدة الراسخة، شوهدت بصماته في مواقف المؤمنين، وسلوكاتهم، وتضحياتهم، آملين متابعة الحديث عن هذه المسألة العقائدية في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى، وصلى الله وسلم على الرسول محمد وعلى آله وأزواجه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الإسراء: 62 - 64.
2. الكشاف، 1/ 627

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الرابعة

يُطَمْئِن الله عز وجل رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، بكفايته خداع الكافرين ومكرهم، فيقول تعالى: {وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ الله هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ}.(*)

متابعة للحلقات الثلاث السابقة التي وقفت عند أمر الله تعالى نبيه الكريم محمداً، صلى الله عليه وسلم، بأن يتخذ ربه وكيلاً، حيث إنه لن يجد من يمنع عنه ضراً أراد الله أن يصيبه به، ولا يحجب عنه خيراً أراده الله تعالى له، والآية المذكورة أعلاه تؤكد هذه الحقيقة العقائدية، فهي تسند مبدأ الطمأنة التي تفضل الله تعالى بها على نبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم، من منطلق الكفاية الربانية لعباده المخلصين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن خيانة المعاهدين، واغترار الكافرين بأفعالهم، وهم طرف يمكن أن يكون بينهم وبين المسلمين معاهدات سلمية، فالإسلام يهدف إلى هداية العالمين، فإن لاحت في الأفق مبادرات جادة لعقد صفقات سلام مع المحاربين، فإن القرآن الكريم يدعو إلى قبول مثل هذه المبادرات إذا تبين أنها جادة وصادقة، أما حين تكون مبادرات السلام مجرد أغطية خداعية لتمرير مؤامرات ضد المسلمين، فإن الله تعالى تعهد بصد المخادعين من المعاهدين وكسر شوكتهم، ورد كيدهم إلى نحورهم، وعن هذه الحيثيات يقول رب العزة: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ* وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ* وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ

* الأنفال: 62.

مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ الله يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ* وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ الله هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ}.[1]

وعلى هذا الصعيد ذاته، وضمن آيات سورة الأنفال، يرد خطابه تعالى الموجه للرسول، صلى الله عليه وسلم، المتضمن طمأنته بأن الله كافيه، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ الله وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.[2]

يذكر الرازي في تفسيره لهذه الآية الكريمة، إنهم إن أرادوا خداعك كفاك الله أمرهم، والمعنى في هذه الآية عام في كل ما يحتاج إليه في الدين والدنيا. وينقل الرازي عن الفراء: بأنه من كان الله ناصره، امتنع أن يزداد حاله، أو ينقص، بسبب نصرة غير الله، لكن ليس من الواجب الاتكال على ذلك، فإنه تعالى إنما يكفيك بالكفاية، بشرط أن يحصل من المؤمنين بذل النفس والمال في المجاهدة.[3]

الحماية من خداع المنافقين:

كما أكد الله عز وجل تكفله بحماية رسوله، صلى الله عليه وسلم، من خداع الكافرين، فإنه تعالى يؤكد توفير الحماية له من المنافقين، فسورة البقرة تؤكد هذا النوع من الحماية الربانية، ففي سياق حديثها عن المنافقين، يقول تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِالله وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ* يُخَادِعُونَ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ}[4]، فهم يظنون واهمين أن خداعهم سينطلي، من منطلق خلل بين في إيمانهم، وذكر الله خداعهم وكأنه موجه إلى الله سبحانه؛ لأنهم لو أيقنوا أن الله يعلم ما يسرون

1. الأنفال: 58 – 62.
2. الأنفال: 64.
3. التفسير الكبير، 15/ 153.
4. البقرة: 8 – 9.

وما يعلنون، ما سقطوا في هذا المرتع الصعب، الذي ينتهي مآله بوقوع آثار خداعهم على أنفسهم، من حيث لا يشعرون، وذلك بقدرة الله تعالى، علام الغيوب، وهو على كل شيء قدير.

والمنافقون ليسوا فئة منقرضة، بل إن وجودهم يتجدد، فهم يتظاهرون بالولاء أحياناً، ويمارسون مقتضيات العداوة والكيد في أحيان أخرى، حسب مصالحهم الشخصية، فهم مخادعون من الطراز الأول، ومن وصف القرآن الكريم لميلهم حيث الرياح تميل، قوله تعالى: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}.[1]

ومن خداعهم أنهم إن خافوا المؤمنين، أو كانت لهم مصلحة مادية عندهم تظاهروا بحبهم وتملقوا إليهم، وإن كانت الجولة في غير صالح المؤمنين، سارعوا إلى صفوف أعدائهم؛ ليضمنوا لهم مكانة لديهم، والقرآن الكريم يصف حالهم المتذبذب هذا، فيقول تعالى: {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ الله قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَالله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ الله لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً}.[2]

فالمنافقون من أبرز صنوف المخادعين، الذين تكفل الله جل في علاه بحماية نبيه، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين من خداعهم وكيدهم، وفيهم يقول تعالى: {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَالله يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى الله وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً}.[3]

---

1. البقرة: 14.
2. النساء: 141.
3. النساء: 81.

والمنافقون يتآمرون على المؤمنين، على الصعد كافة، فهم الذين يتربصون بهم الدوائر في الحروب والأزمات العسكرية، على شاكلة الأعراب، الذين قال الله تعالى فيهم: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.[1]

والمنافقون يشاركون بفاعلية في شن الحروب الاقتصادية على المسلمين، وممارسة الضغوط المالية، وعن أفعالهم على هذا الصعيد، يقول الله تعالى في السورة المسماة باسمهم: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ}.[2]

وفي قوله تعالى: {وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} رد وإبطال لزعمهم، أن عدم إنفاقهم يؤدي إلى انفضاض الفقراء من حوله صلى الله عليه وسلم، ببيان أن خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصة، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، {وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} ذلك لجهلهم بالله تعالى وبشؤونه، ولذلك يقولون من مقالات الكفر ما يقولون.[3]

رد كيد المتآمرين:

الله تعالى تكفل بإحباط كيد المتآمرين على دينه ورسوله، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين، ووعد بأن يكون مآل كيدهم إلى بوار، فقال تعالى: {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ}[4]، وقال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً}[5]، ومن الآيات الكريمة المتضمنة وعيداً ربانياً بالتصدي لكيد المتآمرين، قوله

1.التوبة: 98.
2.المنافقون: 7.
3. تفسير أبي السعود، 8/ 253.
4.. الفيل: 2.
5.الطارق: 15 - 17.

تعالى: {أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ}[1]، وقوله تعالى: {وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ}[2]، وفي سورة الصافات توعد الله المكيدين بأن يجعلهم الأسفلين، فقال تعالى: {فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ}.[3]

والمطلوب من المؤمنين أن يصبروا ويتقوا ليفوتوا على المتربصين الفرص، وقطف ثمار الكيد ضدهم، مصداقاً لقوله تعالى: {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}.[4]

فهذه معطيات عقائدية أخرى عني القرآن الكريم بذكرها، والتأكيد على معانيها في ثنايا توجيهاته الكريمة، بهدف ترسيخ الإيمان بقدرة الله تعالى على فعل ما يشاء، وإعطاء ما يشاء، ومنع ما يشاء، وإذا ما تحقق الإيمان بهذه العقيدة الراسخة شوهدت بصماته في مواقف المؤمنين وسلوكاتهم وتضحياتهم، وما ذكر آنفاً ليس سوى غيض من فيض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مما تيسر ذكره والوقوف عنده، آملين متابعة الحديث عن هذه المسألة العقائدية في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى، وصلى الله وسلم على الرسول محمد، وعلى آله، وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الطور: 42.
2. الأنبياء: 70.
3. الصافات: 98.
4. آل عمران: 120.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الخامسة

عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو في قُبَّةٍ: (اللهم إني أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللهم إن شِئْتَ لم تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَأَخَذَ أبو بَكْرٍ بيده، فقال: حَسْبُكَ يا رَسُولَ الله، فَقَدْ أَلْحَحْتَ على رَبِّكَ وهو في الدِّرْعِ، فَخَرَجَ وهو يقول: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ، بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ، وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ).(*)

متابعة لحديث الحلقة السابقة عن طمأنة الله عز وجل رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، بكفايته خداع الكافرين، حيث جاء لفت الانتباه إلى تلك الطمأنة في سياق الوقوف عند أمر الله تعالى نبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم، بأن يتخذه وكيلاً، فهو لن يجد من يمنع عنه ضراً أراد الله أن يصيبه به، ولا يحجب عنه خيراً أراده الله تعالى له، والرسول، صلى الله عليه وسلم، في الحديث الشريف المذكور أعلاه، يبرهن على صدق إيمانه بهذه الحقيقة العقائدية، من خلال ممارسة عملية دالة على هذا الإيمان، فقبيل توجهه والمؤمنين إلى خوض أولى المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام، وبعد أن أخذ بالأسباب اللازمة لهذا اللقاء الحربي الحاسم، لم يفته الدعاء بطلب المدد الرباني، وسؤال النصر الذي لن يكون إلا بإذن الله تعالى وأمره، وألح بالدعاء لدرجة فائقة، دفعت صاحبه أبا بكر الصديق، إلى أن يأخذ بيده قائلاً: (حَسْبُكَ يا رَسُولَ الله، فَقَدْ أَلْحَحْتَ على رَبِّكَ، وهو في الدِّرْعِ).

توافق الاطمئنان إلى التوكل مع الإلحاح في الدعاء:

ورد في شرح هذا الحديث أن قول أبي بكر، رضي الله عنه: (حَسْبُكَ) أي يكفيك ما

* صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي، صلى الله عليه وسلم، والقميص في الحرب.

قلت، وقوله: (أَلْحَحْتَ) أي داومت الدعاء، يقال: ألح السحاب بالمطر؛ دام، ويقال: معناه بالغت في الدعاء، وأطلت فيه، وقال الخطابي: قد يشكل معنى هذا الحديث على كثير من الناس، وذلك إذا رأوا نبي الله يناشد ربه في استنجاز الوعد، وأبو بكر، رضي الله عنه، يسكن منه، فيتوهمون أن حال أبي بكر بالثقة بربه، والطمأنينة إلى وعده، أرفع من حاله، وهذا لا يجوز قطعاً، فالمعنى في مناشدته وإلحاحه في الدعاء الشفقة على قلوب أصحابه وتقويتهم، إذ كان ذلك أول مشهد شهدوه في لقاء العدو، وكانوا في قلة من العدَد والعدُد، فابتهل في الدعاء، وألحَّ ليسكن ذلك ما في نفوسهم، إذ كانوا يعلمون أن وسيلته مقبولة، ودعوته مستجابة، فلما قال له أبو بكر مقالته، كف عن الدعاء، إذ علم أنه استجيب له بما وجده أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة، حتى قال له هذا القول، ويدل على صحة هذا التأويل، تمثله على أثر ذلك بقوله: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) وفيه تأنيس من استبطأ ما وعده الله به من النصر والبشرى لهم، بهزم حزب الشيطان، وتذكيرهم بما نبههم به من كتابه عز وجل، والمراد من (الجَمْعُ) جمع كفار مكة يوم بدر، فأخبر الله تعالى أنهم سيهزمون، ويولون الدبر؛ أي الإدبار، وقوله: (بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ)؛ أي موعد عذابهم، وقوله: (وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)؛ أي عذاب يوم القيامة أشد وأفظع، والداهية الأمر المنكر الذي لا يهتدى له، وقوله: (وَأَمَرُّ)؛ أي أعظم بلية، وأشد مرارة من الهزيمة والقتل يوم بدر.(*)

الثناء على المتوكلين:

أثنى الله على المتوكلين عليه سبحانه في أزماتهم، كما كان من الثلة المؤمنة التي لبت النداء، وانصاعت لأمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، بعد الجراح التي أصابت المسلمين في غزوة أحد، فخرج الرسول، صلى الله عليه وسلم، على إثر ذلك إلى حمراء

* عمدة القاري، 14/ 193.

الأسد، وخرج معه الصادقون المتوكلون، الذين لم يأبهوا إلى أراجيف الكافرين، ممن روجوا بأن الأعداء حشدوا للقائهم؛ ليحبطوا المعنويات، ويفتروا العزائم والهمم، وقد سجل القرآن الكريم هذا الحادث المهم في ثنايا صفحاته، التي سطرت ثناء من الله تعالى على المتوكلين عليه، مع الإشارة إلى أنه كفاهم شر عدوهم، وفي ذلك كله يقول تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لله وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ* الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ الله وَالله ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.[1]

فالذين يستجيبون لله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، لا يكترثون لأقاويل المثبطين وأراجيفهم، وإنما يتوكلون على الله حق التوكل؛ لإيمانهم الجازم أن ما يصيبهم ما كان ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، وإن أعتى الحصون لن تدفع عن المتحصنين موتاً مقدراً، مصداقاً لقوله تعالى: {...قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ...}[2]، ومثل ذلك مسألة الرزق، فإن نوعه ومقداره يكونان بأمر الله تعالى وقدره، وقد طمأن الرسول، صلى الله عليه وسلم، المتوكلين من خلال تنبيههم إلى هذه الحقيقة العقائدية، فقال: (لو أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ على الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كما يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا).[3]

1. آل عمران: 172 - 175.
2. آل عمران: 154
3. سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، وصححه الألباني.

التوكل وتحقيق النصر:

جاءت الآيات الكريمة المذكورة آنفاً من سورة آل عمران بعد آيات بَيّنت مقام الشهداء عند ربهم، حيث قال تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ وَأَنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}.[1]

وبيان منازل الشهداء، سبقه التأكيد الرباني على قضية عقائدية ذات صلة وثيقة بالتوكل، وكفاية المتوكلين، تلكم هي قضية ملاقاة العدو والانتصار عليه، فالنصر والهزيمة أمرهما إلى الله تعالى، وفي هذا يقول تعالى: {إِن يَنصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [2]، فالذي يؤمن بهذه الحقائق العقائدية، المتعلقة بالنصر والغلبة، أو العكس، يجد ما يدعوه إلى تفويض الأمور إلى الله تعالى، الذي بيده ملكوت كل شيء سبحانه، يهب النصر لمن يشاء، ويحجبه عمن يشاء.

وهو القائل جل شأنه على لسان المتوكلين: {وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}.[3]

والمتوكلون على الله تعالى يحبونه ويحبهم، وهو القائل جل شأنه: {... فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[4]، ويجدر التأكيد هنا على لزوم التفريق بين المتوكلين والمتواكلين، فشتان بين من يركن إلى الكسل والخمول، منتظراً النصر والأرزاق والهبات

1. آل عمران: 169 - 171.
2. آل عمران: 160.
3. إبراهيم: 12.
4. آل عمران: 159.

بأنواعها، وبين المؤمن الذي يفوض أمره إلى الله تعالى تزاماناً مع أخذه بالأسباب لتحقيق أهدافه وأمنياته.

فهذه معطيات عقائدية أخرى عني القرآن الكريم بذكرها، والتأكيد على معانيها في ثنايا توجيهاته الكريمة، بهدف ترسيخ الإيمان بقدرة الله تعالى على فعل ما يشاء، وإعطاء ما يشاء، ومنع ما يشاء، وإذا ما تحقق الإيمان بهذه العقيدة الراسخة شوهدت بصماته في مواقف المؤمنين وسلوكاتهم وتضحياتهم، وما ذكر أنفاً ليس سوى غيض من فيض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مما تيسر ذكره والوقوف عنده، آملين متابعة الحديث عن هذه المسألة العقائدية في الحلقة القادمة، إن شاء الله تعالى، وصلى الله وسلم على الرسول محمد وعلى آله وأزواجه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الأخيرة

تختم هذه الحلقة في هذه المرحلة الحديث عن أمر الله تعالى رسوله الكريم محمداً، صلى الله عليه وسلم، أن يتخذه وكيلاً، بعد تناول بعض جوانب هذه القضية العقائدية في الحلقات الخمس السابقة، وتهدف هذه الخاتمة إلى تلمس آثار الإيمان باتخاذ الله وكيلاً على سلوك المؤمن، ونظرته لأمور الدنيا والآخرة، ومن تلك الآثار في ضوء القرآن والسنة:

الصبر وترك الجزع:

تواجه الإنسان مصاعب مختلفة في حياته، والمؤمن على وجه الخصوص تواجهه مصاعب إضافية، تبعاً لملاحقته بالأذى والاضطهاد بسبب حمله الطهر راية، واتباعه الحق منهجاً، من هنا برر قوم لوط معاداته وأتباعه لاختيارهم العفاف بدلاً عن الشذوذ مسلكاً، وعن هذا يقول تعالى: {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}(*)، علماً أن هذا الرد ذكر أيضاً في سورة النمل: آية 56.

فجريمة لوط وحاملي رسالته في نظر معاديهم أنهم تعففوا عن إتيان أدبار الرجال، فالتطهر عن هذا الوباء، عُدّ وفق معايير الضالين جرماً يستوجب مواجهة أصحابه بالطرد من ديارهم، والنفي عن بيوتهم، وهنا يكون الصبر على الأذى مطلباً لا مناص عنه، ومع ذلك؛ فإن تملك القدرة على التحلي به، إنما تكون بعون الله تعالى، الذي ينزل السلوى قبل البلوى، وهو القائل سبحانه: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

* الأعراف: 82.

وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}.[1]

فالله تعالى يأمر بالصبر، ويعين عليه، وقوله تعالى: {وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} معناه هنا النهي عن الحزن على الكفار إذا امتنعوا من قبول الإسلام، ويدل على ذلك كثرة ورود هذا المعنى في القرآن العظيم، كقوله: {فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} وقوله: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً} وقوله: {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} إلى غير ذلك من الآيات.[2]

وقوله تعالى: {وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}؛ أي جنب نفسك حرج الصدر من مكرهم وكيدهم لك، ولا تبال بذلك، فإن الله يعصمك من الناس.[3]

وفي هذه الآية أمر ونهيان، أمر بالصبر، ونهي عن الحزن عليهم، ونهي عن ضيق الصدر بسبب مكرهم، والقدرة على تنفيذ هذا الأمر، والامتناع عن النهيين، لا يكون إلا بعون الله تعالى ولطفه، من هنا جاء الأمر بالصبر مقترناً بالتأكيد على أن الله تعالى يعين عليه، مما يظهر الحاجة الماسة دائماً وأبداً إلى اتخاذ الله وكيلاً.

سؤال الله تعالى الحاجات:

من آثار الإيمان بفاعلية اتخاذ الله وكيلاً، طلب الحاجات منه تعالى، والعمل لرضاه سبحانه، فالعزة والنصر والرزق والحياة من الحاجات التي يهبها الله تعالى لمن يشاء، فبشأن العزة يقول سبحانه: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً...}[4]

---

1. النحل: 127.
2. أضواء البيان، 2/ 316.
3. الكشاف، 3/ 385.
4. فاطر: 10.

وبشأن النصر يقول تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.[1]

والله تعالى يتصدى لمكر الماكرين؛ ليدفع شرهم عن أوليائه، فيقول تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.[2]

وبخصوص الرزق، يقول تعالى: {اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ}.[3]

ومثل ذلك حاجات الخلق جميعها، التي من أبرزها في الدنيا، بل أهمها الحياة عليها، وهي لا تكون إلا بأمر الله تعالى، وهو القائل سبحانه: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.[4]

فهذه القضايا المفصلية يجد المؤمن رؤيته واضحة تجاهها، فلا يطلبها إلا من الله، وبالتالي لا يطلبها بطريق آثم، ولا يستعجل تحققها؛ لأنه يؤمن أن قدر الله كائن لا محالة، فلا يستعجل المؤمن النتائج، ولا تساوره ظنون أو شكوك حول حتمية نيله الخير كمحصلة للإيمان، والتوكل، والسعي الجاد على نهج القرآن الكريم، وسنة خاتم النبيين والمرسلين، عليه وإياهم صلوات الله وسلامه، فالمؤمن يعتقد بحتمية قطف ثمار أعماله الطيبة، على درب السلف الصالح، الذين أمرهم الله تعالى بالإعلان عن هذه العقيدة الواضحة، فقال تعالى:{قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن

1. الأنفال: 10.
2. الأنفال: 30
3. الرعد: 26.
4. الروم: 40.

يُصِيبَكُمُ الله بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ}(*)، فالنهايات للمؤمن طيبة، بخلاف غيره الذي تكون نهايته وخيمة.

المحاججة بسلاح الكفاية الربانية:

الحقيقة الإيمانية الناصعة الدالة على موجبات اتخاذ الله تعالى وكيلاً لفت الانتباه إليها الرسل والأنبياء، عليهم السلام، خلال المحاججة بالحق، ودحض الباطل، لاستجلاب الناس إلى الهداية والإيمان، ومن الشواهد التي أخبر عنها القرآن الكريم بهذا الصدد، تلك البينات التي ساقها إبراهيم، عليه السلام، لعقول قومه، فيذكر القرآن الكريم حواراً عقائدياً دار بين إبراهيم، عليه السلام، وقومه، وكان محوره الكفاية الربانية، وتفرد الله سبحانه بالسيطرة على مجريات الأمور، وعن ذلك يقول تعالى:{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ* قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ* قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ* قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ* قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ* أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ* فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ* الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ* وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ* وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ* وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ* وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ* رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ* وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ* وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ* وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ* وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ* يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ* وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ* وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ* وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ* مِن دُونِ الله هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ* فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ* وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ* قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ* تَاللهِ إِن

* التوبة: 52.

كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ* إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[1]

فالله هو الخالق والهادي والمطعم والمسقي والشافي والمحيي والمميت والغفور الرحيم، واهب الحكم والحكمة، والملحق بالصالحين، الذي يجعل إن شاء للمرء لسان صدق، ويورث من شاء جنة النعيم، يعز من يشاء، ويخزي من يشاء، ويدخل المتقين الجنة، والغاوين الجحيم، ولا أحد يملك لنفسه نصراً ولا لغيره، إلا بإذن الله وأمره، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}

فمن تدبر في هذه الدلائل ينحاز إلى فسطاط الإيمان، الذي من أعمدته اتخاذ الله وكيلاً، ومن أتبع نفسه هواها، وعطل حواسه وإدراكه، فلن ينتفع بحجج الحق، ودلائل الإيمان، ويحتمل أن يقول كما قال أسلافه من قبل، ممن ذكر الله تعالى ردهم المقيت، فقال تعالى: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}.[2]

راجين الله عز وجل أن تؤتي هذه الحلقة وما سبقها الثمار الطيبة في ترسيخ الإيمان بقدرة الله تعالى على فعل ما يشاء، وإعطاء ما يشاء، ومنع ما يشاء، لتظهر بصمات هذا الإيمان في مواقف المؤمنين وسلوكاتهم وتضحياتهم، مع التأكيد على أن ما تيسر ذكره والوقوف عنده من مسائل وموضوعات في الحلقات المشار إليها ليس سوى غيض من فيض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ذات الصلة، وصلى الله وسلم على الرسول محمد، وعلى آله، وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الشعراء: 69 – 98.
2. الأنفال: 32.

الفصل الثاني
عبادات

الرسول الأسوة صلى الله عليه وسلم		
.1	يمتنع عن الصلاة على ميت مدين ـ الحلقة الأولى	106
.2	يمتنع عن الصلاة على ميت مدين ـ الحلقة الثانية	111
.3	يمتنع عن الصلاة على ميت مدين ـ الحلقة الأخيرة	116
.4	ينهى عن منع النساء من الصلاة في المساجد	121
.5	أمره ربه أن يصلي إليه وينحر ووعده الكوثر	126
.6	ينهى عن صيام الدهر ويعد بثوابه	131
.7	هديه في صيام شعبان	136
.8	واستقبال رمضان بالإيمان والاحتساب	140
.9	يبين حكم الصيام وفضله وأهميته	145
.10	يخبر عن فتح أبواب الجنة وغلق أبواب النار في رمضان	150
.11	هديه في العيد وصلاته	155

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يمتنع عن الصلاة على ميت مدين ـ الحلقة الأولى

عن سَلَمَةَ بن الأَكْوَعِ، رضي الله عنه، قال: (كنا جُلُوسًا عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، إِذْ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ، فَقَالُوا: صَلِّ عليها، فقال: هل عليه دَيْنٌ؟ قالوا: لَا، قال: فَهَلْ تَرَكَ شيئاً؟ قالوا: لَا، فَصَلَّى عليه، ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى، فَقَالُوا: يا رَسُولَ الله؛ صَلِّ عليها، قال: هل عليه دَيْنٌ؟ قِيلَ: نعم، قال: فَهَلْ تَرَكَ شيئاً؟ قالوا: ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ، فَصَلَّى عليها، ثُمَّ أُتِيَ بِالثَّالِثَةِ، فَقَالُوا: صَلِّ عليها، قال: هل تَرَكَ شيئاً؟ قالوا: لَا، قال: فَهَلْ عليه دَيْنٌ؟ قالوا: ثَلَاثَةُ دَنَانِيرَ، قال: صَلُّوا على صَاحِبِكُمْ، قال أبو قَتَادَةَ: صَلِّ عليه يا رَسُولَ الله، وَعَلَيَّ دَيْنُهُ، فَصَلَّى عليه).(*)

فهذا الحديث الشريف يخبر عن مواقف للنبي، صلى الله عليه وسلم، تثبت خطورة تأثير الدين الذي يحمله الإنسان في حياته الدنيا على مصيره في الآخرة، فقد كان عليه الصلاة والسلام حين يُدعى إلى الصلاة على ميت، يسأل هل عليه دين، إلى جانب سؤاله هل ترك شيئاً؛ أي من المال، ففي الحالات التي كان يجاب فيها أن الميت ليس عليه دين، أو عليه، لكنه ترك مالاً لقضائه، كان يصلي على الميت، غير أنه كان يمتنع عن الصلاة على الميت، إذا علم أنه مدين، ولم يبق مالاً يسد منه دينه، وهذه المواقف تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك خطورة الدين، مما يعني لزوم التحرز عنه قدر الاستطاعة، وضرورة المسارعة إلى تسديده في أقرب فرصة تتاح لذلك، دون تسويف أو مماطلة.

كفالة سداد دين الميت:

في الحديث المذكور أعلاه عاد الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن امتناعه عن الصلاة

* صحيح البخاري، كتاب الحوالات، باب إن أحال دين الميت على رجل جاز.

على ميت مدين، بعد أن تعهد الصحابي الجليل أبو قتادة بسداد الدين عنه، فحينها صلى عليه.

وجاء في صحيح البخاري، عن جَابِرِ بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (لو قد جاء مَالُ الْبَحْرَيْنِ، قد أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، فلم يَجِئْ مَالُ الْبَحْرَيْنِ حتى قُبِضَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما جاء مَالُ الْبَحْرَيْنِ، أَمَرَ أبو بَكْرٍ، فَنَادَى من كان له عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، عِدَةٌ أو دَيْنٌ، فَلْيَأْتِنَا، فَأَتَيْتُهُ، فقلت: إِنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال لي: كَذَا وَكَذَا، فَحَثَى لي حَثْيَةً، فَعَدَدْتُهَا، فإذا هِيَ خمس مائة، وقال: خُذْ مِثْلَيْهَا).[1]

فبعد وفاة النبي، صلى الله عليه وسلم، تكفل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بسداد دين كان عليه، فأَمَرَ من ينادي: (من كان له عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، عِدَةٌ أو دَيْنٌ، فَلْيَأْتِنَا)، ولم يكن ذلك موقفاً شكلياً منه رضي الله عنه، وإنما كان يتسم بمنتهى الجدية والالتزام.

الحوالة:

جاء في صحيح البخاري، بَاب الحوالة وهل يرجع في الحوالةَ، وفيه عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، فإذا أُتْبِعَ أحدكم على مَلِيٍّ، فَلْيَتْبَعْ).[2]

قوله: (فإذا أُتْبِعَ أحدكم على مَلِيٍّ، فليتبع) معناه إذا أحيل فليحتل.[3]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يشرع في حديثه الشريف هذا مبدأ الحوالة، التي بين

1. صحيح البخاري، كتاب الكفالة، باب من تكفل عن ميت دينا فليس له أن يرجع.
2. صحيح البخاري، كتاب الحوالات، باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة.
3. عمدة القاري، 12 /110.

العلماء مفهومها، وأركانها، وشروطها، وأحكامها الأخرى، ومما جاء في كتاب: موسوعة الفقه الإسلامي بالخصوص، أن الحوالة عقد جائز، يقتضي نقل دين من ذمة إلى أخرى، وإذا أحال المدين دائنه على مليء لزمه أن يحتال، وإن أحاله على مفلس، ولم يعلم رجع بحقه على المحيل، وإن علم ورضي بالحوالة عليه، فلا رجوع له.

وأركان الحوالة خمسة، هي: المحيل: وهو المدين، والمحال: وهو رب الدين، والمحال عليه: وهو الذي عليه دين للمحيل، والمحال به: وهو الدين الذي للمحيل على المحال عليه، والصيغة: وهي الإيجاب والقبول بين المحيل والمحال.

أما شروط الحوالة، فهي:

1. أن يكون كل من المحيل والمحال والمحال عليه من أهل التصرف، بأن يكون كل واحد منهم بالغاً عاقلاً رشيداً، غير محجور عليه.
2. أن يكون المحال عليه مديناً للمحيل.
3. أن يكون الدين المحال به قد حلَّ على المحال عليه.
4. أن يكون الدين المحال مساوياً للمحال عليه في الصفة، والجنس، والمقدار.
5. الإيجاب والقبول بين المحيل والمحال حسب العرف.

وبالنسبة إلى الآثار التي تترتب على الحوالة، فهي:

1. إذا تحققت شروط الحوالة، صحت الحوالة، وبرأت ذمة المحيل.
2. ثبوت حق مطالبة المحال للمحال عليه بحقه.
3. ملازمة المحال للمحال عليه حتى يوفيه دينه.

وتنتهي الحوالة بأحد الأمور الآتية:

1. فسخ الحوالة برضا المحيل والمحال.

2. أداء المحال عليه المال إلى المحال.

3. أن يهب المحال المال للمحال عليه، أو يتصدق به عليه.

4. أن يبرئ المحال المحال عليه من الدين.[1]

الالتزام بسداد الدين في موعده وإمهال المعسر:

الأصل في المدين أن يبادر إلى سداد دينه في الموعد المحدد لذلك، إلا إذا كان معسراً، فيحسن بالدائن حينئذ أن يمهله ويعطيه موعداً آخر للسداد، والله تعالى حث على إمهال المعسر، فقال تعالى: {وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}.[2]

قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (تَلَقَّتْ المَلائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كان قَبْلَكُمْ، قالوا: أَعَمِلْتَ من الْخَيْرِ شيئاً؟، قال: كنت آمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا وَيَتَجَاوَزُوا عن الْمُوسِرِ، قال: قال فَتَجَاوَزُوا عنه، قال أبو عبد الله: وقال أبو مَالِكٍ، عن رِبْعِيٍّ: كنت أُيَسِّرُ على الْمُوسِرِ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ).[3]

وفي رواية أخرى صحيحة، عن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (كان تَاجِرٌ يُدَايِنُ الناس، فإذا رَأَى مُعْسِرًا قال لِفِتْيَانِهِ تَجَاوَزُوا عنه، لَعَلَّ الله أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ الله عنه).[4]

والمدين المعسر الذي لم يتمكن من سداد دينه في الموعد المحدد له، ينبغي له أن يبادر إلى إشعار الدائن بظرفه دون تسويف، على غير حال الذين يتثاقلون في السداد لسبب قاهر

---

1. موسوعة الفقه الإسلامي، 162 –271.
2. البقرة: 280.
3. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب من أنظر موسراً.
4. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب باب من أنظر معسراً.

أو دونه، من الذين يساهمون في فساد الذمم، ونزع الثقة من بين الناس تجاه بعضهم بعضاً.

أطول آية في القرآن الكريم:

أولى الإسلام الدين أهمية بالغة، فأطول آية في القرآن الكريم، هي الآية 282 من سورة البقرة، والمعروفة بآية الدين، التي فصلت كثيراً من دقائق أحكام الدين وتوثيقه، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ الله فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ الله رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ الله وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا...}.(*)

والعمل بمقتضى التوجيهات الربانية المتضمنة في هذه الآية الكريمة، يحفظ حقوق الناس، ويعزز الثقة بينهم، ويبعد عنهم الشقاق والنزاع.

وإلى لقاء آخر مع ما يتيسر من تداعيات في ضوء الامتناع عن الصلاة على الميت المدين، حسب ما ورد عن الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

* البقرة: 282.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يمتنع عن الصلاة على ميت مدين ـ الحلقة الثانية

جاء في صحيح مسلم، بَاب من قُتِلَ في سَبِيلِ الله كُفِّرَتْ خَطَايَاهُ إلا الدَّيْنَ، وفيه عن أبي قَتَادَةَ: أَنَّهُ سَمِعَهُ يحدث (عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قام فِيهِمْ، فذكر لهم أَنَّ الْجِهَادَ في سَبِيلِ الله، وَالْإِيمَانَ بِاللهِ، أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فقال: يا رَسُولَ الله؛ أَرَأَيْتَ إن قُتِلْتُ في سَبِيلِ الله، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: نعم، إن قُتِلْتَ في سَبِيلِ الله، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، ثُمَّ قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: كَيْفَ قُلْتَ؟ قال: أَرَأَيْتَ إن قُتِلْتُ في سَبِيلِ الله، أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: نعم، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إلا الدَّيْنَ، فإن جِبْرِيلَ، عليه السَّلام، قال لي ذلك).(*)

متابعة لما تضمنته الحلقة السابقة من هذه الزاوية الصحفية المباركة، من بيان للخطورة الدينية للدّيْن على شخص المدين، حيث لم يكن امتناع النبي، صلى الله عليه وسلم، عن الصلاة على الميت المدين أمراً عابراً، بل يدل على أن المدين للناس بحقوق معينة تلزمه المسارعة إلى سدادها، قبل أن يباغته الموت، وهي معلقة في رقبته، حتى إن الشهيد يغفر له ما اقترف من ذنوب إلا الدين، والحديث الشريف الذي بين أيدينا يدل بصريح لفظه على ذلك، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، تراجع عن شمل ما سبق من خطايا للشهيد بتكفير الشهادة لها، ليستثني الدين، بعد أن بلغه جبريل هذا الحكم عن الله تعالى.

* صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين.

يذكر الإمام النووي إن في هذا الحديث بياناً للفضيلة العظيمة للمجاهد، وهي تكفير خطاياه كلها إلا حقوق الآدميين، وأن قوله، صلى الله عليه وسلم، إلا الدين، ففيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين، وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين، وإنما يكفر حقوق الله تعالى، وأن قوله صلى الله عليه وسلم: (إلا الدَّيْنَ)، فمحمول على أنه أوحى إليه به في الحال، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (إلا الدَّيْنَ، فإن جِبْرِيلَ، عليه السَّلام، قال لي ذلك، والله أعلم.[1]

لصاحب الدَّين مقال:

يلح الدائن أحياناً في طلب دينه من المدين، بخاصة إذا حان أجله، ولم يسدد، وتزداد حدة حنق الدائن إذا كان تسويف المدين في المبادرة إلى سداد دينه يعود إلى التجاهل، أو المماطلة أو الإهمال، إلا أن بعض الدائنين يسلكون درب الفظاظة في طلب الدين، وذلك ليس من شيم الكرام وأخلاقهم، وإن كان النبي، صلى الله عليه وسلم، قد أعذر الدائن فيما ذهب إليه من غلظة، وإلحاح عند المطالبة بدينه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه: (أَنَّ رَجُلًا أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، يَتَقَاضَاهُ، فَأَغْلَظَ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: دَعُوهُ، فإن لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا، ثُمَّ قال: أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ، قالوا: يا رَسُولَ الله؛ إلا أَمْثَلَ من سِنِّهِ، فقال: أَعْطُوهُ؛ فإن من خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً). [2]

وهذا الإعذار للدائن كان من قبل الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو الطرف

1. صحيح مسلم بشرح النووي، 13 /29.
2. صحيح البخاري، كتاب الوكالة، باب الوكالة في قضاء الديون.

المدين، ومن دلالات هذا الموقف، أنه يدل على نبل أخلاقه، صلى الله عليه وسلم، فلم تأخذه العزة بما هو أهله من مقام رفيع، وقيادة لأمته، ونبي للعالمين، لينكر على المدين هذه الغلظة معه، صلى الله عليه وسلم، بل قال: (دَعُوهُ؛ فإن لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا، ثُمَّ قال: أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ) فهل فقه المدينون ما ينبغي لهم أن يفقهوا؟ ولو فعلوا ذلك لما اقتتلوا بسبب مطالبة بدين، وما تناحروا، ولبادروا إلى تسديد ما عليهم من ديون لأصحابها دون تسويف، أو مماطلة، أو تأخير، وذلك من حسن القضاء الذي أثنى الرسول، صلى الله عليه وسلم، على صاحبه، فقال: (رَحِمَ الله رَجُلًا سَمْحًا إذا بَاعَ، وإذا اشْتَرَى، وإذا اقْتَضَى).[1]

ومعنى قوله: (وإذا اقْتَضَى)؛ أي طلب قضاء حقه بسهولة، وعدم إلحاف، وجاء في رواية (وإذا قضى)؛ أي أعطى الذي عليه بسهولة بغير مطل.[2]

سداد الدين قبل توزيع الميراث:

من دلالات أهمية الدين، وعناية الإسلام في قضائه لأصحابه، أن الله تعالى أمر بإخراجه من رأس مال تركة المتوفى المدين إلى جانب تنفيذ وصيته إن وجدت، قبل المبادرة إلى توزيعها على الوارثين الشرعيين، وقد ذكر الله تعالى هذا الحكم في آيتين متتاليتين من سورة النساء، فقال تعالى: {...فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ...}[3]، ويقول جل شأنه: {...وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ

---

1. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف.
2. فتح الباري، 4/ 307.
3. النساء: 11.

فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ}[1]

جاء في التفسير أن هذه الأنصباء إنما تدفع إلى هؤلاء إذا فضل عن الوصية والدين؛ وذلك لأن أول ما يخرج من التركة الدين، حتى لو استغرق الدين كل مال الميت، لم يكن للورثة فيه حق، فأما إذا لم يكن دين، أو كان إلا أنه قضى، وفضل بعده شيء، فإن أوصى الميت بوصية، أخرجت الوصية من ثلث ما فضل، ثم قسم الباقي ميراثاً على فرائض الله.[2]

وتفسير قوله تعالى: {غَيْرَ مُضَارّ}؛ أي يوصى بها وهو غير مضار لورثته، والضرار في الوصية يقع على وجوه، أحدها: أن يوصي بأكثر من الثلث، وثانيها: أن يقر بكل ماله أو ببعضه لأجنبي، وثالثها: أن يقر على نفسه بدين، لا حقيقة له منعاً للميراث عن غيره، قد استوفاه ووصل إليه، ورابعها: أن يبيع شيئاً بثمن بخس، أو يشتري شيئاً بثمن غال، كل ذلك لغرض أن لا يصل المال إلى الورثة، وخامسها: أن يوصي بالثلث، لا لوجه الله، لكن لغرض تنقيص حقوق الورثة، فهذا هو وجه الإضرار في الوصية.[3]

وجاء في صحيح البخاري أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، (قَضَى بِالدَّيْنِ قبل الْوَصِيَّة).[4]

ويذكر العيني في عمدة القاري أن العلماء سلفاً وخلفاً، أجمعوا على أن الدَّين مقدم على الوصية، ولكن الدَّين على نوعين؛ دين الله، ودين العباد، فدين الله إن لم يوص به،

1. النساء: 12.
2. التفسير الكبير، 9/ 175.
3. التفسير الكبير، 9/ 182.
4. صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: {من بعد وصية يوصي بها أو دين }(النساء: 12).

يسقط عند بعض العلماء، سواء أكان صلاة أم زكاة، ويبقى عليه المأثم، والمطالبة يوم القيامة، وعند الشافعي يلزم قضاؤه، كدين العباد أوصى أو لا، وإن بعض الدين أولى من بعض، فدين الصحة وما ثبت بالمعاينة في المرض، أو بالبينة أولى مما يثبت عليه بالإقرار، وقال الشافعي: دين الصحة، وما أقر به في مرضه سواء، وما أقر به فيه مقدم على الوصية، ولا يصح إقراره فيه لوارثه بدين أو عين، خلافاً لما قاله الشافعي في أحد قوليه إلاَّ أن تجيزه بقية الورثة، فيجوز، وإذا اجتمع الدَّينان؛ فدين العباد أولى، وعند الشافعي دين الله أولى، وعنه أنهما سواء، وأما الوصية في مقدار الثلث، فمقدمة على الميراث بعد قضاء الديون، فلا يحتاج إلى إجازة الورثة.(*)

فهذه وقفة أخرى عند ما تيسر من التوجيهات الربانية والنبوية، التي تبين خطورة الدين، وتحث على الوفاء بإرجاعه إلى أصحابه الدائنين، آملين أن نوفق في عرض المزيد من هذه التوجيهات في الحلقة القادمة من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* عمدة القاري 23 /230.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يمتنع عن الصلاة على ميت مدين ـ الحلقة الأخيرة

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَخْبَرَتْ أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، كان يَدْعُو في الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: (اللهم إني أَعُوذُ بِكَ من الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ، فقال له قَائِلٌ: ما أَكْثَرَ ما تَسْتَعِيذُ يا رَسُولَ الله من الْمَغْرَمِ؟ قال: إِنَّ الرَّجُلَ إذا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ).[1]

تعرضت الحلقة السابقة من حلقات امتناع الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، عن الصلاة على ميت مدين، إلى تكفير ذنوب الشهيد في سبيل الله تعالى السابقة كلها إلا ما تعلق منها بحقوق العباد والمديونية لهم، مع بيان أن لصاحب الدين مقالاً، وإن الدين يقضى قبل توزيع الميراث وتقسيمه على الورثة، مع بيان أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قَضَى بِالدَّيْنِ قبل الْوَصِيَّةِ، وتعرج هذه الحلقة على بعض القضايا والمسائل المتعلقة بالدين، والعناية بسداده للدائنين.

الاستعاذة بالله تعالى من الدين:

في الحديث الشريف أعلاه يستعيذ النبي، صلى الله عليه وسلم، من أمور أحدها المغرم، وهو الدين، والغريم هو الذي عليه الدّين.[2]

وسأل رجل النبي، عليه السلام، عن وجه الحكمة في كثرة استعاذته من المغرم، فذكر صلى الله عليه وسلم إن الرجل إذا غرم؛ يعني إذا لحقه دين، حدث فكذب؛ بأن يحتج بشيء في وفاء ما عليه، ولم يقم به، فيصير كاذباً، ووعد فأخلف؛ بأن قال لصاحب الدين: أوفيك دينك في يوم كذا، أو في شهر كذا، أو في وقت كذا، ولم يوف فيه، فيصير مخالفا

1.صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام.
2. عمدة القاري 12/ 234.

لوعده. والكذب وخلف الوعد من صفات المنافقين، كما ورد في الحديث المشهور، فلولا هذا الدين عليه لما ارتكب هذا الإثم العظيم، ولما اتصف بصفات المنافقين.

فالمدين قد يمطل صاحب الدين، وقد يشتغل به قلبه، وربما مات قبل وفائه، فبقيت ذمته مرتهنة به.[1]

وكلمة (ما) في قوله: (ما أكثر ما تستعيذ) الأولى للتعجب، والثانية مصدرية، يعني ما أكثر استعاذتك من المغرم.[2]

ومن دعاء السلف الصالح، إنه كان إذا أَرَادَ أَحَدُهم أَنْ يَنَامَ يَضْطَجِعَ على شقة الْأَيْمَنِ، ثُمَّ يقول: اللهم رَبَّ السَّمَاوَاتِ، وَرَبَّ الأرض، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمَ، رَبَّنَا وَرَبَّ كل شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ كل شَيْءٍ، أنت آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهم أنت الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا من الْفَقْرِ، وكان يروى ذلك عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم.[3]

الشَّفَاعَة في وَضْعِ الدَّيْنِ:

يعتري المدين في كثير من الأحيان ضيق شديد حين تتأزم حالته المالية، وتثقل الديون المستحقة كاهله، فيحتاج في مثل هذا الظرف من يساعده على قضاء دينه، فليجأ إلى الخيِّرين من الأهل والأصدقاء طالباً عونهم، وهذا ما حصل مع الصحابي جابر بن عبد الله الذي ورث ديوناً مرهقة عن والده، فلجأ إلى الرسول، عليه السلام، راجياً مساعدته،

1. صحيح مسلم بشرح النووي، 17/ 29.
2. عمدة القاري، 6 /117.
3. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

فعنه قال: (أُصِيبَ عبد الله، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا، فَطَلَبْتُ إلى أَصْحَابِ الدَّيْنِ أَنْ يَضَعُوا بَعْضًا من دَيْنِهِ، فَأَبَوْا، فَأَتَيْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَاسْتَشْفَعْتُ بِهِ عليهم، فَأَبَوْا، فقال: صَنِّفْ تَمْرَكَ كُلَّ شَيْءٍ منه على حِدَتِهِ، عِذْقَ بن زَيْدٍ على حِدَةٍ، وَاللِّينَ على حِدَةٍ، وَالْعَجْوَةَ على حِدَةٍ، ثُمَّ أَحْضِرْهُمْ حتى آتِيَكَ، فَفَعَلْتُ، ثُمَّ جاء صلى الله عليه وسلم فَقَعَدَ عليه، وَكَالَ لِكُلِّ رَجُلٍ حتى اسْتَوْفَى، وَبَقِيَ التَّمْرُ كما هو، كَأَنَّهُ لم يُمَسَّ ...).[1]

قوله: (فطلبت إلى أصحاب الدين): أي أنهيت طلبي إليهم، وقوله: (صنِّف) أمر من التصنيف، وهو أن يجعل الشيء أصنافاً، ويميز بعضها عن بعض. وقوله: (على حدة) أي كل واحد على انفراد، وقوله: (عذق ابن زيد) هو نوع من التمر جيد، وقوله: (واللين) نوع من التمر، وقيل التمر الرديء، وهو جمع لينة، وهي النخلة، قاله ابن عباس، أو النخل كله ما خلا البرني، وقال الكرماني هو ما خلا العجوة، وأما العجوة فهي من أجود تمور المدينة، ويقال: أهل المدينة يسمون العجوة ألواناً. وقوله: (وكال لكل رجل حتى استوفى) أي أعطى لكل رجل من أصحاب الديون حتى استوفى حقه. [2]

حسن القضاء:

يشجع الإسلام انتهاج اللين والرفق عند البيع والشراء والقضاء، فعن جَابِرِ بن عبد الله، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (رَحِمَ الله رَجُلًا سَمْحًا إذا بَاعَ، وإذا اشْتَرَى، وإذا اقْتَضَى).[3]

والسمح، هو السهل المتساهل، وقوله: (وإذا اقتضى) أي إذا طلب قضاء حقه بسهولة، وفي رواية (وإذا قضى) أي إذا أعطى الذي عليه بسهولة بغير مطل.[4]

1. صحيح البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب الشفاعة في وضع الدين.
2. عمدة القاري، 12 /245.
3. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، ومن طلب حقا فليطلبه في عفاف.
4. عمدة القاري، 11 /189.

وضرب الرسول، عليه السلام، المثل الأعلى بحسن قضائه الدّين، ليكون بذلك أسوة للمسلمين، (كان لِرَجُلٍ عَلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سِنٌّ من الْإِبِلِ، فَجَاءَهُ يَتَقَاضَاهُ، فقال: أَعْطُوهُ، فَطَلَبُوا سِنَّهُ، فلم يَجِدُوا له إلا سِنًّا فَوْقَهَا، فقال: أَعْطُوهُ، فقال: أَوْفَيْتَنِي أَوْفَى الله بِكَ. قال النبي، صلى الله عليه وسلم: إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً).[1]

وفي عمدة القاري، قوله: (سن) بكسر السين وتشديد النون؛ أي ذات سن، وهو أحد أسنان الإبل، وأسنانها معروفة في كتب اللغة إلى عشر سنين ... وقوله: (يتقاضاه) يعني يطلب أن يقضيه. وقوله: (أوفيتني) يقال: أوفاه حقه إذا أعطاه وافيا.[2]

وعن جَابِرِ بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: (أَتَيْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو في الْمَسْجِدِ ...وكان لي عليه دَيْنٌ فَقَضَانِي وَزَادَنِي).[3]

ومن حسن قضائه عليه السلام أنه كان يرصد للدين ما يفي بسداده، رغم حرصه الدائم على إنفاق المال الذي يأتيه وعدم ادخاره، فعن أبي ذَرٍّ، رضي الله عنه، قال: (كنت مع النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما أَبْصَرَ، يَعْنِي أُحُدًا، قال: ما أُحِبُّ أَنَّهُ تحول لي ذَهَبًا يَمْكُثُ عِنْدِي منه دِينَارٌ فَوْقَ ثَلَاثٍ إلا دِينَارًا أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ، ثُمَّ قال: إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ الْأَقَلُّونَ، إلا من قال بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا، وَأَشَارَ أبو شِهَابٍ بين يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَقَلِيلٌ ما هُمْ ...).[4]

النهي عن المماطلة:

التسويف في سداد الدين، والتثاقل عن أدائه عند حلول أجله يطلق عليه وصف المماطلة،

1. صحيح البخاري، كتاب الوكالة، باب وكالة الشاهد والغائب جائزة.
2. عمدة القاري 12 /134.
3. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب الصلاة إذا قدم من السفر.
4. صحيح البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب أداء الديون.

المنهي عنها، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ).[1]

وتجر المماطلة على صاحبها سلبيات وآثام، عدا عن بقاء الحق بالدّين لازم في عنق صاحبه للدائن، وذكر النبي، عليه السلام، بعض ما يترتب على المماطلة من تبعات على صاحبها، فقال: (لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عُقُوبَتَهُ وَعِرْضَهُ، قال سُفْيَانُ: عِرْضُهُ، يقول: مَطَلْتَنِي وَعُقُوبَتُهُ الْحَبْسُ).[2]

والمماطلة في أداء حقوق الدائنين يشملها النهي الرباني عن أكل أموال الناس بالباطل، حيث يقول جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيماً}. [3]

والذي ينوي السداد يسد الله تعالى عنه، بخلاف الذي يبغي أكل حقوق الناس بالباطل، والنبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من أَخَذَ أَمْوَالَ الناس يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى الله عنه، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ الله).[4]

فهذه بعض المضامين الشرعية، التي تحث بقوة على سداد الديون، وتنفر من المماطلة، مكتفين في هذه المرحلة بما تم عرضه في هذه الحلقة وسابقتيها عن هذا الموضوع، وصلى الله وسلم على الرسول محمد، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب مطل الغني ظلم.
2. صحيح البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب لصاحب الحق مقال.
3. النساء: 29.
4. صحيح البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
ينهى عن منع النساء من الصلاة في المساجد

عن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (كانت امْرَأَةٌ لِعُمَرَ تَشْهَدُ صَلاةَ الصُّبْحِ وَالْعِشَاءِ فِي الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَقِيلَ لها: لِمَ تَخْرُجِينَ وقد تَعْلَمِينَ أَنَّ عُمَرَ يَكْرَهُ ذلك وَيَغَارُ؟ قالت: وما يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْهَانِي؟ قال: يَمْنَعُهُ قَوْلُ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: لا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ الله).[1] وعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا أستأذنت امْرَأَةُ أَحَدِكُمْ إلى الْمَسْجِدِ، فلا يَمْنَعْهَا).[2]

فهاتان الروايتان وغيرها من الأحاديث الصحيحة، تؤكد على حق المرأة بالخروج إلى المسجد للصلاة فيه، مع حث الأولياء والأزواج على السماح لهن بذلك.

ففي المساجد تؤدى عبادة الصلاة، ويذكر الذاكرون ربهم، ويتذاكر المصلون أمور دينهم، وما يصلح شأنهم، وفيها يتضاعف أجر الصلاة وثوابها، وبعض العلماء يقصر فضل صلاة الجماعة على الرجال دون النساء، على اعتبار أنهم مخاطبون بها دونهن، وهذا رأي اجتهادي لا نوافقه إذ لا يعقل حرمانهن أجر صلاة الجماعة وثوابها، إذا خلصت النية، وروعيت أحكام الشرع وضوابطه عند الخروج إلى المساجد، وأداء الصلاة فيها، ومن الشواهد على مشروعية صلاة النساء في المساجد، ما يأتي:

التخفيف من طول الصلاة مراعاة لأم طفل يبكي:

يقول صلى الله عليه وسلم: (إني لأَقُومُ في الصَّلاةِ، أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فيها، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ في صَلَاتِي؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ على أُمِّهِ).[3]

1. صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم؟
2. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب استئذان المرأة زوجها في الخروج إلى المسجد وغيره.
3. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي.

قوله: (فَأَتَجَوَّزُ)؛ أي أخفف، وقوله: (كَرَاهِيَةَ)؛ أي لأجل كراهية أن أشق، ويروى مخافة أن أشق. ويدل هذا الحديث على حضور النساء إلى المساجد مع النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو أيضاً أعم من أن يكون بالليل أو بالنهار.[1]

وورد هذا الحديث في روايات صحيحة أخرى، تتعاضد في تأكيد مشروعية ارتياد النساء المساجد؛ لأداء الصلاة فيها، بل إن عدداً منها يحث صراحة على السماح لهن بذلك، حتى خلال الليل، لأداء صلاة العشاء أو الفجر.

صلاتهن الفجر والعشاء في المسجد:

يقول صلى الله عليه وسلم: (إِذَا اسْتَأْذَنَكُمْ نِسَاؤُكُمْ بِاللَّيْلِ إِلَى الْمَسْجِدِ فَأْذَنُوا لَهُنَّ).[2]

وعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (كان يُصَلِّي الصُّبْحَ بِغَلَسٍ، فَيَنْصَرِفْنَ نِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ، لا يُعْرَفْنَ من الْغَلَسِ[3]، أو لا يعرف بَعْضُهُنَّ بَعْضًا).[4]

فهذا دليل على أن نساء الصحابة كن يؤدين صلاة الفجر في المسجد، مع تقيدهن بالوقار والحشمة، فعن عَائِشَةَ قالت: (لقد كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يُصَلِّي الْفَجْرَ، فَيَشْهَدُ معه نِسَاءٌ من الْمُؤْمِنَاتِ، مُتَلَفِّعَاتٍ في مُرُوطِهِنَّ، ثُمَّ يَرْجِعْنَ إلى بُيُوتِهِنَّ، ما يَعْرِفُهُنَّ أَحَدٌ).[5]

والمروط جمع مرط، وهو كساء يتزر به، وعدم معرفتهن من الغلس، يحتمل أن يكون لبقاء ظلمة من الليل، أو لتغطيهن بالمروط غاية التغطي، وقيل: معنى (ما يَعْرِفُهُنَّ أَحَدٌ)،

---

1. عمدة القاري 6/ 158.
2. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس..
3. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب سرعة انصراف النساء من الصبح وقلة مقامهن في المسجد.
4. (الغلس) هو بقايا ظلمة الليل، يخالطها ظلام الفجر، شرح الزرقاني 1 /31.
5. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب في كم تصلي المرأة في الثياب.

يعني ما يعرف أعيانهن، وقيل: لا يُعرفن أنساء هن، أم رجال.[1]

صلاة النساء خلف الرجال وانصرافهن قبلهم:

من معززات تشريع صلاة النساء في المساجد، الواقع العملي الذي كان في حضرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث ثبت أنهن كن يصلين جماعة خلفه في المسجد، فعن أُمِّ سَلَمَةَ، رضي الله عنها، قالت: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا سَلَّمَ قام النِّسَاءُ حين يَقْضِي تَسْلِيمَهُ، وَيَمْكُثُ هو في مَقَامِهِ يَسِيرًا قبل أَنْ يَقُومَ، قال: نَرَى وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّ ذلك كان لِكَيْ يَنْصَرِفَ النِّسَاءُ قبل أَنْ يُدْرِكَهُنَّ أَحَدٌ من الرِّجَالِ).[2]

وكن أيضاً حين تتاح لهن الفرصة لأداء صلاة الجماعة، يؤدينها حتى لو أقيمت خارج المساجد، فعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (صَلَّى النبي، صلى الله عليه وسلم، في بَيْتِ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقُمْتُ، وَيَتِيمٌ خَلْفَهُ، وَأُمُّ سُلَيْمٍ خَلْفَنَا).[3]

أفضلية صلاة المرأة في بيتها:

بعض الناس، ومنهم علماء أفاضل يمنعون ذهاب النساء للصلاة في المساجد، أو يكرهون ذلك، بحجة حمايتهن من الفتن، واستناداً إلى بعض الروايات التي تفيد تفضيل صلاتهن في بيوتهن، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (صَلاةُ الْمَرْأَةِ في بَيْتِهَا أَفْضَلُ من صَلَاتِهَا في حُجْرَتِهَا، وَصَلاتُهَا في مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ من صَلاتِهَا في بَيْتِهَا).[4]

فهذه الرواية تفيد أن صلاة المرأة في الأماكن التي تشكل مواضع خصوصية لها أفضل من غيرها، من هنا كان التدريج في التفضيل من البيت إلى الحجرة حتى بلوغ المخدع، الذي هو الجزء الخاص من البيت الذي تحفظ فيه الأشياء النفيسة؛ أي أن الصلاة بناء

1. عمدة القاري، 4/ 89 - 90.
2. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب صلاة النساء خلف الرجال.
3. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب صلاة النساء خلف الرجال.
4. سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب التشديد في ذلك، وصححه الألباني.

على هذه الرواية في أخص أجزاء البيت بالنسبة إلى المرأة أولى من الصلاة في بحبوحة البيت نفسه.

وبالنظر في الأحاديث الواردة في الحث على السماح للنساء بارتياد المساجد، والنهي عن منعهن من ذلك، في مقابل الأحاديث الأخرى التي تحبذ صلاتهن في بيوتهن، نجد أن أسانيد الأحاديث الأولى أقوى، فمعظمها في الصحيحين، إضافة إلى إمكانية التوفيق بين مضامين هذه الأحاديث وتلك، إذ الأصل مشروعية صلاة المرأة في المسجد، غير أن صلاتها في بيتها تصبح أولى حين توجد أسباب تستدعي تفضيل بقائها في بيتها على الخروج منه ولو إلى المسجد، وذلك إذا وُجدت ظروف غير آمنة للخروج من البيت، وكذلك إذا لم تكن المرأة في أحوال معينة متمكنة من الخروج من بيتها إلى الأماكن العامة، بسبب لباس غير محتشم، أو تزينها بما يخص بيتها ومحارمها فحسب، فعن زَيْنَبَ امْرَأَةِ عبد الله، قالت: (قال لنا رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: إذا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ، فلا تَمَسَّ طِيبًا)[1]، وفي رواية، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بَخُورًا، فلا تَشْهَدْ مَعَنَا الْعِشَاءَ الآخِرَةَ).[2]

فمنع المرأة من الخروج إلى المسجد يكون في أحوال استثنائية، وليس الأصل، بدليل أن عائشة، رضي الله عنها، كان لها تحفظ على خروج المرأة، لما وَجدت أسباباً تستدعي التحفظ، فعنها، رضي الله عنها، قالت: (لو أَدْرَكَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ما أَحْدَثَ النِّسَاءُ، لَمَنَعَهُنَّ، كما مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قلت: لِعَمْرَةَ أو منعن. قالت: نعم).[3]

ففي الأحوال التي تراعي فيها المرأة الانضباط بقيم الإسلام وأحكامه وآدابه، فإنها تخرج

1. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة وأنها لا تخرج مطيبة.
2. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة وأنها لا تخرج مطيبة.
3. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب انتظار الناس قيام الإمام العالم.

من غير حرج إلى عملها، ودراستها، وقضاء حوائجها، وللوفاء بالتزاماتها الاجتماعية، وللمشاركة في المواقف العامة سياسية وغيرها، وهذا ما كانت عليه النساء في أطهر العصور، وأكثرها التصاقاً بعهد النبوة، ومن بعده عصر الصحابة الأخيار، وعلى هذا فمن باب أولى إفساح المجال لها للخروج إلى المسجد للصلاة، وللمشاركة في تلقي التوعية الدينية، أو أدائها لغيرها من النساء، إن كانت مؤهلة لذلك، ومن المسلّمات الشرعية أن يشترط لخروج المرأة من بيتها لأي غرض مشروع أن تتقيد بأحكام الشرع الخاصة باللباس، والحشمة، والامتناع عن الخلوة المحظورة بالرجال الأجانب، والامتناع عن السفر بغير محرم أو زوج، والتقيد بآداب الحديث الخالي من الخنوع والخضوع بالقول، وغير ذلك من الآداب والقيم التي ينبغي الأخذ بها، والعمل إلى جانب فتح المجال الرحب للمرأة لتكون فاعلة في مجتمعها والدعوة لدينها، حيث تتكامل أدوار الرجال والنساء في السعي لتحقيق الأهداف النبيلة لأفرادهم وأسرهم ومجتمعهم ودينهم ووطنهم، ونكون بذلك متكاملين لا متضادين، منسجمين لا متنافرين.

هدانا الله تعالى رجالاً ونساء للعمل بما يحبه ويرضاه، على سنة نبينا، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
أمره ربه أن يصلي إليه وينحر ووعده الكوثر

في أصغر سورة قرآنية، بشر رب العزة رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، بالكوثر، وأمره بالصلاة إليه، والنحر، فقال تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ* إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ}.[1]

وعن نزول هذه السورة الكريمة، قال أَنَس: (بَيْنَا رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ذَاتَ يَوْمٍ بين أَظْهُرِنَا، إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: ما أَضْحَكَكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ، فَقَرَأَ: بِسْمَ اللهِ الرحمن الرَّحِيمَ {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ* إِنَّ شَانِئَكَ هو الأَبْتَرُ} ثُمَّ قال: أَتَدْرُونَ ما الْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: فإنه نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عز وجل، عليه خَيْرٌ كَثِيرٌ، هو حَوْضٌ تَرِدُ عليه أُمَّتِي يوم الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ منهم، فَأَقُولُ: رَبِّ إنه من أُمَّتِي، فيقول: ما تَدْرِي ما أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ).[2]

فأمة الإسلام موعودة بأن ترد على حوض النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم القيامة، وسيتخلف عن ذلك من غيّر وبدّل باتجاه الشر، والبدع، والانحراف عن صراط الله المستقيم، وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم.

نهر الكوثر:

الكوثر على وزن فوعل من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو في القدر والخطر كوثراً، واختلف فيه، والجمهور على أنه الحوض.[3]

1. الكوثر: 1 – 3.
2. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة.
3. عمدة القاري، 20/3.

ومن أحاديث صحيح البخاري التي ذكرت نهر الكوثر ووصفته، ما رواه أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، إلى السَّمَاءِ، قال: أَتَيْتُ على نَهَرٍ، حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ، مُجَوَّفًا، فقلت: ما هذا يا جِبْرِيلُ؟ قال: هذا الْكَوْثَرُ).[1]

وعن أبي عُبَيْدَةَ، عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قال: (سَأَلْتُهَا عن قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} قالت: نَهَرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ، صلى الله عليه وسلم، شَاطِئَاهُ عليه دُرٌّ مُجَوَّفٌ، آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ).[2]

وعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، أَنَّهُ قال في الْكَوْثَرِ: (هو الْخَيْرُ الذي أَعْطَاهُ الله إِيَّاهُ، قال أبو بِشْرٍ: قلت لِسَعِيدِ بن جُبَيْرٍ: فإن الناس يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهَرٌ في الْجَنَّةِ، فقال سَعِيدٌ: النَّهَرُ الذي في الْجَنَّةِ من الْخَيْرِ، الذي أَعْطَاهُ الله إياه).[3]

وفيه من حديث الإسراء والمعراج، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، خلال معراجه إلى السماء، وَجَدَ في السَّمَاءِ الدُّنْيَا آدَمَ، فقال له جِبْرِيلُ: (... هذا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمَ عليه، وَرَدَّ عليه آدَمُ، وقال: مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِابْنِي، نِعْمَ الابْنُ أنت، فإذا هو في السَّمَاءِ الدُّنْيَا، بِنَهَرَيْنِ يَطَّرِدَانِ، فقال: ما هَذَانِ النَّهَرَانِ يا جِبْرِيلُ؟ قال: هذا النِّيلُ وَالْفُرَاتُ، عُنْصُرُهُمَا، ثُمَّ مَضَى بِهِ في السَّمَاءِ، فإذا هو بِنَهَرٍ آخَرَ، عليه قَصْرٌ من لُؤْلُؤٍ، وَزَبَرْجَدٍ، فَضَرَبَ يَدَهُ، فإذا هو مِسْكٌ أَذْفَرُ، قال: ما هذا يا جِبْرِيلُ؟ قال: هذا الْكَوْثَرُ الذي خَبَأَ لك رَبُّكَ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إلى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ...)[4]

الأمر بالصلاة والنحر:

سورة الكوثر على قلة كلماتها، وصغر آياتها، إلا أنها تضمنت من البشائر ما تهنأ

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة (إنا أعطيناك الكوثر)، باب منه.
2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة (إنا أعطيناك الكوثر)، باب منه.
3. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة (إنا أعطيناك الكوثر)، باب منه.
4. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله {وكلم الله موسى تكليما} (النساء: 164).

معه النفوس، وتطيب به الخواطر، فبشرت النبي، صلى الله عليه وسلم، بالكوثر، ومن وراء ذلك كان الوعد النبوي لأمة الإسلام بلقاء الود والهناء معه على حوضه الكريم، ثم أمر الله تعالى في هذه السورة الكريمة نبيه، صلى الله عليه وسلم، بعبادتين جليلتين، هما: الصلاة، والنحر، والصلاة عمود الدين، من تركها تركه، ومن صلحت صلاته صلح سائر عمله، وهي باب واسع يفتح في اليوم مرات عديدة، لا يقل عددها عن خمس، تبدأ أولاها بالفجر، وخامسة فروضها اليومية العشاء، يناجي من يلج بابها ربه، متضرعاً، طالباً عفوه ورضاه، وتوفيقه ورعايته ومغفرته، فالصلاة بمثابة مطهر دائم من الذنوب والخطايا، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (أَرَأَيْتُمْ لو أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فيه كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، ما تَقُولُ ذلك يُبْقِي من دَرَنِهِ، قالوا: لا يُبْقِي من دَرَنِهِ شيئاً، قال: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو الله بها الْخَطَايَا).[1]

وفي بيان فضل الصلاة في حط الذنوب عن كاهل المصلي، ورفع درجاته عند ربه، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (من تَطَهَّرَ في بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إلى بَيْتٍ من بُيُوتِ اللهِ؛ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً من فَرَائِضِ اللهِ، كانت خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً).[2]

أما النحر المأمور به في سورة الكوثر، ففيه آراء عدة للمفسرين، منها خمسة أقوال؛ الأول: أنه أمره بالصلاة على الإطلاق، وبنحر الهدي والضحايا، الثاني: أنه صلى الله عليه وسلم، كان يضحي قبل صلاة العيد، فأمره أن يصلي ثم ينحر، فالمقصود على هذا تأخير نحر الأضاحي عن الصلاة، الثالث: أن الكفار يصلون مكاء وتصدية، وينحرون للأصنام، فقال الله لنبيه، صلى الله عليه وسلم: صل لربك وحده، وانحر له؛ أي لوجهه، لا

1.صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة.

2. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات.

لغيره، فهو على هذا أمر بالتوحيد والإخلاص، الرابع: أن معنى انحر: ضع يدك اليمنى على اليسرى عند صدرك في الصلاة، الخامس: أن معناه ارفع يديك عند نحرك في افتتاح الصلاة.[1]

ويرى جمهور العلماء أنه نحر الهدي والأضاحي؛ تقرباً إلى الله تعالى، فالله أتبع أمره بالصلاة الأمر بنحر الهدي والنسك والضحايا.[2]

الصلاة والنسك واشتراط الإخلاص لقبولهما:

إضافة إلى الأمر بالنحر الوارد في سورة الكوثر، فإن الله تعالى أرشد أصفياءه إلى إعلان توحيده سبحانه، وإخلاص القصد إليه، في الصلاة التي يؤدونها، والنسك الذي يتقربون به إليه سبحانه، فقال تعالى مخاطباً نبيه، صلى الله عليه وسلم: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[3]

ورد في التفسير الكبير أن الله تعالى كما عرّف نبيه، صلى الله عليه وسلم، الدين المستقيم، عرّفه كيف يقوم به ويؤديه، فقوله: { قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} يدل على أنه يؤديه مع الإخلاص، وأكده بقوله: {لاَ شَرِيكَ لَهُ} وهذا يدل على أنه لا يكفي في العبادات أن يؤتى بها، كيف كانت، بل يجب أن يؤتى بها مع تمام الإخلاص، وهذا من أقوى الدلائل على أن شرط صحة الصلاة أن يؤتى بها مقرونة بالإخلاص.

أما قوله: {وَنُسُكِي} فقيل: المراد بالنسك الذبيحة بعينها، يقول من فعل كذا فعليه نسك؛ أي دم يهريقه، وجمع بين الصلاة والذبح، كما في قوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ }، وروى

1.التسهيل لعلوم التنزيل، 4/ 220.
2. تفسير الثعالبي، 4 /446.
3. الأنعام: 162.

ثعلب عن ابن الأعرابي، أنه قال: النسك سبائك الفضة، كل سبيكة منها نسيكة، وقيل للمتعبد: ناسك؛ لأنه خلص نفسه من دنس الآثام، وصفاها، كالسبيكة المخلصة، من الخبث، وعلى هذا التأويل، فالنسك كل ما تقربت به إلى الله تعالى، إلا أن الغالب عليه في العرف الذبح.(*)

مما سبق يظهر بجلاء أن الصلاة والنسك من أبرز العبادات التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، فهنيئاً لحجاج بيت الله الحرام الذين يؤدون المناسك في هذه الأثناء صلاة وطوافاً وسعياً ودعاء، في طريقهم لذبح النسك أو نحره يوم العاشر من ذي الحجة وما يليه من أيام التشريق، على سنة نبيهم، صلى الله عليه وسلم، وفي بقية أصقاع الدنيا، يشارك المسلمون إخوانهم الحجاج يوم الأضحى وأيام التشريق التي تليه، أداء نسك النحر والذبح، فهؤلاء يؤدونه هدياً بالغ الكعبة، وأولئك يؤدونه تضحية حيث يسكنون ويقيمون وأهليهم، سائلين الله تعالى أن يتقبل من جميعهم حجاجاً ومضحين، وأن يكفر عنهم ذنوبهم، وأن ينصر إسلامهم، ويحمي مقدساتهم، ومسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* التفسير الكبير 14 /10.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
ينهى عن صيام الدهر ويعد بثوابه

عن أبي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم: (...سُئِلَ عن صِيَامِ الدَّهْرِ؟ فقال: لَا صَامَ، ولا أَفْطَرَ، أو ما صَامَ وما أَفْطَرَ، قال: فَسُئِلَ عن صَوْمِ يَوْمَيْنِ وَإِفْطَارِ يَوْمٍ؟ قال: وَمَنْ يُطِيقُ ذلك؟ قال: وَسُئِلَ عن صَوْمِ يَوْمٍ وَإِفْطَارِ يَوْمَيْنِ؟ قال: لَيْتَ أَنَّ اللهَ قَوَّانَا لِذَلِكَ، قال: وَسُئِلَ عن صَوْمِ يَوْمٍ وَإِفْطَارِ يَوْمٍ؟ قال: ذَاكَ صَوْمُ أَخِي دَاوُدَ، عليه السَّلَام، قال: وَسُئِلَ عن صَوْمِ يَوْمِ الإثنين؟ قال: ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فيه، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ، أو أُنْزِلَ عَلَيَّ فيه، قال: فقال: صَوْمُ ثَلَاثَةٍ من كل شَهْرٍ، وَرَمَضَانَ إلى رَمَضَانَ، صَوْمُ الدَّهْرِ، قال: وَسُئِلَ عن صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ، فقال: يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ، قال: وَسُئِلَ عن صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، فقال: يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ).(*)

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، من خلال إجاباته الواردة في هذا الحديث عن أسئلة خاصة ببعض مناسبات الصوم، بين بوضوح لا لبس فيه، مشروعية صيام بعضها، مثل: رمضان، وثلاثة أيام من الشهر، وصوم يوم عرفة، وعاشوراء، ومدح صوم يوم وإفطار يوم، وصوم يوم الإثنين من الأسبوع، لكنه تحفظ على صيام يومين وإفطار يوم، وتمنى لو أن الله تعالى يقوي أجسادنا لتطيق صوم يوم وإفطار يومين، وبين عليه الصلاة والسلام، فضل صيام ثلاثة أيام من الشهر، وصيام رمضان، موضحاً أنه يعدل صوم الدهر، وبين كذلك أن صوم يوم عرفة يكفر ذنوب الصائم عن السنتين الماضية والباقية، وأن صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب السنة الماضية.

* صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس.

الرفق بالعابدين وقليل من العبادة دائم خير من كثير منقطع:

ورد في شرح النووي على صحيح مسلم، أن حاصل الحديث المذكور أعلاه بيان رفق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بأمته، وشفقته عليهم، وإرشادهم إلى مصالحهم، وحثهم على ما يطيقون الدوام عليه، ونهيهم عن التعمق، والإكثار من العبادات التي يخاف عليهم الملل بسببها، أو تركها، أو ترك بعضها.[1]

وفي الحديث عن عَائِشَةَ أنها قالت: (كان لِرَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، حَصِيرٌ، وكان يُحَجِّرُهُ من اللَّيْلِ، فَيُصَلِّي فيه، فَجَعَلَ الناس يُصَلُّونَ بِصَلاتِهِ، وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ، فَثَابُوا ذَاتَ لَيْلَةٍ، فقال: يا أَيُّهَا الناس؛ عَلَيْكُمْ من الْأَعْمَالِ ما تُطِيقُونَ، فإن اللهَ لَا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إلى اللهِ ما دُووِمَ عليه، وَإِنْ قَلَّ، وكان آلُ مُحَمَّدٍ، صلى الله عليه وسلم، إذا عَمِلُوا عَمَلًا أَثْبَتُوهُ).[2]

وعن عَبْد الله بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، قال: (قال لي النبي، صلى الله عليه وسلم: أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ ؟ قلت: إني أَفْعَلُ ذلك، قال: فَإِنَّكَ إذا فَعَلْتَ ذلك، هَجَمَتْ عَيْنُكَ، وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ). [3]

تفسير المراد من النهي عن صيام الدهر:

جاء في شرح النووي على صحيح مسلم، أن العلماء اختلفوا في تفسير المراد من النهي عن صيام الدهر، فذهب أهل الظاهر إلى منع صيام الدهر؛ نظراً لظواهر هذه الأحاديث، قال القاضي وغيره، وذهب جماهير العلماء إلى جوازه، إذا لم يصم الأيام المنهى

1. صحيح مسلم بشرح النووي، 8 /39 - 40.
2. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره.
3. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه.

عنها، وهي العيدان والتشريق، ومذهب الشافعي وأصحابه أن سرد الصيام إذا أفطر العيدين والتشريق لا كراهة فيه، بل هو مستحب بشرط أن لا يلحقه به ضرر، ولا يفوت حقاً، فإن تضرر، أو فوت حقاً فمكروه، واستدلوا بحديث حمزة بن عمرو الأَسْلَمِيَّ الذي سَأَلَ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا رَسُولَ اللهِ؛ إني رَجُلٌ أَسْرُدُ الصَّوْمَ، أَفَأَصُومُ في السَّفَرِ؟ قال: صُمْ إن شِئْتَ، وَأَفْطِرْ إن شِئْتَ). [1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، ترك الخيار لسارد الصوم؛ أي الذي يواصل الصوم، في أن يصوم أو يفطر في السفر، دون أن يمنعه من السرد، ولو كان مكروهاً، لم يقره لا سيما في السفر.

وأجابوا عن حديث لا صام من صام الأبد، بأجوبة، أحدها أنه محمول على حقيقته، بأن يصوم معه العيدين والتشريق، والثاني أنه محمول على من تضرر به أو فوت به حقاً، ويؤيده أن النهي كان خطاباً لعبد الله بن عمرو بن العاص، وقد ذكر مسلم عنه أنه عجز في آخر عمره، وندم على كونه لم يقبل الرخصة، قالوا، فنهى ابن عمر، وكان لعلمه بأنه سيعجز، وأقر حمزة بن عمرو لعلمه بقدرته بلا ضرر، والثالث أن معنى لا صام أنه لا يجد من مشقته ما يجدها غيره، فيكون خبراً لا دعاءً.[2]

صيام ثلاثة أيام من الشهر مثل صيام الدهر:

عن عَبْد الله بن عَمْرِو بن الْعَاصِ، قال: (أُخْبِرَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ يقول: لَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ، وَلَأَصُومَنَّ النَّهَارَ ما عِشْتُ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: أنت الذي تَقُولُ ذلك؟ فقلت له: قد قُلْتُهُ يا رَسُولَ اللهِ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر.
2. صحيح مسلم بشرح النووي، 8 /39 - 40.

وسلم: فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذلك، فَصُمْ، وَأَفْطِرْ، وَنَمْ، وَقُمْ، وَصُمْ من الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فإن الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ، قال قلت: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ من ذلك، قال: صُمْ يَوْمًا، وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ، قال: قلت: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ من ذلك يا رَسُولَ اللهِ، قال: صُمْ يَوْمًا، وَأَفْطِرْ يَوْمًا، وَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ، عليه السَّلام، وهو أَعْدَلُ الصِّيَامِ، قال: قلت، فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ من ذلك، قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: لَا أَفْضَلَ من ذلك، قال عبد اللهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما: لَأَنْ أَكُونَ قَبِلْتُ الثَّلَاثَةَ الْأَيَّامَ، التي قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَحَبُّ إليّ من أَهْلِي وَمَالِي).[1]

وجاء في فتح الباري أن قوله: (فَإِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذلك) يحتمل أن يريد به الحالة الراهنة لما علمه النبي، صلى الله عليه وسلم، من أنه يتكلف ذلك، ويدخل به على نفسه المشقة، ويفوت به ما هو أهم من ذلك، ويحتمل أن يريد به ما سيأتي بعد إذا كبر وعجز، كما اتفق له سواء، وكره أن يوظف على نفسه شيئاً من العبادة، ثم يعجز عنه، فيتركه لما تقرر من ذم من فعل ذلك، قوله (وصم من الشهر ثلاثة أيام) بعد قوله: (فصم وأفطر) بيان لما أجمل من ذلك، وتقرير له على ظاهره، إذ الإطلاق، يقتضى المساواة قوله مثل صيام الدهر، يقتضي أن المثلية لا تستلزم التساوي من كل جهة؛ لأن المراد به هنا أصل التضعيف، دون التضعيف الحاصل من الفعل، ولكن يصدق على فاعل ذلك، أنه صام الدهر مجازاً قوله بعد ذكر صيام داود، لا أفضل من ذلك ليس فيه، نفى المساواة صريحاً.[2]

صيام رمضان وست من شوال كصيام الدهر:

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِي، رضى الله عنه، أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، أو فوت به حقاً، أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم.
2. فتح الباري، 4 /220.

وسلم، قَالَ: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ).(*)

فمن صام شهراً مكوناً من ثلاثين يوماً، يضاعف أجره على أقل تقدير إلى عشرة أضعاف، فتكون المحصلة كأنه صام ثلاثمائة يوم، فإذا ما أتبع ذلك صوم ست أيام من شوال، فيضيف ستين يوماً أخرى، بناء على مبدأ مضاعفة أجر الحسنات، وإذا ما أضيفت الستون إلى الثلاثمائة السابقة، يكون حاصل الجمع ثلاثمائة وستين يوماً، وذلك يقارب عدد أيام العام، وبالتالي يكون من صام رمضان وستاً من شوال، كأنما صام الدهر.

أعاننا الله على حسن طاعته وعبادته، وتقبلهما منا، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال اتباعا لرمضان.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
هديه في صيام شعبان

شهر شعبان من الشهور التي كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يكثر الصيام فيها، فقد روت عائشة، أم المؤمنين، رضي الله عنها، قالت: (كَانَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم، يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ لا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ لا يَصُومُ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلا رَمَضَانَ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَامًا فِي شَعْبَانَ)[1]، وفي رواية: (كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ، كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلّا قَلِيلا)[2]

وفي هذه الأحاديث ما يشير إلى هدي النبي، صلى الله عليه وسلم، في شهر شعبان، فهو لم يستكمل صيام الشهر، وإنما كان يصوم أكثره، فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: (مَا عَلِمْتُهُ صَامَ شَهْرًا كُلَّهُ، إِلا رَمَضَانَ، وَلا أَفْطَرَهُ كُلَّهُ حَتَّى يَصُومَ مِنْهُ حَتى مَضَى لِسَبِيلِه)[3]، وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (مَا صَامَ النبي، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شَهْرًا كَامِلاً غَيْرَ رَمَضَانَ...).[4]

لقد أولى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صيام شهر شعبان قدراً كبيراً من اهتمامه وعنايته به، فعن أسامة بن زيد، رضي الله عنهما، قال: (...لَمْ أَرَكَ تَصُومُ مِنْ شَهْرٍ مِنْ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ، قَالَ: ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ يُرْفَعُ فِيهِ الأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي، وَأَنَا صَائِمٌ)[5].

1. صحيح مسلم ، كتاب الصيام، باب صيام النبي صلى الله عليه وسلم في غير رمضان.
2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب صيام النبي صلى الله عليه وسلم في غير رمضان.
3. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب صيام النبي، صلى الله عليه وسلم، في غير رمضان.
4. سنن الدارمي، كتاب الصوم، باب في صيام النبي، صلى الله عليه وسلم.
5. مسند أحمد، مسند الأنصار، رضي الله عنهم، حديث أسامة بن زيد حب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

واضح من فعل النبي، عليه الصلاة والسلام، وقوله أنه كان يكثر الصيام في شهر شعبان، وعلل ذلك بأن هذا الشهر، الذي يقع بين رجب الفرد، الشهر الحرام، وبين شهر رمضان، شهر يغفل الناس فيه عن التطوع، فأراد النبي، عليه الصلاة والسلام، أن يبين للأمة أهمية التطوع في هذا الشهر، كما أنه شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وأحب النبي، صلى الله عليه وسلم، أن يرتفع عمله وهو صائم، قال ابن رجب رحمه الله: (صيام شعبان أفضل من صيام الأشهر الحرم، وأفضل التطوع ما كان قريب من رمضان قبله وبعده، وتكون منزلته من الصيام بمنزلة السنن الرواتب مع الفرائض قبلها وبعدها، وهي تكملة لنقص الفرائض، وكذلك صيام ما قبل رمضان وبعده، فكما أن السنن الرواتب أفضل من التطوع المطلق بالصلاة، فكذلك يكون صيام ما قبل رمضان وبعده أفضل من صيام ما بَعُد عنه)، ولما كان شهر شعبان واقعاً بين الشهر الحرام وشهر الصيام، وهما شهران عظيمان، أحدهما شهر الحرام، وثانيهما شهر الصيام، وهو محل أداء فريضة الصيام، فينشغل الناس بينهما عن شهر شعبان، صار مغفولاً عنه، ويظن الناس أن صيام رجب أفضل من صيام شعبان؛ لأن رجب شهر حرام، والأمر ليس كذلك، فقد يبدو أن زماناً يشتهر بالفضل، ويكون غيره أفضل منه.

وفي هدي النبي، صلى الله عليه وسلم، ما يشير إلى استحباب عمارة أوقات غفلة الناس بالطاعة، وقد حافظ فريق من السلف الصالح على إحياء ما بين العشائين بالصلاة، ويقولون هي ساعة غفلة، كما رغب العلماء في استحباب ذكر الله تعالى في السوق؛ لأنه ذكر في موطن الغفلة، وفي إحياء الأوقات المغفول عنها بالطاعة فوائد جليلة، منها:

1. أن يكون أخفى للعمل، وإخفاء النوافل وإسرارها أفضل، لا سيما الصيام، فإن الصيام سر بين العبد وربه، ولهذا كان أبعد العبادات عن الرياء، وقد كان بعض السلف

الصالح يصوم سنين عديدة لا يعلم به أحد.

2. العمل الصالح في أوقات الغفلة أشق على النفوس، ومن أسباب أفضلية الأعمال مشقتها على النفوس، فالعمل إذا كثر المشاركون فيه سهل على النفوس، وإذا كثرت الغفلات شق ذلك على المتيقظين العاملين في وقت غفل الناس عنه، فالعمل في أوقات الغفلة، أو الفتنة، هو عمل مغاير لما عليه الناس، وفي ذلك ما فيه من المشقة على النفس.

وللعلماء في كثرة صيام النبي، صلى الله عليه وسلم في شعبان أقوال، منها:

* أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان إذا فاته صيام ثلاثة أيام من كل شهر لشغل، أو سفر، أو غيره، يقضيها في شعبان؛ لأنه عليه الصلاة والسلام، كان إذا عمل بنافلة أثبتها، وإذا فاتته قضاها.

* أن نساءه كن يقضين ما عليهن من رمضان في شعبان.

* أنه شهر يغفل الناس عنه، وهو أرجح الأقوال لحديث أسامة، رضي الله عنه: (ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ)(*)

وكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل شهر شعبان، وعليه بقية من صيام التطوع قضاه في شهر شعبان، حتى يستكمل نوافله من الصوم قبل دخول رمضان.

كما أن صيام شعبان كالتمرين على صيام رمضان، لئلا يدخل في صوم رمضان على مشقة وكلفة، بل يكون قد تمرن على الصيام واعتاده، فيدخل في شهر الصيام بقوة ونشاط، كما اعتنى كثير من السلف الصالح بإحياء شهر شعبان بقراءة القرآن، ولذا كان يقال عن شهر شعبان، شهر القرّاء.

---

* مسند أحمد، مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث أسامة بن زيد حب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

أما الصيام في أواخر شهر شعبان، فقد نهى عنه النبي، صلى الله عليه وسلم، فيما رواه أبو هريرة، رضي الله عنه، في صحيح مسلم، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تَقَدَّمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلا يَوْمَيْنِ، إِلا رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْمًا فَلْيَصُمْهُ).[1]

وهذا ما رجحه جمهور العلماء، وهو كراهية التقدم قبل رمضان بالتطوع، بصوم يوم أو يومين، لمن ليس له عبادة صوم.

وذلك لئلا يزاد في صيام رمضان ما ليس منه، وهو رديف نهي النبي، عليه الصلاة والسلام، عن صيام يوم العيد، وحتى لا يزاد في الدين ما ليس منه، ولعل النهي عن صوم يوم الشك، يأتي في هذا السياق، فقد روي عن عمار، رضي الله عنه، قال عن صيام يوم الشك: (مَنْ صَامَ هَذَا الْيَوْمَ، فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمَ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[2]

هذا هو هدي النبي الأسوة، صلى الله عليه وسلم، في صيام شعبان،نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المهتدين بهديه، والسائرين على سنته، والمحيين لها عند فساد الناس، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1.صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين.

2. سنن أبي داود، كتاب الصوم، باب كراهية صيام يوم الشك، وصححه الألباني.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
واستقبال رمضان بالإيمان والاحتساب

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وَمَنْ قام لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[1]

الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث يشترط الإيمان والاحتساب لانتفاع الصائم بثمرات الصيام، وأعظمها نيل المغفرة على ما قدم من ذنب، والمراد بالإيمان: الاعتقاد بحق فرضية الصوم، والاحتساب: طلب الثواب من الله تعالى، وقال الخطابي: احتساباً أي عزيمة، وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه، طيبة نفسه بذلك، غير مستثقل لصيامه، ولا مستطيل لأيامه.[2]

وعطف قوله نية على قوله احتساباً؛ لأن الصوم إنما يكون لأجل التقرب إلى الله، والنية شرط في وقوعه قربة.[3]

التحضير لاستقبال شهر رمضان:

بضع أيام ويهل على مسلمي المعمورة شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وفرض الله تعالى على المسلمين فيه أداء ركن من أركان الإسلام الرئيسة، وهو الصيام، فقال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ

1. صحيح البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب فضل ليلة القدر.
2. فتح الباري، 4/ 115.
3. فتح الباري، 4/ 115.

الله بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ الله عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[1]

والمسلمون يستعدون لاستقبال هذا الشهر بأرواحهم وأجسادهم ومشاعرهم وواقع حياتهم، في مساجدهم وبيوتهم وأسواقهم وأماكن أعمالهم، ومن أهم ما يفترض فيهم أن يعتنوا به خلال استعدادهم لاستقبال هذا الشهر الفضيل أن يروضوا قلوبهم لإخلاص التوجه إلى الله تعالى بالصيام، والقيام، ليفوزوا بالعتق من النار، وينالوا جائزة دخول الجنة من باب الريان، الذي خصصه الله للصائمين، مصداقاً لقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ في الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ له الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ منه الصَّائِمُونَ يوم الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فإذا دَخَلُوا أُغْلِقَ فلم يَدْخُلْ منه أَحَدٌ).[2]

فحري بالمسلم وهو يترقب حلول شهر رمضان أن لا يقلق أو يتخوف من شدة الحر، أو غلاء الأسعار، أو الانشغال بالتحضير للولائم، وشراء ما لذ وطاب من أنواع الطعام والشراب، وإنما ينبغي له أن يتهيأ للصيام، واستقبال شهر رمضان من خلال السعي الحثيث لسلوك سبل قبول الصيام منه، وعلى رأس ذلك العمل على إخلاص النية لله به، وذلك أمر يحتاج إلى دربة وسعي من الشخص نفسه، فعن الفضل بن زياد، قال: (سألت أبا عبد الله -يعني أحمد - عن النية في العمل، قلت: كيف النية؟ قال: يعالج نفسه إذا أراد عملاً لا يريد به الناس).[3]

---

1. البقرة: 185.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.
3. جامع العلوم والحكم، 1 /10.

أهمية الإخلاص لقبول الأعمال ونيل الثواب عليها:

الله سبحانه وتعالى أمر بإخلاص الدين له، فقال جل شأنه: {فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}[1]، والمراد بالإخلاص هنا التوحيد، وترك الشرك، أو ترك الرياء، وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال، وترك الإخلاص في التوحيد هو الشرك الجلي، وترك الإخلاص في الأعمال هو الشرك الخفي، وهو الرياء.[2]

وفي الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، (قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عن الشِّرْكِ، من عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيه مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ).[3]

ومن أهمية النية، أن بها يفرق بين العادة والعبادة، فظروف بعض الناس تجعلهم أحياناً يمسكون عن الأكل أو الشرب ساعات النهار، بسبب حمية غذائية، أو لانشغال عن الطعام والشراب، أو بسبب عزوف نفسي عنهما، أو غير ذلك من صور الإمساك عن الطعام والشراب، وكل هذا الإمساك لا يعد صوماً مقبولاً إلا إذا اقترن بنية التقرب إلى الله تعالى، التي هي أساس العبادة، ومن أبرز شروط قبولها، فعن عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، قال: (سمعت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: إنما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أو إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه)[4]. فمثل الصيام الهجرة، فإنها لا تقبل إلا أن يكون الباعث إليها الاستجابة لأمر الله تعالى وأمر رسوله، صلى الله عليه وسلم، وفي حال قام المرء بها ولم تكن نيته

---

1. غافر: 14.
2. التسهيل لعلوم التنزيل، 4 /212.
3. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله.
4. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

تنفيذ هذه الاستجابة، وإنما كان باعثه إليها تحقيق مصلحة ما، فإنه لا يعتبر مقبول الهجرة، على الرغم من قيامه بشكلها وصورتها، حيث قول الرسول، صلى الله عليه وسلم، واضح في ذلك: (فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه).

وأمور العبادة وغيرها من الأعمال التي يسعى المرء إلى اكتساب الأجر والثواب جزاء على فعلها، يلزمها إخلاص النية لله، إضافة إلى الانطلاق بها من إيمان بالله ودينه، ومن العبادات التي نص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على اشتراط الإيمان والاحتساب لمنح صاحبها المثوبة والجزاء، مثلما اشترط للصيام، صلاة الجنازة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (من اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وكان معه حتى يصلي عليها، وَيَفْرُغَ من دَفْنِهَا، فَإِنَّه يَرْجِعُ من الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ؛ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صلى عليها، ثُمَّ رَجَعَ قبل أَنْ تُدْفَنَ، فإنه يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ).[1]

والرسول، صلى الله عليه وسلم، حين سئل عن المجاهد في سبيل الله، ربط الجهاد المقبول بالنية الباعثة إليه، فعن أبي مُوسَى، رضي الله عنه، قال: (جاء رَجُلٌ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ في سَبِيلِ الله؟ قال: من قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ في سَبِيلِ الله).[2]

خطورة اضطراب النوايا والمقاصد:

من خطورة أداء العبادة دون قصد سليم لله تعالى، أو دون إخلاص النية لله تعالى كما ينبغي، أن صاحبها مع هذا الخلل الفظيع يعرض نفسه لأشد عقاب، إضافة إلى خسارة أجرها وثوابها الموعودين، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، أخبر عن أصناف من الناس

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب اتباع الجنائز من الإيمان.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

أدوا أعمالاً في حياتهم الدنيا ظاهرها يبدو صالحاً وحسناً، ويندرج ضمن الطاعات، لكن أصحاب تلك الأعمال مصيرهم نار جهنم؛ لأنهم توهموا أنهم يفعلون خيراً، وعند الحساب وفرز الأعمال حبطت أعمالهم؛ لأنهم ابتغوا بها غير وجه الله، فعن رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّ أَوَّلَ الناس يُقْضَى يوم الْقِيَامَةِ عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: قَاتَلْتُ فِيكَ حتى اسْتُشْهِدْتُ، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها، قال: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ، لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هو قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عليه، وَأَعْطَاهُ من أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تَرَكْتُ من سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فيها إلا أَنْفَقْتُ فيها لك، قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هو جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّارِ).(*)

سائلين الله العلي القدير أن يوفقنا لصيام شهر رمضان، وقيام لياليه بإخلاص وصدق، ليتقبلهما منا، ويجزينا عنهما خير الجزاء، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يبين حكم الصيام وفضله وأهميته

عن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (بُنِيَ الإِسْلامُ على خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ).[1]

الصوم ركن من أركان الإسلام الخمسة، فهو بهذا ذو شأن عظيم، ومكانة عالية في دين الله، من دلالاتها أن به تعتق رقاب الصائمين من النار، بعد نيلهم مغفرة الرحمن، شريطة أن يكون صيامهم قد انطلق من إيمان واحتساب، فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قام لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[2]

وصوم رمضان فرض على المسلم البالغ العاقل، ويباح للمسافر أن يفطر ثم يقضي لاحقاً، لقوله تعالى: {أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}.[3]

قال ابن عَبَّاسٍ: (لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ، هو الشَّيْخُ الْكَبِيرُ، وَالْمَرْأَةُ الْكَبِيرَةُ، لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا، فَيُطْعِمَانِ مَكَانَ كل يَوْمٍ مِسْكِينًا).[4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي، صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية.
3. البقرة: 184.
4. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب قوله: {أياما معدودات فمن كان منكم مريضا} (البقرة: 184) .

فالمريض الذي يتضرر من الصيام يفطر ويقضي، إلا إذا كان مرضه مزمناً، لا يرجى له شفاء، فيكون مثل الشيخ الطاعن في السن، الذي لا يقوى على الصيام، يخرج فدية عن كل يوم يفطره في رمضان، تقدر قيمتها حسب حال المرء من العسر واليسار، على أن لا تقل قيمتها عن مقدار صدقة الفطر.

والحائض والنفساء تفطران، ويلزمهما القضاء، فعن مُعَاذَةَ قالت: (سَأَلْتُ عَائِشَةَ، فقلت: ما بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ ولا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ فقالت: أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟ قلت: لَسْتُ بِحَرُورِيَّةٍ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُ؟ قالت: كان يُصِيبُنَا ذلك، فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، ولا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ).[1]

وقضاء الصوم الفائت يكون في أيام العام كلها، عدا أيام شهر رمضان؛ لأنها مشغولة بصيامه، وكذلك لا يقضى في أيام عيدي الفطر والأضحى، فعن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، رضي الله عنه، وكان غَزَا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، اثنتي عَشْرَةَ غَزْوَةً، قال: (سمعت أَرْبَعًا من النبي، صلى الله عليه وسلم، فَأَعْجَبْنَنِي، قال: لَا تُسَافِرُ الْمَرْأَةُ مَسِيرَةَ يَوْمَيْنِ إلا وَمَعَهَا زَوْجُهَا أو ذُو مَحْرَمٍ، ولا صَوْمَ في يَوْمَيْنِ؛ الْفِطْرِ وَالأَضْحَى...).[2]

من لم يصم إلا شهر رمضان:

عن طَلْحَةَ بن عُبَيْدِ الله، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جاء إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثَائِرَ الرَّأْسِ، فقال: (يا رَسُولَ الله؛ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ الله عَلَيَّ من الصَّلَاةِ؟ فقال: الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، إلا أَنْ تَطَّوَّعَ شيئاً، فقال: أَخْبِرْنِي بما فَرَضَ الله عَلَيَّ من الصِّيَامِ؟ فقال: شَهْرَ رَمَضَانَ إلا أَنْ تَطَّوَّعَ شيئاً، فقال: أَخْبِرْنِي ما فَرَضَ الله عَلَيَّ من الزَّكَاةِ، فقال: فَأَخْبَرَهُ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شَرَائِعَ الإِسْلَامِ، قال: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لا أَتَطَوَّعُ شيئاً،

1. صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم النحر.

ولا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ الله عَلَيَّ شيئاً، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أَفْلَحَ إن صَدَقَ، أو دخل الْجَنَّةَ إن صَدَقَ).[1]

فلو اقتصر المسلم في الصيام على شهر رمضان، فأدى الصيام على الوجه المشروع فله ذلك، ويكون مرشحاً لنيل مغفرة ذنوبه، والحصول على ثواب الله تعالى وفضله، وهذا لا يعني التقليل من فضل صوم النافلة والتطوع.

الصِّيَامُ جُنَّةٌ:

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فلا يَرْفُثْ، ولا يَجْهَلْ، وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ، أو شَاتَمَهُ، فَلْيَقُلْ: إني صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ، وَالَّذِي نَفْسِي بيده، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ الله تَعَالَى من رِيحِ الْمِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ من أَجْلِي، الصِّيَامُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا).[2]

وفي عمدة القاري أن قوله: (جُنَّةٌ) بضم الجيم كل ما ستر، ومنه المجن وهو الترس، ومنه سمي الجن لاستتارهم عن العيون، وإنما كان الصوم جنة من النار؛ لأنه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بالشهوات كما في الحديث الصحيح، حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، وقال ابن الأثير: معنى كونه جنة؛ أي يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات، وقال عياض: معناه يستر من الآثام، أو من النار، أو بجميع ذلك.

قوله: (فلا يَرْفُثْ) بفتح الفاء وكسرها وضمها، معناه لا يفحش، والمراد من الرفث هنا الكلام الفاحش، ويطلق على الجماع، وعلى مقدماته، وعلى ذكره مع النساء، ويحتمل أن يكون النهي عما هو أعم منها.

قوله: (ولا يَجْهَلْ)؛ أي لا يفعل شيئاً من أفعال الجاهلية، كالسفه، والسخرية، وقال

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب وجوب صوم رمضان.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم.

القرطبي: لا يفهم من هذا أن غير أوقات الصوم يباح فيها ما ذكر، وإنما المراد أن المنع من ذلك يتأكد بالصوم. قوله: (وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ)؛ أي نازعه ودافعه، وقوله: (أو شَاتَمَهُ)؛ أي أو تعرض للمشاتمة. وقوله: (فَلْيَقُلْ: إني صَائِمٌ)؛ أي أن يقول ذلك بلسانه: إني صائم، حتى يعلم من يجهل أنه معتصم بالصيام عن اللغو، والرفث، والجهل، أو أن يقول ذلك لنفسه؛ أي وإذا كنت صائماً، فلا ينبغي أن أخدش صومي بالجهل ونحوه، فيزجر نفسه بذلك، وكل أحد منهي عن الرفث والجهل، والمخاصمة لكن النهي في الصائم آكد.

وقوله: (لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ) بضم الخاء وقيل بفتحها، وهو تغير طعم الفم وريحه لتأخر الطعام، وقد جرت العادة على التقرب للروائح الطيبة، فاستعير ذلك في الصوم لتقريبه من الله تعالى، وقال عياض: يجازيه الله تعالى به في الآخرة، فتكون نكهته أطيب من ريح المسك، وقيل: لكثرة ثوابه وأجره، وقيل: يعبق في الآخرة أطيب من عبق المسك، وقيل: طيبه عند الله رضاه به، وثناؤه الجميل وثوابه، وقيل: إن المراد أن ذلك في حق الملائكة، وأنهم يستطيبون ريح الخلوف أكثر مما يستطيبون ريح المسك، وقال البغوي: معناه الثناء على الصائم، والرضا بفعله.[1]

قول رمضان أو شهر رمضان:

يتساءل بعض الناس عن حكم ذكر رمضان دون إضافته إلى لفظ الشهر، هل يجوز ذلك؟ أم ينبغي أن يذكر مضافاً إليه، بأن يقال: (شهر رمضان)؟ البخاري صنف باباً في صحيحه أطلق عليه: بَاب هل يُقَالُ رَمَضَانُ أو شَهْرُ رَمَضَانَ، وَمَنْ رَأَى كُلَّهُ وَاسِعًا، وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (من صَامَ رَمَضَانَ، وقال: لا تَقَدَّمُوا رَمَضَانَ)[2]، ويرى ابن

1. عمدة القاري، 10 /257 - 258.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان ومن رأى كله واسعاً.

حجر العسقلاني أنه يجوز أن يقال رمضان من غير إضافة.[1]

فيجوز القول رمضان، كما يجوز القول شهر رمضان، وبالأمرين وردت روايات صحيحة، فعن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل شَهْرُ رَمَضَانَ، فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ).[2]

وفي ذكره دونها وردت روايات صحيحة، منها قوله صلى الله عليه وسلم:(إذا جاء رَمَضَانُ...)[3]، وقوله: (إذا دخل رَمَضَانُ...).[4]

وفي هذا دليل لصحة ما ذهب إليه البخاري والمحققون أنه يجوز أن يقال رمضان من غير ذكر الشهر بلا كراهة.[5]

سائلين الله العلي القدير أن ييسر لنا الهداية إلى السداد في القول والعمل، وأن يعيننا على صيام هذا الشهر المبارك، وأن يتقبله منا، ومن الصائمين والصائمات، القانتين والقانتات، الذاكرين الله والذاكرات، وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة محمد، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. فتح الباري، 1/ 31.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان ومن رأى كله واسعاً.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان ومن رأى كله واسعاً.
4. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.
5. صحيح مسلم بشرح النووي، 7/ 187

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يخبر عن فتح أبواب الجنة وغلق أبواب النار في رمضان

قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل رَمَضَانُ، فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ).[1]

من فضائل الصيام أن الله تعالى يفتح لعباده المتقين أبواب رحمته في شهر الصيام، ويبعد عنهم العقاب، ويحجز عنهم الشياطين، ورد في حاشية السندي على سنن النسائي، أن معنى قوله: (فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ)؛ أي تقريباً للرحمة إلى العباد، ولهذا جاء في بعض الروايات أبواب الرحمة، وفي بعضها أبواب السماء، وهذا يدل على أن أبواب الجنة كانت مغلقة، ولا ينافيه قوله تعالى: {جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ} إذ ذلك لا يقتضي دوام كونها مفتحة.

وقوله: (وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ)؛ أي تبعيداً للعقاب عن العباد، وهذا يقتضي أن أبواب النار كانت مفتوحة، ولا ينافيه قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} لجواز أن يكون هناك غلق قبيل ذلك، وغلق أبواب النار لا ينافي موت الكفرة في رمضان، وتعذيبهم بالنار فيه، إذ يكفي في تعذيبهم فتح باب صغير من القبر إلى النار، غير الأبواب المعهودة.

(وصفدت الشياطين)؛ أي شددت، وأوثقت بالأغلال، وفي رواية (وسلسلت)، وهو بمعناه، ولا ينافيه وقوع المعاصي، إذ لا يلزم أن تكون كل معصية بوساطة شيطان، وإلا لكان لكل شيطان شيطان ويتسلسل.[2]

1. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.
2. حاشية السندي على سنن النسائي، 4/ 126.

ويعلل ابن تيمية فتح أبواب الجنة، وغلق أبواب النار، وتصفيد الشياطين في رمضان؛ لأنه في شهر رمضان تنبعث القلوب إلى الخير والأعمال الصالحة، التي بها وبسببها تفتح أبواب الجنة، ويمتنع من الشرور التي بها تفتح أبواب النار، وتصفد الشياطين، فلا يتمكنون أن يعملوا ما يعملونه في الإفطار، فإن المصفد هو المقيد؛ لأنهم إنما يتمكنون من بني آدم بسبب الشهوات، فإذا كفوا عن الشهوات، صفدت الشياطين.[1]

وورد في فتح الباري، أنه يحتمل أن يكون المراد من الشياطين مسترقي السمع منهم، وأن تسلسلهم يقع في ليالي رمضان دون أيامه؛ لأنهم كانوا منعوا في زمن نزول القرآن من استراق السمع، فزيدوا التسلسل مبالغة في الحفظ، ويحتمل أن يكون المراد أن الشياطين لا يخلصون من افتتان المسلمين إلى ما يخلصون إليه في غيره؛ لاشتغالهم بالصيام الذي فيه قمع الشهوات، وبقراءة القرآن والذكر، وقال غيره: المراد بالشياطين بعضهم، وهم المردة منهم.

وقال القرطبي بعد أن رجح حمله على ظاهره: فإن قيل كيف نرى الشرور والمعاصي واقعة في رمضان كثيراً، فلو صفدت الشياطين لم يقع ذلك، فالجواب أنها إنما تقل عن الصائمين الصوم الذي حوفظ على شروطه، وروعيت آدابه، أو المصفد بعض الشياطين، وهم المردة لا كلهم، كما تقدم في بعض الروايات، أو المقصود تقليل الشرور فيه، وهذا أمر محسوس، فإن وقوع ذلك فيه أقل من غيره، إذ لا يلزم من تصفيد جميعهم، أن لا يقع شر، ولا معصية؛ لأن لذلك أسباباً غير الشياطين، كالنفوس الخبيثة، والعادات القبيحة، والشياطين الإنسية.[2]

---

1. كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير، 14 /167.
2. فتح الباري، 4 /114.

الصوم ثوابه المغفرة والجنة:

وعد الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات جنة عرضها السماوات والأرض، فقال تعالى: {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}[1]

ومن الملاحظ أن هذه الآية الكريمة تلتقي مع آية فرض الصيام في الانتهاء بذكر التقوى، فهذه بينت أن الجنة أعدت للمتقين، وفي آية الصيام ذُكر ترجي التقوى من أداء الصيام، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.[2]

وكأن المراد، والله تعالى أعلم، أن الصيام ينبغي أن ينطلق من تقوى، وأن يعزز جانب التقوى لدى الصائم، وإذا ما تحقق ذلك، كانت النتيجة الفوز بَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الذين منهم الصائمين والصائمات، الموعودين بغفران الذنوب، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[3]

والله تعالى بشر المتقين بخير من الدنيا ومتاعها، بشرهم بجنات، وأزواج مطهرة، ورضوان من الله، فقال تعالى: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}.[4]

وقد دعا الله تعالى في آية آل عمران المذكورة آنفاً إلى المسارعة إلى المغفرة وإلى الجنة، وفي سورة الحديد دعا الله تعالى إلى المسابقة إلى المغفرة والجنة، فقال سبحانه:{سَابِقُوا إِلَى

1. آل عمران: 133.
2. البقرة: 183.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتسابا من الإيمان.
4. آل عمران: 15.

مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمَ}.[1]

فالصائم مشمول بالوعد بالمغفرة والجنة، والبشرى بهما؛ لأنه يؤدي عملاً صالحاً طيباً، والله تعالى يقول: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.[2]

فالصيام موسم خير إذا انتهزه المسلم على الوجه المطلوب نال ثواباً عظيماً، لا غرابة بعده أن يتمنى أن يكون الدهر كله رمضان، ومن المؤكد أن الصائم إذا أيقن أن جزاءه المغفرة والجنة، فسيهون عليه العطش والجوع ومشاقّ الصوم، والنبي، صلى الله عليه وسلم، بيّن أن الصائم يفرح بلقاء ربه، فقال عليه الصلاة والسلام: (لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا؛ إذا أَفْطَرَ فَرِحَ، وإذا لَقِيَ رَبَّهُ، فَرِحَ بِصَوْمِهِ)[3]، وكيف لا يفرح من يكون جزاؤه جنة له فيها ما تشتهيه نفسه مما لذ وطاب، مما لم يخطر على قلب بشر، ففي الحديث القدسي عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، (قال الله تعالى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، فاقرؤوا إن شِئْتُمْ: {فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ}).[4]

باب الريان:

من فضائل الصيام أن الله تعالى خصص باباً للصائمين يدخولون الجنة منه، قال النبي،

---

1. الحديد: 21.

1 البقرة: 25.

3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم.

4. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.

صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ له الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ منه الصَّائِمُونَ يوم الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ لا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فإذا دَخَلُوا أُغْلِقَ فلم يَدْخُلْ).[1]

وبالنسبة إلى من كان من أصحاب عدد من أبواب الجنة، فإنه يمكن أن يتمتع بها جميعاً، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (من أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ في سَبِيلِ اللهِ، نُودِيَ من أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يا عَبْدَ اللهِ؛ هذا خَيْرٌ فَمَنْ كان من أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ من بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كان من أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ من بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كان من أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ من بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كان من أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ من بَابِ الصَّدَقَةِ، فقال أبو بَكْرٍ، رضي الله عنه: بِأَبِي أنت وَأُمِّي يا رَسُولَ اللهِ، ما على من دُعِيَ من تِلْكَ الْأَبْوَابِ من ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ من تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا، قال: نعم، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ منهم).[2]

هدانا الله تعالى إلى خير القول والعمل، وأعاننا على صيام رمضان، وتقبله منا، لنفوز بالجنة التي أعدها الله لعباده المتقين، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة محمد بن عبد الله، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
هديه في العيد وصلاته

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رضي الله عنه، قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ يوم الْفِطْرِ وَالأَضْحَى إلى الْمُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلاةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ الناس، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ على صُفُوفِهِمْ، فَيَعِظُهُمْ، وَيُوصِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كان يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثاً قَطَعَهُ، أو يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ).[1]

شرعت صلاة العيد في السنة الأولى من الهجرة، واختلف في حكم صلاة العيد، فهي فرض كفاية عند الحنابلة، وواجبة عند الحنفية، وسنة عند المالكية والشافعية.

وتؤدى في المصلى، ويخرج لها الرجال والنساء والصبيان، فعن حَفْصَةَ قالت: (كنا نَمْنَعُ عَوَاتِقَنَا أَنْ يَخْرُجْنَ في الْعِيدَيْنِ، فَقَدِمَتْ امْرَأَةٌ، فَنَزَلَتْ قَصْرَ بَنِي خَلَفٍ، فَحَدَّثَتْ عن أُخْتِهَا، وكان زَوْجُ أُخْتِهَا غَزَا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، ثِنْتَيْ عَشْرَةَ غزوة، وَكَانَتْ أُخْتِي معه في سِتٍّ، قالت: كنا نُدَاوِي الْكَلْمَى، وَنَقُومُ على الْمَرْضَى، فَسَأَلَتْ أُخْتِي النبي، صلى الله عليه وسلم، أَعَلَى إِحْدَانَا بَأْسٌ إذا لم يَكُنْ لها جِلْبَابٌ أَنْ لا تَخْرُجَ، قال: لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا من جِلْبَابِهَا، وَلْتَشْهَدْ الْخَيْرَ وَدَعْوَةَ الْمُسْلِمِينَ، فلما قَدِمَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ، سَأَلْتُهَا: أَسَمِعْتِ النبي، صلى الله عليه وسلم؟ قالت: بِأَبِي نعم، وَكَانَتْ لا تَذْكُرُهُ إلا قالت: بِأَبِي سَمِعْتُهُ، يقول: يَخْرُجُ الْعَوَاتِقُ، وَذَوَاتُ الْخُدُورِ، أو الْعَوَاتِقُ ذَوَاتُ الْخُدُورِ، وَالْحُيَّضُ، وَلْيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ وَدَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَعْتَزِلُ الْحُيَّضُ الْمُصَلَّى، قالت حَفْصَةُ: فقلت: الْحُيَّضُ؟ فقالت: أَلَيْسَ تَشْهَدُ عَرَفَةَ وَكَذَا وَكَذَا؟!).[2]

1. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر.
2. صحيح البخاري، كتاب الحيض، باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ويعتزلن المصلى.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يؤدي صلاة العيد في المصلى، ويؤكد هذا أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان (تُرْكَزُ الْحَرْبَةُ قُدَّامَهُ يوم الْفِطْرِ وَالنَّحْرِ ثُمَّ يُصَلِّي).[1]

والمصلى هو مكان في الفضاء الواسع غير مخصص للصلاة اليومية، وهو في الغالب غير محاط بجدران خاصة أو سقف، فعن ابن عمر: (أن المصلى كان فضاء، ليس فيه شيء مبني يستتر به).[2]

وصلاة العيد لا أذان لها ولا إقامة، فعن ابن عَبَّاسٍ: (أنه أَرْسَلَ إلى ابن الزُّبَيْرِ في أَوَّلِ ما بُوِيعَ له، أنه لم يَكُنْ يُؤَذَّنُ بِالصَّلاةِ يوم الْفِطْرِ، إنما الْخُطْبَةُ بَعْدَ الصَّلاةِ).[3]

وكان صلى الله عليه وسلم يؤدي صلاة العيد قبل الخطبة، عن ابن عَبَّاسٍ، قال: (شَهِدْتُ الْعِيدَ مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، رضي الله عَنْهُمْ، فَكُلُّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ قبل الْخُطْبَةِ)[4]، وصلاة العيد ركعتان، لم يُصَلِّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، قَبْلَهَا ولا بَعْدَهَا، وكان صلى الله عليه وسلم، يخص النساء بوعظ خاص يوم العيد، فعن ابن عَبَّاسٍ، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم: (صلى يوم الْفِطْرِ رَكْعَتَيْنِ، لم يُصَلِّ قَبْلَهَا ولا بَعْدَهَا، ثُمَّ أتى النِّسَاءَ، وَمَعَهُ بِلالٌ، فَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ، فَجَعَلْنَ يُلْقِينَ؛ تُلْقِي الْمَرْأَةُ خُرْصَهَا وَسِخَابَهَا).[5]

وبالنسبة إلى سماع خطبة العيد، فقد أتاح الرسول، صلى الله عليه وسلم، للمسلم حرية الاختيار بين المكث لسماع الخطبة بعد الصلاة، أو الانصراف، فعن عبدالله بن

---

1. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الصلاة إلى الحربة يوم العيد.
2. صحيح ابن خزيمة، 2/ 344.
3. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب المشي والركوب إلى العيد والصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة.
4. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد.
5. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد.

السائب، قال: (شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْعِيدَ فَلَمَّا قَضَى الصَّلاةَ، قَالَ: إِنَّا نَخْطُبُ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَجْلِسَ لِلْخُطْبَةِ فَلْيَجْلِسْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَذْهَبَ فَلْيَذْهَبْ)[1]، مع التأكيد على فضل سماع الخطبة، لما فيها من مواعظ وتذكير بالخير والصلاح.

ويحرم صيام أيام العيدين، فعن عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، قال: (هَذَانِ يَوْمَانِ نهى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، عن صِيَامِهِمَا؛ يَوْمُ فِطْرِكُمْ من صِيَامِكُمْ، وَالْيَوْمُ الْآخَرُ تَأْكُلُونَ فيه من نُسُكِكُمْ).[2]

وصلاة العيد ركعتان، يكبر فيها عند الحنفية ثلاث تكبيرات بعد تكبيرة الإحرام، وثلاثاً أخرى بعد القراءة في الركعة الثانية، ويكبر ستاً في الأولى وخمساً في الثانية عند المالكية والحنابلة، وسبعاً في الأولى وخمساً في الثانية بعد تكبيرة القيام من سجود الركعة الأولى، عند الشافعية. ويكون التكبير في الركعتين قبل القراءة، إلا عند الحنفية، فيكون في الركعة الثانية بعد القراءة.

ويسن الغسل والتطيب وارتداء ملابس حسنة يوم العيد.

كما يسن قبل صلاة عيد الفطر أن يأكل المصلي تمرات وتراً، أو غير ذلك من المطعومات الخفيفة، فعن أَنَسٍ قال: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لا يَغْدُو يوم الْفِطْرِ حتى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ... وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا)[3]، ويؤخر الأكل بعد صلاة عيد الأضحى.

الترفيه عن النفس والعيال يوم العيد:

يسن للمسلمين أن يتعاملوا مع العيد على أنه يوم بهجة وسرور، فللعيد خصوصية ترفيهية، ينبغي أن يحس بها المسلمون، ويظهروها في أوساطهم الاجتماعية والأسرية،

1. سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الجلوس للخطبة، وصححه الألباني.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم الفطر.
3. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج.

بشرط الانضباط فيها بالحدود المشروعة، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (دخل أبو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ من جَوَارِي الأَنْصَارِ، تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ الأَنْصَارُ يوم بُعَاثَ، قالت: وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ، فقال أبو بَكْرٍ: أَمَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ في بَيْتِ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم؟ وَذَلِكَ في يَوْمِ عِيدٍ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: يا أَبَا بَكْرٍ؛ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيداً، وَهَذَا عِيدُنَا).[1]

ومما يتماشى مع معنى التوسعة والترفيه عن النفس في العيد، ما جاء عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، من نهي عن صوم يومي الفطر والأضحى وأيام التشريق، فقال: (...ولا صَوْمَ في يَوْمَيْنِ؛ الفِطْرِ وَالأَضْحَى...).[2]

فعبادة الصيام طلبت من المسلم طيلة أيام شهر رمضان المبارك، ويوم العيد تصبح العبادة على شكل مغاير، بحيث يطلب من المسلم أن يتعبد إلى الله بالفطر، حتى إنه يسن للمسلم الأَكْلِ يوم الْفِطْرِ قبل الْخُرُوجِ إلى المصلى، فعن أَنَسٍ، قال: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لا يَغْدُو يوم الْفِطْرِ حتى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ... وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا).[3]

وفي انصياع المسلم لأمر الله بالإمساك عن المفطرات نهار رمضان، دليل على طاعته المطلقة لله، التي تظهر أيضاً بجلاء في الامتثال لشرع الله، والعمل بهدي الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الكف عن الإمساك والصيام يوم العيد، وهذا يشبه كثيراً بعض جوانب العبادات الأخرى، التي منها حلق الشعر أو تقصيره حال الإحرام للحج أو العمرة، فإذا انتهى الحاج أو المعتمر من أداء بعض شعائرهما، يصبحان مطالبين بفعل الحلق أو التقصير، على سبيل الإلزام، ليعلنا بهذا وذاك أنهما ملتزمان بطاعة الله،

1. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب سُنة العيدين لأهل الإسلام.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم النحر.
3. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج.

ومنصاعان لأمر الله على الوجه الذي يريده الله سبحانه.

صلة أصحاب الحقوق في العيد:

لا يعقل ولا يقبل شرعاً أن يتمتع المسلم وعياله ببهجة العيد وكمالياته وزينته، وبعض أقاربه أو جيرانه يفتقرون إلى ما يبهجهم في العيد، سواء ما تعلق من ذلك بالطعام أو اللباس أو غير ذلك، ومن أدلة عناية الإسلام بالفقراء في العيد، تشريع صدقة الفطر، التي تساهم كل البيوت المسلمة في إنفاقها للمحتاجين إليها، ووقت وجوبها المتفق عليه بين العلماء يكون بعد غروب شمس اليوم الأخير من رمضان، ويمتد إلى وقت أداء صلاة العيد، فإن أديت ينتهي وقتها، وفي هذا دليل على ارتباطها بالعيد، وبالتوسعة على الفقراء والمحتاجين فيه، حتى ينعموا ببهجة العيد، ويغنوا عن المسألة فيه.

كما ينبغي التذكير بأهمية صلة الأرحام في العيد، وصلة ذوي الأسرى والشهداء وبخاصة الأقارب منهم؛ وذلك لعظم حقهم، ولما قدموه من تضحية بأغلى ما يملكون في سبيل الله ومن أجل كرامة أمتهم والدفاع عن حريتها وحقوقها.

أعاننا الله ووفقنا إلى حسن الاقتداء به صلى الله عليه وسلم، في صلاتنا وصيامنا وعملنا كله، وصلى الله على آله وصحبه وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الفصل الثالث
المعاملات

الرسول الأسوة صلى الله عليه وسلم		
.1	يبين فضل العمل وأصحاب المهن	161
.2	ينظم العلاقة بين العمال وأرباب العمل	166

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يبين فضل العمل وأصحاب المهن

قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا من أَنْ يَأْكُلَ من عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ، عليه السَّلام، كان يَأْكُلُ من عَمَلِ يَدِهِ).[1]

يحث النبي، صلى الله عليه وسلم، في الحديث الشريف أعلاه على العمل المثمر، والكسب المشروع، ففيه دعوة نبوية واضحة إلى العمل والاحتراف والكسب الحلال، فجعل خير الطعام وأفضله هو الذي يأتي من كسب المرء بيده، والقدوة في ذلك الأنبياء، عليهم السلام، فقد احترف كثير منهم مهناً لتأمين عيشهم، ومنهم نبي الله داود، عليه السلام، فقد كان يأكل من عمل يده، وكان يصنع الدروع ويبيعها، حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[2]

والنبي، صلى الله عليه وسلم، كان يرعى الغنم، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما بَعَثَ الله نَبِيًّا إلا رَعَى الْغَنَمَ، فقال أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فقال: نعم، كنت أَرْعَاهَا على قَرَارِيطَ[3] لِأَهْلِ مَكَّةَ).[4]

العمل الحرفي من الصدقات:

يعرف بعض العلماء العمل بأنه: (كلُّ نشاطٍ جسمي أو عقلي يقوم به الإنسان، بهدف الإنتاج في مؤسَّسة؛ حكوميَّة كانت أو خاصَّة، أو في حرفة أو مهنة).

---

1. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.
2. سبأ: 10 - 11.
3. المقصود بـ (قَرَارِيطَ): (جزء من الدينار والدرهم)، دليل الفالحين: 5/ 41.
4. صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط.

العمل الحرفي واليدوي يندرج ضمن أعمال البر والصدقات، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (على كل مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فَقَالُوا: يا نَبِيَّ اللهِ؛ فَمَنْ لم يَجِدْ؟ قال يَعْمَلُ بيده، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ، وَيَتَصَدَّقُ، قالوا: فَإِنْ لم يَجِدْ؟ قال: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ، قالوا: فَإِنْ لم يَجِدْ؟ قال: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عن الشَّرِّ، فَإِنَّهَا له صَدَقَةٌ)[1]. والذي لم يَجِدْ مالاً يتصدق به، يَعْمَل بيده، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ، وَيَتَصَدَّقُ بأجره أو بثمره (ويتصدق) منه، وفي هذا حثّ واضح على ممارسة العمل المشروع الذي يجلب لصاحبه ما يوفر من خلاله حاجاته ومن يعول، من طعام وشراب وملبس وغير ذلك؛ ليصون وجهه عن المسألة، ويتصدق ليكتسب الثواب الجزيل.[2]

مشروعية استثمار موارد الأرض والعمل فيها:

من خصائص الإسلام موازنته بين الاهتمام بالدنيا والآخرة والعمل لهما، فيقول تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[3]، من هنا يكون الاهتمام بالعمل المهني والحرفي مطلوباً لتحقيق مصالح العامل من ناحية، ومصالح المجتمع من ناحية أخرى، ويتماشى مع هذا النهج الأمر بترك البيع والشراء وقت أداء صلاة الجمعة، ليجتمع المسلمون لها، ثم جاء التنبيه إلى إباحة الانتشار في الأرض، لقضاء الحاجات المباحة والمشروعة، ومنها العمل المهني والتجاري والتنزه وغير ذلك، فقال تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.[4]

1.صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب على كل مسلم صدقة فمن لم يجد فليعمل بالمعروف.

2. دليل الفالحين: 1 /480.

3. القصص: 77.

4.الجمعة: 10.

فالأرض ينتشر فيها الإنسان طلباً للرزق، والله جعل الليل سكناً للراحة والنوم والاسترخاء، وجعل النهار للعمل والجد والمثابرة، وطلب الرزق، فقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً}[1]، وغالبية الناس يراعون هذه السنة الإلهية، فيسكنون في الليل، ويؤدون الأعمال في النهار، الذي جعله الله تعالى نشوراً؛ أي وقتاً للحركة والحيوية والحياة، بعد السكون الحاصل في النوم الذي يكون في الليل غالباً.

والله سبحانه سخر الأرض للإنسان ليستثمر موجوداتها ومنافعها لمصالحه ومعاشه، فيقول تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[2]، والله جعل العمل في الأرض ضمن الأعمال التي يُبتغى بها وجه الله تعالى ورضاه، فقال سبحانه: {...وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ ...}.[3]

فالاهتمام ببذل الجهد في أداء العمل المهني، الذي تستثمر به خيرات الأرض، ينسجم مع دعوة الإسلام إلى المشي في مناكب الأرض والضرب فيها، طلباً للرزق، وتحقيق المصالح المشروعة، والله سبحانه أمر الخلق أن يطلبوا الرزق من عنده سبحانه، فقال جل شأنه: {...فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.[4]

وترك العمل أو امتهانه، يتناقض مع نظرة الإسلام إليه، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: (إني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: له حرفة؟ فإن قالوا لا، سقط من عيني).[5]

الكفاءة في العمل والأمانة متلازمتان:

من ضوابط العمل المهني المشروع أن يُؤدى بإتقان، ويكون ذلك من أهل الكفاءة به،

1. الفرقان: 47.
2. الملك: 15.
3. المزمل: 20.
4. العنكبوت: 17.
5. كنز العمال، 4/ 52.

المتصفين بالأمانة والتقوى، فالفتاة التي أوصت والدها باستئجار موسى للعمل لديه، ذكرت كفاءته وأمانته، وذكر الله تعالى ذلك في القرآن الكريم: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}.[1]

ومن أدلة مشروعية اشتراط الكفاءة في العامل للعمل الذي يؤديه، بغض النظر عن نوعه، عن أبي ذَرٍّ قال: (قلت: يا رَسُولَ اللهِ؛ ألا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قال: فَضَرَبَ بيده على مَنْكِبَيَّ، ثُمَّ قال: يا أَبَا ذَرٍّ؛ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يوم الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إلا من أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الذي عليه فيها).[2]

فعلى الرغم من المكانة الأخلاقية والدينية التي كان يتمتع بها الصحابي أبو ذر، رضي الله عنه، إلا أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، رفض إسناد مهمة الولاية إليه، بسبب نقص في معيار كفاءته إليها.

النهي عن الكسب غير المشروع:

مع حث الإسلام على العمل المهني المشروع، فإنه ينهى عن غير المشروع، فالعمل بالكهانة ضرب من ضروب العمل غير المشروع، فعن أبي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم: (نهى عن ثَمَنِ الْكَلْبِ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ، وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ).[3]

فالذين يمارسون أعمال الدجل والخزعبلات، بهدف الكسب المادي، إنما يقومون بعمل آثم، يندرج تحت مسمى الكهانة أو يشبهها في المحصلة والنتيجة، ومثلما يجلب العمل المشروع التيسير والتوفيق الرباني، فإن العمل الآثم يحول بين عامله وبين الرضا الإلهي، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (أَيُّهَا الناس؛ إِنَّ اللهَ

1. القصص: 26.
2. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.
3. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ثمن النكاح.

طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فقال: {يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا من الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إني بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} وقال: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا من طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ} ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ، يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ، يا رَبِّ؛ يا رَبِّ؛ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ).[1]

ومن أسباب تحول العمل من مشروع إلى غير مشروع مخالطته بالإثم والغش والخداع، وتلبسه بالآثام والمحرمات، فأعمال الدعارة مثلاً آثمة، تدر على ممارسها ومن يروج لها موارد مالية محرمة، وكذلك أعمال التزيين المحرمة التي يقوم بها بعض أصحاب مهن الكوافير والتجميل، مثل الوشم والنمص، فقد لَعَنَ النبي، صلى الله عليه وسلم، (الْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَآكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ، وَنَهَى عن ثَمَنِ الْكَلْبِ، وَكَسْبِ الْبَغِيِّ، وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ).[*]

فهذه بعض أنواع العمل غير المشروع التي نهى الإسلام عن ممارستها، تقابلها الأعمال المشروعة التي أباح الإسلام القيام بها، وحث على أداء بعضها، والقاعدة في ذلك أن كل ما أباحه الإسلام أو أمر به فهو مشروع، وكل ما نهى عنه أو شابه ما حرمه الإسلام، فهو غير مشروع.

وصلى الله وسلم على رسولنا محمد الأمين، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.
2. صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب مهر البغي والنكاح الفاسد.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
ينظم العلاقة بين العمال وأرباب العمل

يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (...إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمْ الله تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كان أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ)[1]

قوله: (خَوَلُكُمْ): قيل الخول الخدم، وسموا به؛ لأنهم يتخولون الأمور؛ أي يصلحونها، والرسول، صلى الله عليه وسلم، ينهى عن تكليف الخادم، -وهو عامل- شيئاً معه كلفة، أي بما يشق عليه، وقوله: (ما يَغْلِبُهُمْ)؛ أي ما يصير قدرتهم فيه مغلوبة وقوله: (فَأَعِينُوهُمْ): من الإعانة، وهي المساعدة.[2]

فهذا الحديث الشريف يوجه أرباب العمل إلى أن يرفقوا بالعمال، فلا يصح لصاحب العمل أن يكون أنانياً مبتزاً، لا تهمه سوى مصالحه، بغض النظر عن العمال لديه، الذين لولاهم ما تحقق إنجاز العمل المطلوب، ولا نجحت المشاريع الاستثمارية، وقد اهتمَّ الإسلام بالعمال، وجعل لهم حقوقاً على أصحاب العمل، ونظم العلاقة بينهما، وجعلها قائمة على العدل، وحفظ كل منهما حقوق الطرف المقابل، وفيما يأتي بعض الصور التي تتجلى فيها حسن العلاقة، وتنظيمها بين العمال وأرباب العمل.

عقود العمل:

تتجلى عناية الإسلام بتنظيم العمل من خلال حرصه على إبرام العقد بين العامل وصاحب العمل، حرصاً على حفظ الحقوق، وتجنباً للخلافات التي قد تنتج عن العمل

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك.
2. عمدة القاري، 1 /206.

العشوائي غير المنظم، فحثَّ الإسلام على إبرام عقود العمل على أسس واضحة جلية.

ومن نماذج عقود العمل التي أشار إليها القرآن الكريم، ذلكم العقد الذي كان مع موسى، عليه السلام، والشيخ الكبير، والد الفتاتين في مدين، فقال تعالى: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}[1]

فتضمنت الآية الكريمة الإشارة إلى طرفي العقد، وموضوعه، والذي يتلخص في أن يقوم موسى، عليه السلام، بعمل خدماتي لذلك الرجل، مقابل تزويجه من إحدى ابنتيه، وحدد أجل العقد بعشر سنوات.

ومن عقود العمل المشار إليها في القرآن الكريم، ذلك العقد الذي تمَّ بين ذي القرنين، والقوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً، وجدهم دون السدين، فهما طرفا العقد، العامل فيه ذو القرنين، وصاحب العمل القوم، وموضوع العمل: أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً، مقابل أن يجعلوا له جزاءً وأجراً، فقبل المهمة غير أنه تنازل عن حقه في البدل أو الأجر الذي عرضوه عليه، فقال تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً* قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً* قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً* آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً* فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً}.[2]

---

1. القصص: 27.
2. الكهف: 93 - 97.

ولأهمية عقد العمل وضرورة حفظه، جُعِل مثلاً، فعن أبي مُوسَى، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا، يَعْمَلُونَ له عَمَلًا يَوْمًا إلى اللَّيْلِ، على أَجْرٍ مَعْلُومٍ، فَعَمِلُوا له إلى نِصْفِ النَّهَارِ، فَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لنا إلى أَجْرِكَ الذي شَرَطْتَ لنا، وما عَمِلْنَا بَاطِلٌ، فقال لهم: لَا تَفْعَلُوا، أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ، وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا، فَأَبَوْا، وَتَرَكُوا، وَاسْتَأْجَرَ أَجِيرَيْنِ بَعْدَهُمْ، فقال لَهُمَا: أَكْمِلَا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمَا هذا، وَلَكُمَا الذي شَرَطْتُ لهم من الْأَجْرِ، فَعَمِلُوا حتى إذا كان حِينُ صَلَاةِ الْعَصْرِ، قالا: لك ما عَمِلْنَا بَاطِلٌ، وَلَكَ الْأَجْرُ الذي جَعَلْتَ لنا فيه، فقال لَهُمَا: أَكْمِلَا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمَا ما بَقِيَ من النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، فَأَبَيَا، وَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا له بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ، حتى غَابَتْ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ، وَمَثَلُ ما قَبِلُوا من هذا النُّورِ).(*)

فهذا الحديث الشريف يتعرض إلى أطراف عقود العمل، ومضامينها، وشروطها وثمراتها، ويتبين منه أن في عقد العمل طرفين، أحدهما صاحب العمل، والآخر العامل، وأن من يخلّ بشروط العقد يتحمل المسؤولية.

حفظ حق العمال يجلب التيسير الرباني:

إن حفظ حقوق العمال والوفاء بها دون مماطلة أو تسويف أو إنكار يجلب التيسير الرباني، والعون الإلهي، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: عن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كان قَبْلَكُمْ يَمْشُونَ إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ، فَأَوَوْا إلى غَارٍ، فَانْطَبَقَ عليهم، فقال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إنه والله يا هَؤُلَاءِ لا يُنْجِيكُمْ إلا الصِّدْقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قد صَدَقَ فيه، فقال وَاحِدٌ منهم:

* صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب الإجارة من العصر إلى الليل.

اللهم إن كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كان لي أَجِيرٌ عَمِلَ لي على فَرَقٍ من أَرُزٍّ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ، وإني عَمَدْتُ إلى ذلك الْفَرَقِ، فَزَرَعْتُهُ، فَصَارَ من أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ منه بَقَرًا، وَأَنَّهُ أَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ، فقلت: اعْمِدْ إلى تِلْكَ الْبَقَرِ، فَسُقْهَا، فقال لي: إنما لي عِنْدَكَ فَرَقٌ من أَرُزٍّ، فقلت له: اعْمِدْ إلى تِلْكَ الْبَقَرِ، فَإِنَّهَا من ذلك الْفَرَقِ، فَسَاقَهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذلك من خَشْيَتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا فَانْسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ...).[1]

فهذا الحديث يبرز أهمية العناية بحفظ حقوق العمال، حيث نتج عن هذا الحفظ التيسير الرباني، فقد ذهب العامل دون أن يأخذ أجره، وأصبح مجهول الإقامة، غير أن رب العمل لم يهمل حقوقه، ولم يتوانَ في حفظها، بل اتقى الله في مستخدمه، وحفظ له راتبه، واستثمره بصورة حسنة، فلما عاد العامل للمطالبة بحقوقه من صاحب العمل بعد فترة غياب طويلة، وجد أجره عنده قد تضاعف، وهنا تتجلى صورة حفظ حقوق العمال وعدم إنكارها، بل الحرص على استثمارها ومضاعفتها، فكان جزاء هذا، أن فرّج الله عنه كربه، فبفضل الوفاء لحقوق عامله يسر الله الفرج.

وعيد من ينتهك حقوق العمال:

في مقابل التيسير الرباني لمن يحفظ حقوق العمال ويصونها ويحرص على سدادها، هناك الوعيد لمن ينتهك تلك الحقوق، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: قال الله تَعَالَى: (ثَلَاثَةٌ أنا خَصْمُهُمْ يوم الْقِيَامَةِ؛ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا، فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا، فَاسْتَوْفَى منه، ولم يُعْطِهِ أَجْرَهُ).[2]

هذا الحديث القدسي الذي يرويه الرسول، صلى الله عليه وسلم، يظهر شناعة هضم

1. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار.
2. صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب إثم من منع أجر الأجير.

حقوق العمال، فالله سبحانه وتعالى يبين أنه خصم لصاحب العمل الذي قصر في وفاء حقوق موظفيه، فالخصومة الربانية مصير من يماطل في حقوق العمال، أو يسوف فيها أو ينكرها.

العامل مستأمن فليحفظ عندما جعل الإسلام للعامل حقوقاً وحث على الوفاء بها، وسهل التيسير الرباني لمن يحفظ تلك الحقوق، وتوعد بالخصومة الربانية لمن ينكرها، في مقابل ذلك جعل أيضاً العامل مستأمن فيما يعمل، فدعاه إلى أداء عمله بما يرضي الله ورسوله، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}.(*)

فهنا دعوة إلى عدم خيانة الأمانة التي وكل العامل بحفظها حتى يحصل على حقوقه المشروعة.

فهذه بعض الصور والقضايا التي من خلالها يتبين حرص الإسلام على تنظيم إجراءات العمل، وحفظ حقوق العمال، وعدم هضمها وإنكارها، وفقنا الله تعالى إلى حسن أداء حقوق العمال وحفظها، وصلى الله على رسولنا الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* الأنفال:27.

الفصل الرابع
سيرة نبوية

الرسول الأسوة صلى الله عليه وسلم		
.1	أسماؤه وكنيته	172
.2	يبين فضل الصلاة والسلام عليه	177
.3	تزوج في شوال	182
.4	نُصِرَ بِالصَّبا	187
.5	يقود المسلمين إلى نصر الله المؤزر في رمضان	192

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
أسماؤه وكنيته

عن مُحَمَّدِ بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (لي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أنا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وأنا الْمَاحِي الذي يَمْحُو الله بِي الْكُفْرَ، وأنا الْحَاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناس على قَدَمِي، وأنا الْعَاقِبُ).[1]

يقول ابن حجر العسقلاني: والذي يظهر أنه أراد أن لي خمسة أسماء، أختص بها، لم يسم بها أحد قبلي، أو مشهورة في الأمم الماضية، لا أنه أراد الحصر فيها.[2]

وجاء في عمدة القاري أن قصر أسمائه هنا على خمسة، وأسماؤه أكثر من ذلك، يدل على أن مفهوم العدد هنا لا اعتبار له، فلا ينفي الزيادة، وقيل: إنما اقتصر عليها؛ لأنها موجودة في الكتب القديمة، ومعلومة للأمم السالفة، وقيل: معناه ولي خمسة أسماء لم يسم بها أحد قبلي، وقيل: معناه أن معظم أسمائي خمسة.

أما بالنسبة إلى قوله: (الْمَاحِي) فذلك صفة، معناها الذي يمحو الله بي الكفر من جزيرة العرب، وقيل: هذا عام يتناول كفر كل أحد في كل أرض.[3]

وقوله: (وأنا الْحَاشِرُ) فسّر الرسول، صلى الله عليه وسلم، معناه، بقوله: (الْحَاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناس على قَدَمِي) قال ابن عبد البر: أي قدامي وأمامي، أنهم يجتمعون إليه، وينضمون حوله، ويكونون أمامه يوم القيامة ووراءه. وقال الخليل: حشرت الناس إذا ضممتهم من البوادي. وقال الباجي وعياض: اختلف في معنى على قدمي، فقيل: على

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله، صلى الله عليه وسلم.
2. فتح الباري، 6 /556.
3. عمدة القاري، 16 /97.

زماني وعهدي؛ أي ليس بعدي نبي.

وقيل لمشاهدتي، كما قال تعالى: {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[1]، وقال الخطابي: معناه على أثري؛ أي أنه يقدمهم وهم خلفه؛ لأنه أول من تنشق عنه الأرض فيتبعونه، وقيل على أثري، بمعنى أن الساعة على أثره؛ أي قريبة من مبعثه[2]، وفي الحديث الصحيح يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ، وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى).[3]

أما بالنسبة إلى قوله: (وأنا الْعَاقِبُ)؛ أي الذي ليس بعده أحد[4]، وهذا يتفق مع كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين.

أسماؤه صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم:

الحديث المذكور أعلاه ورد في صحيح البخاري، تحت بَاب ما جاء في أَسْمَاءِ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وَقَوْلِ الله تَعَالَى: {مُحَمَّدٌ رسول اللهِ وَالَّذِينَ معه أَشِدَّاءُ على الْكُفَّارِ} وَقَوْلِهِ: {من بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}.

والله تعالى يقول: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}.[5]

فهذه الآية القرآنية الكريمة تضمنت ذكر اسم من أسماء النبي، صلى الله عليه وسلم،

1. البقرة: 143.
2. شرح الزرقاني، 4 /559.
3. صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان.
4. التمهيد لابن عبد البر، 9 /152.
5. الصف: 6.

وهو (أحمد)، وجاء هذا الذكر على لسان نبي الله عيسى، عليه السلام، في سياق بشارته بالنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، الذي سيبعث من بعده، وبالإضافة إلى ذكره، صلى الله عليه وسلم، باسمه أحمد في هذه الآية الكريمة، فقد ذكر باسمه محمد في أربعة مواضع قرآنية أخرى، وفي لسان العرب أن محمداً وأَحمد: من أَسماء سيدنا المصطفى رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ والمحمَّد الذي كثرت خصاله المحمودة؛ ومعنى أَحْمَد: الرجلُ صار أَمره إِلى الحمد، وهو مشتق من الحمد الذي هو نقيض الذم.[1]

جاء ذكر اسم الرسول، صلى الله عليه وسلم (محمد) في سياق حديث قرآني عن بعض قضايا العقيدة، ففي سورة آل عمران يقول الله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ}[2]، فذكر اسم النبي، صلى الله عليه وسلم، في هذه الآية، جاء في سياق تأكيد بشريته عليه الصلاة والسلام ونبوته، وتقرير أن موته أمر طبيعي وحتمي، مثل بقية الرسل الذين سبقوه.

وفي سورة الأحزاب، يقول الله تعالى: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً}[3]، حيث جاء ذكر اسمه عليه الصلاة والسلام هنا في سياق التأكيد على أن النبوات ختمت برسالته.

أما في السورة التي سميت باسمه، فيقول تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}[4]، ففي هذه

1. لسان العرب، 4/ 216.
2. آل عمران: 144.
3. الأحزاب: 40.
4. محمد: 2.

الآية الكريمة ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم في سياق بيان مكافأة المؤمنين برسالته.

وفي سورة الفتح يقول تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}[1]، ففي هذه الآية الكريمة تقرير من رب العالمين أن محمداً رسول من الله، وبيان بعض خواص أمته وأتباعه.

ومن أسماء النبي، صلى الله عليه وسلم، المذكورة في القرآن الكريم، بالإضافة إلى محمد وأحمد، عبد الله، وطه، ويس، ففي سورة الجن، يقول الله تعالى:{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً}[2]، وفي فاتحة سورة طه، يقول تعالى: {طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى* إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى}.[3]

وفي فاتحة سورة يس، يقول الله تعالى: {يس* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ* إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[4]، فالله خاطب الرسول، صلى الله عليه وسلم، في افتتاح هاتين السورتين بهذين الاسمين؛ طه ويس.

ويلاحظ أن ثلاثة من أسمائه، صلى الله عليه وسلم، سميت بكل واحد منها سورة قرآنية، محمد، وطه، ويس.

وفي القرآن صفات دالة على النبي، صلى الله عليه وسلم، منها، المزمل، والمدثر، والنور، والمنذر، والبشير، والشاهد، والشهيد، والحق، والمبين، والأمين، وقدم الصدق، ونعمة الله،

1. الفتح: 29.
2. الجن: 19.
3. طه:1 – 3.
4. يس:1 – 4.

والعروة الوثقى، والصراط المستقيم، والنجم الثاقب، والكريم، وداعي الله، وقال ابن دحية: أسماؤه وصفاته إذا بحث عنها تزيد على الثلاثمائة.[1]

كنية النبي صلى الله عليه وسلم:

عن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، في السُّوقِ، فقال رَجُلٌ: يا أَبَا الْقَاسِمَ؛ فَالْتَفَتَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: سَمُّوا بِاسْمِي، ولا تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي).[2]

فقد كان صلى الله عليه وسلم يكنى بأبي القاسم، وبناء على النهي الوارد في هذا الحديث الشريف عن التكني بهذه الكنية، اختلف العلماء في حكم التكني بها على ثلاثة مذاهب:

الأول: المنع مطلقاً، سواء كان المكنى بها اسمه محمداً أم لا، ثبت ذلك عن الشافعي.

والثاني: الجواز مطلقاً، ويختص النهي بحياته، صلى الله عليه وسلم.

والثالث: لا يجوز لمن اسمه محمد، ويجوز لغيره، قال الرافعي: يشبه أن يكون هذا هو الأصح؛ لأن الناس لم يزالوا يفعلونه في جميع الأعصار من غير إنكار. قال النووي هذا مخالف لظاهر الحديث، وأما إطباق الناس عليه، ففيه تقوية للمذهب الثاني، وكأن مستندهم ما وقع في حديث أنس المشار إليه أنه صلى الله عليه وسلم كان في السوق، فسمع رجلاً يقول: يا أبا القاسم، فالتفت إليه، فقال لم أعنك، فقال: سموا باسمي، ولا تكنوا بكنيتي، قال: ففهموا من النهي الاختصاص بحياته للسبب المذكور، وقد زال بعده.[3]

وصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. عمدة القاري، 16 /97.
2. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب كنية النبي، صلى الله عليه وسلم.
3. فتح الباري، 10 /572.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم يبين فضل الصلاة والسلام عليه

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (من صلى عَلَيَّ وَاحِدَةً، صلى الله عليه عَشْرًا).[1]

يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف، أهمية الصلاة عليه، فأجرها يتضاعف عشراً، كيف لا؟! وقد حث الله تعالى عليها، فقال جل شأنه: {إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً}.[2]

ومضاعفة أجر الصلاة على النبي، عليه الصلاة والسلام، للمرة عشراً، يندرج ضمن الكرم الرباني، الذي بموجبه يتضاعف أجر الحسنة إلى عشرة أضعاف، بل إلى سبعمائة ضعف، فالله تعالى يقول: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}.[3]

وفي الحديث الصحيح عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِي، أَنَّهُ سمع رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إذا أَسْلَمَ الْعَبْدُ، فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، يُكَفِّرُ الله عنه كُلَّ سَيِّئَةٍ كان زَلَفَهَا، وكان بَعْدَ ذلك الْقِصَاصُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إلى سبع مائة ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إلا أَنْ يَتَجَاوَزَ الله عنها).[4]

فالله عز وجل يضاعف أجر الحسنات، التي منها النطق بالصلاة والسلام على الرسول

1.صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، بعد التشهد.
2.الأحزاب: 56.
3. الأنعام: 160.
4.صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء.

محمد، صلى الله عليه وسلم، مما يعني ضرورة الاهتمام بهذا الأمر الذي يتعبد به المسلم إلى ربه، وأهل المدائح النبوية أنشدوا منذ زمن، وما زالوا ينشدون ترانيم الشعر في الصلاة على النبي، عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك:

صلـــــوا عليه وسلمـوا تسليماً حتى تنالوا جنة ونعيماً

الله يجزي من يصلي مرة عشراً ويسكن في الجنان مقيمـــاً

الـلـه زاد مـحـمـداً تـعـظـيـمـاً وحباه فضلاً من لدنه عميماً

واختصه في المرسلين كريماً ذو رأفـــة بـالمؤمـنـيـن رحيماً

يـا أيـهـا الراجون منه شفاعة صلوا عليه وسلمـوا تسليماً

فيا له من شرف عظيم، ومقام جليل، يحظى بهما من يوفق للصلاة على الرسول الأمين، صلى الله عليه وسلم، الذي يحاول بعض الحاقدين الإساءة إليه برسوم وغيرها، متجاوزين المدى في الغي والسفه، وما دروْا أن الله لهم بالمرصاد، وهو القائل جل شأنه: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ}.[1]

فاللهم رد عن نبيك محمد، صلى الله عليه وسلم، سفه أولئك الساخرين والمسيئين، كما رددت عنه من قبل شر المستهزئين، من أمثال: أبي جهل، وأبي لهب، وأشياعهم، من الذين طُردوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة، وأعد لهم سوء العذاب، فقال جل شأنه: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً}.[2]

مفهوم الصلاة على النبي، عليه الصلاة والسلام:

ورد في التفسير أن صلوات الله تعالى على الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصلوات

1. الحجر: 95.
2. الأحزاب: 57.

الملائكة والمؤمنين لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً، وهي من الله تعالى رحمة، ومن الملائكة والمؤمنين دعاء.[1]

وذكر الرازي مسائل تتعلق بمعنى الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، وبعض أحكامها، فبين أن الصلاة معناها الدعاء، يقال في اللغة: صلى عليه؛ أي دعا له، وهذا المعنى غير معقول في حق الله تعالى، فإنه لا يدعو له؛ لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث، فقال الشافعي، رضي الله عنه: استعمل اللفظ بمعان، ورد بعضها في تفسير قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وملائكته}[2]، يعني هو يصلي عليكم، ويرحمكم، وأنتم لا تذكرونه، فذكر صلاته تحريضاً للمؤمنين على الذكر والتسبيح، والصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار.[3]

وفي قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...} جمع الله نفسه وملائكته، وأسند الصلاة إليهم، فقال: {يُصَلُّونَ} وفي هذا تعظيم للنبي، عليه الصلاة والسلام؛ لأن إفراد الواحد بالذكر، وعطف الغير عليه يوجب تفضيلاً للمذكور على المعطوف.

وأجاب الرازي عن تساؤل يتعلق بأنه إذا صلى الله وملائكته عليه، فأي حاجة إلى صلاتنا؟ فقال: الصلاة عليه ليس لحاجته إليها، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة، مع صلاة الله عليه، وإنما هو لإظهار تعظيمه، كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه، ولا حاجة له إليه، وإنما هو لإظهار تعظيمه منا؛ شفقة علينا؛ ليثيبنا عليه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (من صلى عَلَيَّ وَاحِدَةً، صلى الله عليه عَشْرًا).

وأشار الرازي إلى أن الله تعالى لم يترك النبي، عليه الصلاة والسلام، تحت منة أمته

1. أضواء البيان، 8 /247.
2. الأحزاب: 43.
3. التفسير الكبير، 25/ 186.

بالصلاة حتى عوضهم منه بأمره بالصلاة على الأمة، فقال تعالى: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ}[1][2]

وثبت في الصحيحين أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يسأل الله تعالى الصلاة على بعض المؤمنين، ومنهم الذين كانوا يأتونه بالصدقات، فعن عَبْدَ الله بن أبي أَوْفَى، وكان من أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ، قال: كان النبي، صلى الله عليه وسلم: (إذا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَةٍ، قال: اللهم صَلِّ عليهم، فَأَتَاهُ أبي بِصَدَقَتِهِ، فقال: اللهم صَلِّ على آلِ أبي أَوْفَى).[3]

أوقات الصلاة على النبي، عليه الصلاة والسلام:

الصلاة على النبي، عليه الصلاة والسلام، عبادة يؤديها المسلم، تقرباً إلى الله تعالى، وتعبيراً عن حب النبي، صلى الله عليه وسلم، في كل الأوقات التي منها ما ورد الحث عليها، فعند ذكر النبي، صلى الله عليه وسلم، بالنطق، أو الكتابة، ينبغي للذاكر، والسامع، والكاتب، أن يردد ذكر الصلاة والسلام على الرسول، عليه الصلاة والسلام، وقد وصف المتقاعس عنها عند ذكره بالبخيل، فعن عبد الله بن علي بن حسين عن أبيه عن جده، قال: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: البخيل من ذكرت عنده، ولم يصل عليّ).[4]

والصلاة على النبي، عليه الصلاة والسلام، يرددها المسلم في صلاته خمس مرات على أقل تقدير في اليوم الواحد، وذلك خلال جلوسه الأخير، الذي يختم به كل صلاة، وذلك فيما يعرف بالصلاة الإبراهيمية، ففي الحديث الصحيح: (... سَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ عَلَّمَنَا

1. التوبة: 103.
2. التفسير الكبير، 25 /196.
3. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية.
4. الأحاديث المختارة، 2 /46.

كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)[1]، مع التنبيه إلى أن العلماء اختلفوا في حكم الصلاة الإبراهيمية في الصلاة بين القول بأنها ركن من أركانها، وقول: بأنها من مستحباتها، والأولى المحافظة على ذكرها في الجلوس الأخير من الصلاة بعد التشهد، وبخاصة في صلاة الفرض.

ومن المواطن التي من السنة فيها الصلاة على النبي، عليه الصلاة والسلام، بعد الأذان، فعن عبد الله بن عَمْرِو بن الْعَاصِ، أَنَّهُ سمع النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إذا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ ما يقول، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فإنه من صلى عَلَيَّ صَلَاةً، صلى الله عليه بها عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ في الْجَنَّةِ، لا تَنْبَغِي إلا لِعَبْدٍ من عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أنا هو، فَمَنْ سَأَلَ لي الْوَسِيلَةَ، حَلَّتْ له الشَّفَاعَةُ).[2]

وللصلاة والسلام على الرسول، عليه الصلاة والسلام، فوائد وثمرات كثيرة، ذكر منها ابن القيم في (جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام) عليه الصلاة والسلام، ما يربو عن ثلاث وثلاثين فائدة، منها أنها امتثال أمر الله سبحانه وتعالى، وحصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة، وأنها توافق الله سبحانه في الصلاة عليه، صلى الله عليه وسلم، وإن اختلفت الصلاتان، وموافقة ملائكته فيها، وأنه يرجى إجابة الداعي إذا قدمها أمامه، وأنها سبب لشفاعته صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1.صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.

2. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم يسأل الله له الوسيلة.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

تزوج في شوال

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (تَزَوَّجَنِي رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فِي شَوَّالٍ، وَبَنَى بِي فِي شَوَّالٍ، فَأَيُّ نِسَاءِ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، كان أَحْظَى عِنْدَهُ مني؟ قال: وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَسْتَحِبُّ أَنْ تُدْخِلَ نِسَاءَهَا فِي شَوَّالٍ).[1]

يشير هذا الحديث الشريف بداية إلى أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، عقد قرانه على عائشة، رضي الله عنها، في شهر شوال، وزفت إليه فيه أيضاً، ولكن بعد عامين، ففي الحديث الصحيح عن هِشَامٍ عن أبيه، قال: (تُوُفِّيَتْ خَدِيجَةُ قبل مَخْرَجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى الْمَدِينَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ، فَلَبِثَ سَنَتَيْنِ أو قَرِيبًا من ذلك، وَنَكَحَ عَائِشَةَ، وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ، ثُمَّ بَنَى بها، وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ)[2]، وفي رواية أنها مكثت عنده بعد ذلك تسع سنين، كما جاء عنها رضي الله عنها: (وَمَكَثْتُ عِنْدَهُ تِسْعًا).[3]

جاء في مرقاة المفاتيح، أن قولها: (ثُمَّ بَنَى بي)؛ أي دخل معي وزف بي في شوال، والعامة تقول بنى بأهله، وهو خطأ، وكان الأصل فيه أن الداخل بأهله، كان يضرب عليها قبة ليلة دخوله بها، فقيل لكل داخل بأهله بان.

وقولها: (فَأَيُّ نِسَاءِ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، كان أَحْظَى عِنْدَهُ مني)؛ أي أقرب إليه، وأسعد به، أو أكثر نصيباً عنده مني. قيل: إنما قالت هذا رداً على أهل الجاهلية، فإنهم كانوا لا يرون يمناً في التزوّج والعرس في أشهر الحج، وقيل: لأنها سمعت بعض

1. صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب التزوج والتزويج في شوال واستحباب الدخول فيه.
2. صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي، صلى الله عليه وسلم، عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها.
3. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من بنى بامرأة وهي بنت تسع سنين.

الناس يتطيرون ببناء الرجل على أهله في شوّال لتوّهم اشتقاق شوال من أشال بمعنى أزال؛ فحكت ما حكت، رداً لذلك، وإزاحة للوهم.(*)

معتقد جاهلي:

بعض الناس يعتقدون جهلاً أن الزواج في شوال محرم أو مكروه، أو أنه يجلب الشر، ويكون مهدداً بالزوال، ظناً منهم أن شوال يجلب الحظ السيء للأزواج، لدلالة اسمه على معنى الإشالة والرفع.

ولا يبعد هذا المعتقد الخاطئ عن معتقدات أهل الجاهلية الخاصة بالتطير والتشاؤم، التي يتعلق بعضها بالشهور وبعضها بالأيام، وبعضها بالطيور والحيوانات وما إلى ذلك.

ومما لا ريب فيه أن هذا الاعتقاد لا يمت إلى شرع الإسلام بصلة، بل على العكس من ذلك تماماً، فإن جمهور الفقهاء كالمالكية والشافعية وبعض الحنابلة، يستحبون الزواج في شوال، استناداً إلى أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، مارس فعل الزواج عقداً ودخولاً في شوال، كما تنص على ذلك أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، في الحديث المثبت أعلاه، وهي فيه تذهب أبعد من بيان مشروعية الزواج في شوال، فتشير إلى أن زواجها في شوال لم يجلب لها شراً، بل على العكس من ذلك، فقد كانت أكثر نساء النبي، صلى الله عليه وسلم، حظوة عنده، ومحبة إلى قلبه.

وفي نيل الأوطار مناقشة للاستدلال بِحَدِيثِ عَائِشَةَ على اسْتِحْبَابِ الْبِنَاءِ بِالْمَرْأَةِ في شَوَّالٍ، فهو إنَّمَا يَدُلُّ على ذلك إذَا تَبَيَّنَ أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قَصَدَ ذلك الْوَقْتَ لِخُصُوصِيَّةٍ له، لا تُوجَدُ في غَيْرِهِ، لا إذَا كان وُقُوعُ ذلك منه صلى الله عليه وسلم على طَرِيقِ الاتِّفَاقِ، وَكَوْنُهُ بَعْضَ أَجْزَاءِ الزَّمَانِ، فإنه لا يَدُلُّ على الاسْتِحْبَابِ؛ لِأَنَّهُ حُكْمٌ

* مرقاة المفاتيح، 6 /276.

شَرْعِيٌّ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، وقد تَزَوَّجَ، صلى الله عليه وسلم، بِنِسَائِهِ فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ على حَسَبِ الاتِّفَاقِ، ولم يَتَحَرَّ وَقْتًا مَخْصُوصًا، وَلَوْ كان مُجَرَّدُ الْوُقُوعِ يُفِيدُ الاسْتِحْبَابَ، لَكَانَ كُلُّ وَقْتٍ من الْأَوْقَاتِ التي تَزَوَّجَ فيها النبي، صلى الله عليه وسلم، يُسْتَحَبُّ الْبِنَاءُ فيه، وهو غَيْرُ مُسَلَّمٍ.(*)

ودليل اعتبار شوال كغيره من الشهور بالنسبة إلى فضل الزواج فيها، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، تزوج عائشة، رضي الله عنها، في شوال، وتزوج غيرها من أمهات المؤمنين في أشهر أخرى، مما يدل على أن الزواج في شوال لم يكن مقصوداً لذاته، وإنما اقتضته ظروف الزواج توافقاً، فلم يكن للزمن هنا دور في الفضل أو التحرز.

ولم يرد في الشرع دليل صحيح على استحباب تحري وقت معين للزواج، مثلما لم يرد ما يمنع من الزواج في أوقات معينة،

اللهم إلا منع الزواج خلال الإحرام للحج أو العمرة، أو المعاشرة خلال نهار الصيام، أو منع المعتدة سواء من طلاق أو وفاة من الزواج حتى تنقضي عدتها. فالمسألة هنا تتعلق بأحكام شرعية، دون أن يكون لها أي صلة بربط نجاح الزواج أو فشله بالزمن الذي يتم فيه.

النفع والضر من عند الله:

المعتقدات التشاؤمية تستند في غالبها إلى ثقافة جاهلية خاطئة ليس لها في الشرع الحنيف دليل أو سلطان، وتلك المعتقدات لا تقف عند مسألة التنفير من الزواج في شوال، بل تتعدى ذلك إلى مناحٍ حياتية عديدة، تشبث بعض الناس بمعتقدات ما أنزل الله بها من سلطان، من قبيل ظنهم أن النفع أو الضرر يجلبها شهر من الشهور، أو يوم

* نيل الأوطار، 6 /339.

من الأيام، وكل ذلك ينم عن خلل في عقيدتهم، وكان الناس في جاهليتهم يتطيرون ويتشاءمون من بعض الشهور كشهر صفر، ووفق الإيمان السليم، فإن النفع والضر يقعان بأمر الله فحسب، وهو القائل جل شأنه: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ}.[1]

وفي صحيح البخاري، بَاب لا صَفَرَ وهو دَاءٌ يَأْخُذُ الْبَطْنَ، وفيه عن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (إِنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: لا عَدْوَى ولا صَفَرَ ولا هَامَةَ، فقال أَعْرَابِيٌّ: يا رَسُولَ اللهِ؛ فما بَالُ إِبِلِي تَكُونُ في الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ فَيَأْتِي الْبَعِيرُ الْأَجْرَبُ فَيَدْخُلُ بَيْنَهَا فَيُجْرِبُهَا؟ فقال: فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟!).[2]

وفي الديباج على مسلم، (لا عَدْوَى) قيل: هو نهي عن أن يقال ذلك أو يعتقد، وقيل: هو خبر؛ أي لا تقع عدوى بطبعها، وقوله: (ولا صَفَرَ) فيه تأويلان، أحدهما: أن المراد تأخيرهم تحريم شهر المحرم إلى شهر صفر وهو النسيء، الذي كانوا يفعلونه، وبهذا قال مالك وأبو عبيدة. والثاني: أن الصفر دواب في البطن، وهي دود كانوا يعتقدون أن في البطن دابة تهيج عند الجوع، وربما قتلت صاحبها، وكانت العرب تراها أعدى من الجرب، قال النووي: وهذا التفسير هو الصحيح، وقال: ويجوز أن يكون المراد هذا والأول جميعاً، وأن الصفرين جميعاً باطلان لا أصل لهما، ولا تعريج على واحد منهما. وقوله: (ولا هَامَةَ) فيه تأويلان أحدهما: أن العرب كانت تتشاءم بالهامة، وهي الطائر المعروف من طير الليل، وقيل: هي البومة، كانت إذا سقطت على دار أحدهم يراها ناعية له نفسه، أو بعض أهله، وهذا تفسير مالك، والثاني أن العرب كانت تعتقد أن

1. الأنعام: 17.

2. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن.

عظام الميت، وقيل: روحه تنقلب هامة تطير، قال النووي: وهذا تفسير أكثر العلماء، وهو المشهور، قال: ويجوز أن يكون المراد النوعين، وأنهما جميعاً باطلان.(*)

فالنفع والضر يقعان بقدر الله، والمؤمن لا يساوره أدنى شك في ذلك؛ لأنه يوقن أن الحياة والموت خلقهما الله تعالى، وخلق ما قبلهما وما بعدهما، ومن ضمن ذلك الفشل والنجاح، والتوفيق والإخفاق، فليس للشهور والأيام دور في خلق شيء من ذلك أو كفه، وإن كان لشيء تأثير بعد القدر في وجود ذلك، فهو سعي الإنسان وعمله، وأخذه بأسباب النجاح أو الفشل، أرشدنا الله تعالى إلى الاعتقاد بما لا يتعارض مع إيماننا السوي، لنكون ممن يتبعون هذا الدين على بصيرة ونقاء، وممن يقتفون أثر رسولنا، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* الديباج على مسلم، 5 /236.

نُصِرَ بِالصَّبَا

عن ابن عَبَّاسٍ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال: (نُصِرْتُ بِالصَّبَا[1]، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ).[2]

الحديث الذي بين أيدينا يذكر نوعين للريح، أحدهما يجلب الخير وهي الصَّبا، والآخر يأتي بالشر، وهي الدَّبُور. وقيل: إن ريح الصَّبا يستريح إليها كل محزون. والدَّبُور هي الريح العقيم.[3]

الريح كان لها دور وما زال في التأثير على الناس، ومجريات الأمور بينهم، فعن أنس، قال: (كانت الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ إذا هَبَّتْ عُرِفَ ذلك في وَجْهِ النبي، صلى الله عليه وسلم). [4] وبمناسبة الريح العاصفة التي هبت على بلادنا قبل أيام، إضافة إلى البرد القارس الذي صاحبها، وما رافقه من ثلوج وأمطار، نود الوقوف عند دور الريح، والبرد الشديد في بعض أحداث السيرة النبوية.

برودة ليلة الأحزاب:

ورد خبر غزوة الخندق والريح الشديدة التي هبت ليلتها، في عدد من الأحاديث الصحيحة، منها، عن حُذَيْفَة، قال: (لقد رَأَيْتُنَا مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ، وَقُرٌّ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: ألا رَجُلٌ

1. الصَّبا في اللغة: ريحٌ تَهُبُّ من ناحية المشرق، وتقابلها الدبور التي تهب من نحو المغرب. لسان العرب، 5/ 211.
2. صحيح مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور.
3. عمدة القاري، 7/ 56.
4. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب إذا هبت الريح.

يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يوم الْقِيَامَةِ، فَسَكَتْنَا فلم يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قال: ألا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يوم الْقِيَامَةِ، فَسَكَتْنَا فلم يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قال: ألا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يوم الْقِيَامَةِ، فَسَكَتْنَا فلم يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فقال: قُمْ يا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، فلم أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قال: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، ولا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ، فلما وَلَّيْتُ من عِنْدِهِ، جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي في حَمَّامٍ، حتى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ، يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا في كَبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ولا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وأنا أَمْشِي في مِثْلِ الْحَمَّامِ، فلما أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، من فَضْلِ عَبَاءَةٍ كانت عليه يُصَلِّي فيها، فلم أَزَلْ نَائِمًا حتى أَصْبَحْتُ، فلما أَصْبَحْتُ قال: قُمْ يا نَوْمَانُ).(*)

يلاحظ من هذه الرواية الصحيحة أن ليلة الخندق كانت قارسة، فحذيفة، رضي الله عنه، أخبر عن ذلك خمس مرات في هذا الحديث، أولاها: في بداية وصفه لليلة الأحزاب، فقال: (لقد رَأَيْتُنَا مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ، وَقُرٌّ) والثانية: لما وصف حاله حين لبى أمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، وانطلق ليأتيه بِخَبَرِ الْقَوْمِ، فقال: (فلما وَلَّيْتُ من عِنْدِهِ، جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي في حَمَّامٍ). والثالثة: حين ذكر أن أبا سفيان كان يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، والرابعة: حين فرغ من مهمته قافلاً، فقال:(فَرَجَعْتُ، وأنا أَمْشِي في مِثْلِ الْحَمَّامِ) والخامسة: حين عاد إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وقال: (فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، من فَضْلِ عَبَاءَةٍ كانت عليه يُصَلِّي فيها)

* صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب.

معنى (وَقُرّ) بضم القاف، هو البرد، وقوله: (قُرِرْتُ)؛ أي بردت، وقوله: (فلما وَلَّيْتُ من عِنْدِهِ، جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ) يعني أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس، ولا من تلك الريح الشديدة شيئاً، بل عافاه الله منه ببركة إجابته للنبي، صلى الله عليه وسلم، وذهابه فيما وجهه له، ودعائه، صلى الله عليه وسلم، له، واستمر ذلك اللطف به، ومعافاته من البرد حتى عاد إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما رجع ووصل النبي، صلى الله عليه وسلم، عاد إليه البرد الذي يجده الناس، وهذه من معجزات رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولفظة الحمام عربية، وهو مذكر مشتق من الحميم، وهو الماء الحار. قوله: (فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ، يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ)؛ أي يدفئه، ويدنيه منها.[1]

الصَّبا والدَّبُور:

تخلل تعقيب الله تعالى على أحداث غزوة الخندق-الأحزاب- ونتائجها، ذكر الريح التي أرسلها على الأحزاب، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً}.[2] فالريح من الجنود الربانية التي أرسلها الله تعالى لنصر المسلمين على أعدائهم في هذه المعركة الفاصلة، وفي مرقاة المفاتيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله: (نُصِرْتُ بِالصَّبَا)؛ أي في وقعة الخندق، قال تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا}؛ أي بالصَّبا، وهي ريح شرقية تهب من مطلع الشمس.

وروى أن الأحزاب وهم قريش وغطفان واليهود لما حاصروا المدينة يوم الخندق هبت ريح الصَّبا، وكانت شديدة، فقلعت خيامهم، وكفأت قدورهم، وضربت وجوههم

1. صحيح مسلم بشرح النووي، 12 /145 - 146.
2. الأحزاب: 9.

بالحصى والتراب، وألقى الله في قلوبهم الرعب، وأنزل الله جبريل ومعه جماعة من الملائكة، فزلزلوا أقدامهم، وأحاطوا بهم، حتى أيقنوا بالهلاك عن آخرهم، فابتدأهم أبو سفيان بالرحيل، راجعاً إلى مكة، ولحقوه في أثره، فلم يأت الفجر ولهم ثمة حس ولا أثر، بعد ما حصل للمؤمنين في أوّل الليل من الخوف، وسوء الظنون ما أنبأ عنه قوله تعالى: {إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا}.[1]

وكان ذلك فضلاً من الله، ومعجزة لرسوله، صلى الله عليه وسلم، وقوم عاد هبت عليهم الدَّبُور، وألقتهم على الأرض، بحيث اندقت رؤوسهم، وانشقت بطونهم، وخرجت منهم أحشاؤهم، فالريح مأمورة، تجيء تارة لنصرة قوم، وتارة لإهلاك قوم.[2]

والريح مثل النار، التي أزال الله عنها خاصية الإحراق لغاية أرادها سبحانه وتعالى، وكذلك الريح إن أراد الله لها أن تتسبب في وقوع ضرر، فإنه لا محالة واقع، وإن أراد لها أن تحدث خيراً، فإنها تصبح بلسماً يداوي الجراح.

ريح شديدة ليلة تبوك:

ومن الغزوات التي خاضها الرسول، صلى الله عليه وسلم، وكان للريح الشديدة أثر في أحداثها، غزوة تبوك، فعن أبي حُمَيْدٍ، قال: (خَرَجْنَا مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم... حتى قَدِمْنَا تَبُوكَ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: سَتَهُبُّ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فلا يَقُمْ فيها أَحَدٌ مِنْكُمْ، فَمَنْ كان له بَعِيرٌ، فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ، فَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَحَمَلَتْهُ الرِّيحُ، حتى أَلْقَتْهُ بِجَبَلَي طَيِّئٍ...).[3]

1. الأحزاب: 10.
2. مرقاة المفاتيح، 3/ 561.
3. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي، صلى الله عليه وسلم.

من المعلوم أن غزوة تبوك كانت في حر شديد، وهبوب الريح الشديدة في ليلتها كان أمراً غيبياً أخبر عنه الرسول، صلى الله عليه وسلم، قبل وقوعه.

قوله: (فلا يَقُمْ فيها أَحَدٌ)؛ أي من مكانه، فإنه يضره، (فَمَنْ كان له بَعِيرٌ، فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ)؛ أي فليربط من الآن عقاله، (فَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ)، فهذه معجزة، (فَقَامَ رَجُلٌ، فَحَمَلَتْهُ الرِّيحُ، حتى أَلْقَتْهُ بِجَبَلَيْ طيء)، وهذه معجزة أخرى.[1] قوله: (بِجَبَلَيْ طيء) يعني بالبادية، وبين تبوك وبين جبلي طيء مسافة بعيدة.[2]

يقول النووي: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظاهرة من أخباره، صلى الله عليه وسلم، بالغيب، وخوف الضرر من القيام وقت الريح، وفيه ما كان عليه صلى الله عليه وسلم، من الشفقة على أمته، والرحمة لهم، والاعتناء بمصالحهم، وتحذيرهم مما يضرهم في دين، أو دنيا، وإنما أمر بشد عقل الجمال، لئلا ينفلت منها شيء، فيحتاج صاحبه إلى القيام في طلبه، فيلحقه ضرر الريح، وجبلا طيء مشهوران، يقال لأحدهما أجاء، والآخر سلمى.[3]

أعاذنا الله من ريح الدبور، ونصرنا بالصبا كما نصر رسوله المصطفى، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. مرقاة المفاتيح، 11 /60.
2. دلائل النبوة للأصبهاني، 1 /171.
3. صحيح مسلم بشرح النووي، 15 /42.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يقود المسلمين إلى نصر الله المؤزر في رمضان

يقول الله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.(*)

في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة، كان المسلمون بقيادة الرسول، صلى الله عليه وسلم، على موعد مع نصر عظيم، حيث كانت نتيجة أول معركة حربية فاصلة بين فسطاط الإيمان، وفريق الكفر والباطل، نصراً مؤزراً ارتفعت به معنويات المسلمين، وتحقق لهم على الأرض عزة ومنعة، بعد أن كانوا يعانون من قهر من ناصبوهم العداء، ليس لسبب سوى لأنهم يوحدون الله، ولا يعبدون سواه، وكان المؤمنون في هذه المعركة قلة في العدد والعدة إذا ما قورنوا بأعدائهم، فأثبت هذا النصر أن العبرة ليست بالقلة والكثرة، وإنما هي بأمور أخرى لا يدرك مغازيها إلا من أشرب في قلبه معاني الإيمان وحبه، وانطلق للعمل الجاد في سبيله، وهذا ما كان من الثلة الصادقة التي رضيت بالله رباً، وبالرسول، صلى الله عليه وسلم، نبياً وقائداً ورسولاً، وبالقرآن دستوراً، وآمنت بأن الدنيا دار ممر إلى الآخرة التي هي دار المقر الدائم.

والآية القرآنية أعلاه على قصرها، غير أنها تتضمن قضايا ينبغي الوقوف عندها ملياً، فهي تذكر المسلمين الذين خاضوا معركة بدر، والذين جاءوا من بعدهم بهذا الحدث العظيم الذي يداوي خبره يأس النفوس المحبطة، ويبلسم جراح المؤمنين حين تنتابهم لحظات مرارة بسبب ضعف قوتهم، وقلة حيلتهم، أو يمرون بمراحل يتجرعون فيها كأس الهزيمة، وقسوة القهر، كحالهم حين يتسلط عليهم عدو، بغض النظر عن الزمان والمكان،

* آل عمران: 123.

فتذكر هذه الآية الكريمة بنصر بدر الذي تفضل الله به على عباده الذين اصطفى، رغم قلة عددهم، وبهذا المثل الصادق يؤكد الله تعالى أن الأمل به سبحانه لا ينقطع، فهو القادر على كل شيء، {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[1]، وهو المحيي والمميت، الفعال لما يريد، الذي {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[2]

نصر من الله:

النصر الحق يكون من الله تعالى، مصداقاً لقوله تعالى: {إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[3]، ونصر بدر نُسب فعله في الآية الكريمة إلى الله تعالى، وهو هكذا كان حقيقة في الواقع، فكم هي الآيات الربانية الباهرة التي لمس المشاركون في هذه المعركة وجودها، وبقوا على استغراب منها حتى أخبر القرآن الكريم عن سرها، فالنعاس الذي ينتاب المتعب أو محتاج النوم، كان نعمة من الله على عباده في هذه المعركة، خدم هدف تحقيق السكينة لقلوب المؤمنين، وتغييب الخوف والوجل عن نفوسهم، وكذلك ماء السماء تجند لتسهيل أمر المسلمين، وتلبية حاجاتهم، وعن هذه الآيات تتحدث الآية القرآنية الآتية: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}[4]

فهذه الآيات وغيرها مما أيد الله به رسوله، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه في بدر كانت بمثابة بشرى لهم ولنا، ولكل المؤمنين في العصور والأزمان كلها، وهو القائل عز

1. الأنعام: 18.
2. يس: 82.
3. آل عمران: 160.
4. الأنفال: 11.

وجل: {وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمَ}.[1]

الأخذ بأسباب النصر:

القول إن النصر من الله لا يعني بحال من الأحوال إغفال الاستعداد، والأخذ بالأسباب، معاذ الله أن يقول بهذا مسلم، فالله تعالى أمر بإعداد العدة، والأخذ بالأسباب المادية اللازمة لخوض المعارك الحربية بنجاح، فقال تعالى:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ...}.[2]

وأمر سبحانه بأخذ الحيطة والحذر، وأرشد المسلمين إلى بعض الأساليب الناجعة حين يواجهون عدوهم، فقال جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً}.[3]

فمن متطلبات تحقيق النصر الأخذ بأسبابه جميعها، وعلى رأسها صقل النفوس على إخلاص العبودية لله تعالى، والعمل بما يرضيه سبحانه، ليتحقق بذلك نصر الله من طرف المؤمنين، وحينها ينتظرون تحقيق نصر لهم، والله تعالى أمر المؤمنين بأداء واجبهم نحو نصر دينه، ووعدهم بنصرهم إن فعلوا ذلك، فقال جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}.[4]

ومن العبث بمكان أن يطلب المسلمون نصر الله، وهم يتنكبون دربه، معوجون عن صراطه، منحرفون عن الانصياع لطاعته سبحانه في شأنهم كله، فآيات الله القرآنية

---

1. آل عمران: 126.
2. الأنفال: 60.
3. النساء: 71.
4. محمد: 7.

صريحة في بيان شرط انتصار الله للمسلمين، ومن تلك الآيات، قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ* وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}.(*)

مواقف إيمانية في بدر:

من مواقف معركة بدر التي تعبر عن عمق الإيمان وجذوره الراسخة، موقفان، أحدهما للرسول، صلى الله عليه وسلم، والآخر لأحد أصحابه، أما الأول، فهو دعوته، صلى الله عليه وسلم، الصحابة إلى القيام لجنة عرضها السماوات والأرض، عبر تلبية دعوته إلى المشاركة معه في مواجهة عدو الله وعدوهم، أما الثاني، فكان تبعاً لهذه الدعوة الإيمانية، حيث عبر أحد الصحابة عن عزمه الأكيد، وحرصه البالغ على الاستجابة لها، من خلال المسارعة إليها، والتخلي عن كل ما يعيقه عن ذلك، ويظهر هذان الموقفان، في حديث أَنَسِ بن مَالِكٍ، قال: (فَخَرَجَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَتَكَلَّمَ، فقال: إِنَّ لنا طَلِبَةً، فَمَنْ كان ظَهْرُهُ حَاضِرًا، فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا، فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ في ظُهْرَانِهِمْ في عُلْوِ الْمَدِينَةِ، فقال: لَا إلا من كان ظَهْرُهُ حَاضِرًا، فَانْطَلَقَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وَأَصْحَابُهُ حتى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إلى بَدْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إلى شَيْءٍ، حتى أَكُونَ أنا دُونَهُ، فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ، قال: يقول عُمَيْرُ ابن الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ؟ قال: نعم، قال:

* الصف: 10 – 13.

بَخٍ بَخٍ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: ما يَحْمِلُكَ على قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟ قال: لَا والله يا رَسُولَ اللهِ، إلا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ من أَهْلِهَا، قال: فَإِنَّكَ من أَهْلِهَا، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ من قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَرَاتِي هذه، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قال: فَرَمَى بِمَا كان معه من التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حتى قُتِلَ).(*)

فتح مكة والأمل الدائم بنصر الله القريب:

من المعارك الفاصلة التي قاد الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيها المسلمين إلى نصر الله المؤزر في رمضان، معركة الفتح الأعظم، التي بها عاد والمسلمون إلى مكة فاتحين، وارتفعت راية الحق، وصدح مؤذنه بنداء التوحيد، والشهادة بنبوته، والدعوة إلى الصلاة والفلاح من جنبات الكعبة المشرفة، وإن الله تعالى الذي حقق للمسلمين نصره المؤزر في بدر والفتح الأعظم، قادر على أن ينقذنا مما نحن فيه، فيحرر بلادنا، ويحمي أقصانا، ويطلق سراح أسرانا، ويثبتهم، ويتقبل شهداءنا في عليين، وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأسوة الذي قاد المسلمين إلى نصر الله المؤزر، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، الذين انصاعوا لقيادته والتزموا أمره، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد.

الفصل الخامس
المسجد الأقصى المبارك

الرسول الأسوة صلى اللّه عليه وسلم		
.1	بعد الإسراء جلا اللّه له بَيْتَ الْمَقْدِسِ فأخبر عن آيَاتِهِ وهو يَنْظُرُ إليه	198
.2	استقبل بيت المقدس في بداية عهده بالصلاة	203
.3	يوثق العرى بين المسجد الأقصى والمسجدين الحرام والنبوي ـ الحلقة الأولى	208
.4	يوثق العرى بين المسجد الأقصى والمسجدين الحرام والنبوي ـ الحلقة الأخيرة	213

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
بعد الإسراء جلا الله له بَيْتَ الْمَقْدِسِ فأخبر عن آيَاتِهِ وهو يَنْظُرُ إليه

عن جَابِر بن عبد الله، رضي الله عنهما، أَنَّهُ سمع رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لَمَّا كذبتني قُرَيْشٌ، قُمْتُ في الحِجْرِ، فَجَلا الله لي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عن آيَاتِهِ، وأنا أَنْظُرُ إليه).[1]

أخبر الله تعالى عن إسرائه بالنبي، صلى الله عليه وسلم، من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}.[2]

ولم يكن حدث الإسراء عادياً، بل كان آية عظيمة لم يألف الناس حدوثها بوسائلهم المتاحة وقتها، وقد صعب على عقول البشر تصديق خبر الإسراء حين احتكمت إلى معايير إمكانات البشر، فالأمر فاق قدراتهم، وكان من الطبيعي أن ينكر حدث الإسراء الذين يكفرون بنبوة محمد، صلى الله عليه وسلم، فهرول بعضهم عند سماع خبره إلى أبي بكر، معتقدين أنهم سيواجهونه بما يحرجه، لكنه رضي الله عنه، رد عليهم من منطلق إيمانه الجازم بصدق نبوة الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، ويقينه بقدرة الله تعالى على كل شيء، فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: (لما أسري بالنبي، صلى الله عليه وسلم، إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتدَّ ناس ممن كان آمنوا به، وصدقوه، وسعى رجال

1. صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء.
2. الإسراء: 1.

من المشركين إلى أبي بكر، رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأصدقه ما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة. فلذلك سمي أبو بكر الصديق، رضي الله عنه). (*)

الربط العقائدي بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام:

أكدت حادثة الإسراء على عمق الربط بين المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد الأقصى المبارك في القدس والصلة بينهما، فانطلاق رحلة الإسراء كان من المسجد الحرام، والوجهة كانت المسجد الأقصى، ومن المؤكد أن هذا الربط لم يكن عبثاً، ولا صدفة دون مغزى، بل كان مرتباً ومقصوداً، فالعبثية محالة على الله تعالى، وفعل الإسراء ينسب إليه سبحانه، فهو الذي أسرى، والرسول، صلى الله عليه وسلم، أُسري به، ولم يكن هو فاعل حدث الإسراء، بل إن وصف النبي، صلى الله عليه وسلم، بعبد الله في آية الإسراء يذّكر الناظر في هذا الحدث بأن الفعل ليس فعله صلى الله عليه وسلم، بل هو فعل الله تعالى، الذي هو على كل شيء قدير، والبشر بمن فيهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، يقدرون فقط على الأشياء التي ييسر الله لهم القدرة عليها، ويهيئ لهم أسباب فعلها، ففعل الإسراء برمته هدفاً وصيرورة كان لله وحده، الذي ربط المسجدين العظيمين ربطاً محكماً مثبتاً في التاريخ والأحداث الواقعية، إضافة إلى الآيات القرآنية، حتى يبقى هذا الربط دائماً خالداً إلى يوم القيامة، وهو ربط معزز بجوانب أخرى، منها أن المسجد الحرام هو أول مسجد أقيم

* المستدرك على الصحيحين، 3/ 81.

على وجه الأرض لعبادة الله تعالى، وتبعه المسجد الأقصى بعد ذلك بأربعين سنة.

والمسجدان الحرام والأقصى مضافاً إليهما المسجد النبوي، هي المساجد الثلاثة الوحيدة التي يشرع قصدها بشد الرحال تعبداً إلى الله تعالى.

الصلاة بالنبيين:

ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صلى بالنبيين إماماً خلال رحلة الإسراء والمعراج، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لقد رَأَيْتُنِي في الحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عن مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عن أَشْيَاءَ من بَيْتِ الْمَقْدِسِ لم أُثْبِتْهَا، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً ما كُرِبْتُ مثله قَطُّ، قال: فَرَفَعَهُ الله لي أَنْظُرُ إليه، ما يَسْأَلُونِي عن شَيْءٍ إلا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ، وقد رَأَيْتُنِي في جَمَاعَةٍ من الأَنْبِيَاءِ، فإذا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي، فإذا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ من رِجَالِ شَنُوءَةَ، وإذا عِيسَى بن مَرْيَمَ، عليه السَّلام، قَائِمٌ يُصَلِّي أَقْرَبُ الناس بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بن مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وإذا إِبْرَاهِيمُ، عليه السَّلام، قَائِمٌ يُصَلِّي أَشْبَهُ الناس بِهِ صَاحِبُكُمْ -يَعْنِي نَفْسَهُ- فَحَانَتْ الصَّلَاةُ، فَأَمَمْتُهُمْ، فلما فَرَغْتُ من الصَّلَاةِ، قال قَائِلٌ: يا محمد؛ هذا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ، فَسَلِّمْ عليه، فَالْتَفَتُّ إليه، فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ).(*)

وتدل صلاته صلى الله عليه وسلم إماماً بالأنبياء على الصلة الوثيقة بين الرسالات السماوية وحامليها والدعاة إليها، كما تدل على مكانة رسالة الإسلام فيها، فهي خاتمتها، وآل إليها قيادتها.

المرور على موسى، عليه السلام، عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ:

مما رواه صلى الله عليه وسلم عن خبر الإسراء رؤيته نبي الله موسى، عليه السلام، يصلي

* صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال.

في قبره، فقال صلى الله عليه وسلم: (أَتَيْتُ - وفي رِوَايَةِ مَرَرْتُ - على مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ، وهو قَائِمٌ يُصَلِّي في قَبْرِهِ).[1]

ومعنى الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ، هو الرمل الكثير المجتمع، وموسى، عليه السلام، لم يثبت دخوله ميتاً أو حياً أرض فلسطين، لكنه حين جاءه ملك الموت لقبض روحه، سأله أن يدنيه من الأرض المقدسة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إلى مُوسَى، عَلَيْهِمَا السَّلام، فلما جَاءَهُ صَكَّهُ، فَرَجَعَ إلى رَبِّهِ، فقال: أَرْسَلْتَنِي إلى عَبْدٍ لا يُرِيدُ الْمَوْتَ، قال: ارْجِعْ إليه فَقُلْ له: يَضَعُ يَدَهُ على مَتْنِ ثَوْرٍ، فَلَهُ بِمَا غَطَّتْ يَدُهُ، بِكُلِّ شَعَرَةٍ سَنَةٌ، قال: أَيْ رَبِّ؛ ثُمَّ مَاذَا؟ قال: ثُمَّ الْمَوْتُ، قال: فَالآنَ قال: فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ من الأرض الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ، قال: أبو هُرَيْرَةَ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: لو كنت ثَمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إلى جَانِبِ الطَّرِيقِ، تَحْتَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ).[2]

واختلف أهل السير في موضع قبره، فقيل: بأرض التيه وهارون كذلك، وقيل: لا يعرف قبره، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، أبهم ذلك، بقوله إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر، ولو أراد بيانه لبيَّن صريحاً.[3]

وفي شرح النووي، أن موسى، عليه السلام، طلب الإدناء من الأرض المقدسة، ولم يسأل نفس بيت المقدس؛ لأنه خاف أن يكون قبره مشهوراً عندهم، فيفتتن به الناس.[4]

وورد في شرح النووي على صحيح مسلم، جواب القاضي، عياض رحمه الله: عن التساؤل حول كيف رأى النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، موسى، عليه السلام، يصلي في قبره،

1. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى، صلى الله عليه وسلم.
2. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد.
3. عمدة القاري، 15 /306.
4. صحيح مسلم بشرح النووي، 15 /128.

وصلاته بالأنبياء في بيت المقدس، ووجدهم على مراتبهم في السماوات، وسلموا عليه، ورحبوا به، فقال: إنه يحتمل أن تكون رؤيته موسى في قبره عند الكثيب الأحمر، كانت قبل صعود النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى السماء، وفي طريقه إلى بيت المقدس، ثم وجد موسى قد سبقه إلى السماء، ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم رأى الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، وصلى بهم على تلك الحال لأول ما رآهم، ثم سألوه، ورحبوا به، أو يكون اجتماعه بهم وصلاته ورؤيته موسى، بعد انصرافه ورجوعه عن سدرة المنتهى، والله أعلم.(*)

عسى أن يعزز ما سبق ذكره يقين المسلمين بحقهم في قدسهم وأقصاهم، ويدعم أملهم باسترجاع مسرى نبيهم، صلى الله وسلم عليه، وعلى إخوانه النبيين والمرسلين، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح مسلم بشرح النووي، 2/ 238.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
استقبل بيت المقدس في بداية عهده بالصلاة

عن الْبَرَاءَ، رضي الله عنه، قال: (صَلَّيْنَا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، نحو بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ، أو سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ صَرَفَهُ نحو الْقِبْلَةِ).[1]

فقد استقبل النبي، صلى الله عليه وسلم، والمسلمون معه في بداية العهد بالصلاة بيت المقدس، وكان عليه الصلاة والسلام يتطلع إلى التوجه إلى بيت الله الحرام، فلبى الله تعالى له هذه الرغبة الكريمة، فقال تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}[2]

فالنبي، صلى الله عليه وسلم، (كان يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صلى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى معه قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صلى معه، فَمَرَّ على أَهْلِ مَسْجِدٍ، وَهُمْ رَاكِعُونَ، فقال: أَشْهَدُ بِاللهِ لقد صَلَّيْتُ مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كما هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَتْ الْيَهُودُ قد أَعْجَبَهُمْ، إِذْ كان يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فلما وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، أَنْكَرُوا ذلك... وعن الْبَرَاءِ في حديثه هذا أَنَّهُ مَاتَ على الْقِبْلَةِ قبل أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقُتِلُوا، فلم نَدْرِ ما نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: وما كان الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ).[3]

---

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب {ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات ...} (البقرة: 148)
2. البقرة: 144.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان.

والاستقبال في اللّغة، ضد الاستدبار، واستقبل الشيء وقابله: حاذاه بوجهه.[1]

أهمية بيت المقدس:

يدل استقبال بيت المقدس في الصلاة في بداية الإسلام، على أهمية هذه البقعة الطاهرة التي باركها الله تعالى، وأسرى بنبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، إليها من مكان القبلة الثانية، مما يدل على عمق الصلة العقائدية والمصيرية بين المسجدين الحرام والأقصى، ولولا أهميتهما لما كان استقبالهما شرطاً لصحة أداء أبرز أهم أركان الإسلام.

والمسجد الحرام يتصدر المساجد التي بنيت على وجه الأرض، من ناحية زمن إقامته، ومن ناحية مكانته، وفضل الصلاة فيه، والمسجد الأقصى تشد إليه الرحال، ويتضاعف أجر الصلاة فيه، ويحظى بالدرجة الثانية بعد المسجد الحرام من ناحية زمن الإنشاء، فعن أبي ذَرٍّ، قال: (قلت: يا رَسُولَ اللهِ؛ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأرض أَوَّلُ؟ قال: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى، قلت: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قال: أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ، فَهُوَ مَسْجِدٌ).[2]

تحويل القبلة:

من الأحداث الفاصلة في حياة المسلمين وتاريخهم تحويل قبلتهم من بيت المقدس، إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، والمسجد الذي نزل أمر الله تعالى بتحويل القبلة والمسلمون والرسول، صلى الله عليه وسلم، يصلون فيه، يُعْرف الآن في المدينة المنورة بمسجد القبلتين، وكان زائرو المدينة المنورة يهتمون بزيارته في معظم الأحيان.

واختلف العلماء في تحديد تاريخ تحويل القبلة، فبعضهم -بل أكثرهم- يقولون:

---

1. لسان العرب، 12/ 14.
2. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

إن هذا الحدث كان في رجب من السنة الثانية للهجرة[1]، وبعضهم يقول: إنه كان في النصف من شهر شعبان من السنة نفسها، وبغض النظر عن هذا الاختلاف، فالمهم عقائدياً وعملياً وواقعياً أن القبلة حولت بأمر الله، إلا أن بعض المغرضين من المتربصين بالإسلام وأهله، استغلوا حدث تحول القبلة لإثارة الطعن والتشكيك في الدين، متجاهلين أن الإسلام يقتضي الخضوع لأمر الله تعالى في الأمور كلها، صغيرها وكبيرها، من هنا أنزل الله تعالى قرآناً يشير إلى هذا التشكيك، ويرشد إلى الرد عليه، فقال سبحانه:{سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.[2]

وقد كان لله حكمة بالغة من تحويل القبلة، يسلم بها المؤمنون، ويشكك بها الكافرون الجاحدون، وعن بعض نواحي هذه الحكمة، يقول عز وجل: {...وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}.[3]

فالذين يحتجون على تحويل القبلة، أو يشككون في الحكمة منها سفهاء جهال، بشهادة الله تعالى، فالكون كله خلق الله، وهو سبحانه يصرّف الأمور فيه كيف يشاء، فهو المحي والمميت، وهو القاهر فوق عباده، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ولله الأمر من قبل ومن بعد. شاء من شاء، وأبى من أبى.

أهمية استقبال القبلة وحكمه:

القول الفصل في تحديد الوجهة التي يتوجه إليها المسلمون في صلاتهم لم يكن لأحد

1. فتح الباري، 1 /97.
2. البقرة: 142.
3. البقرة: 143.

إلا لله تعالى، حتى النبي، صلى الله عليه وسلم، لم يملك قرار تغيير القبلة، وهكذا الأمور العظيمة تنحصر قراراتها بأعلى الجهات المسؤولة، ولله المثل الأعلى دائماً.

ومن عناصر وحدة المسلمين، ودلالات لزومها، أنهم يستقبلون في صلاتهم قبلة واحدة، وإذا ما فعلوا ذلك تعاظمت حرمتهم على بعض، فرسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من صلى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الذي له ذِمَّةُ اللهِ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فلا تُخْفِرُوا اللهَ في ذِمَّتِهِ).[1]

وقد اتفق العلماء على أن استقبال القبلة شرط لصحة الصلاة، لقوله تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَما تَعْمَلُونَ}.[2]

ويكون استقبال القبلة بالتوجه إلى عينها لمن يشاهدها ساعة صلاته، أما الذي يريد الصلاة، وهو بعيد عن عينها، فيتوجه إلى جهتها، أي ناحيتها، وفي هذه الحالة يطلب من المصلي أن يبذل الجهد في التوجه إلى الناحية الصحيحة للقبلة، دون تعسير، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ومن الطبيعي أن يقع من الناس انحراف عن عين القبلة في حالة التوجه إلى جهتها، ولا شيء عليهم في ذلك، ما داموا توجهوا إلى جهتها كما أمروا.

والذي يكون لديه عذر مقبول شرعاً، يمنعه من استقبال القبلة في صلاته، يصح له ترك هذا الشرط، والصلاة إلى غير جهتها، وفي هذا يقول تعالى: {وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.[3]

ويمكن الاستعانة بالأجهزة في تحديد جهة القبلة للبعيد عن عينها، فالبوصلة مثلاً من

1. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب فضل استقبال القبلة.
2. البقرة: 149.
3. البقرة: 115.

خلال خطوط الطول والعرض، يحدد مؤشرها جهة القبلة من مكان تواجد مستخدمها البعيد عن عين الكعبة المشرفة. وصارت هذه الإمكانية اليوم متوافرة أكثر من خلال كثير من أجهزة الهواتف النقالة، التي بات يحملها الصغير والكبير من الناس، وفي كل الأوقات.

ومن أهمية القبلة تأكيد حرمتها، ولزوم احترامها، فالنبي، صلى الله عليه وسلم: (رَأَى نُخَامَةً فِي الْقِبْلَةِ، فَشَقَّ ذلك عليه حتى رُئِي فِي وَجْهِهِ، فَقَامَ، فَحَكَّهُ بيده، فقال: إِنَّ أَحَدَكُمْ إذا قام في صَلاتِهِ، فإنه يُنَاجِي رَبَّهُ، أو إِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فلا يَبْزُقَنَّ أحدكم قِبَلَ قِبْلَتِهِ، وَلَكِنْ عن يَسَارِهِ، أو تَحْتَ قَدَمَيْهِ، ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ، فَبَصَقَ فيه، ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ على بَعْضٍ، فقال: أو يَفْعَلُ هَكَذَا؟!). (*)

كما ورد النهي عن استقبال القبلة أو استدبارها عند قضاء الحاجة، وفي المقابل؛ فمن المأثور استقبال القبلة عند أداء بعض العبادات الأخرى، إضافة إلى الصلاة، مثل استقبالها عند الشروع بالإحرام للحج، وأثناء بعض أعماله الأخرى، حفظ الله للمسلمين قبلتَيْهم الأولى والأخيرة، وجعلنا من أهل القبلة المتحابين في الله، من المرابطين في بيت المقدس وأكنافه، ويعمرون مساجده، وبخاصة المسجد الأقصى المبارك.

وصلى الله وسلم على رسولنا الأسوة، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب حك البزاق باليد من المسجد.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يوثق العرى بين المسجد الأقصى والمسجدين الحرام والنبوي ـ الحلقة الأولى

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ؛ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ، صلى الله عليه وسلم، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى). [1]

يحصر النبي، صلى الله عليه وسلم، تشريع شد الرحال بمعنى قصد السفر بنية التعبد، ونيل المثوبة في ثلاثة مساجد، دون سواها، وفي عمدة القاري، أن قوله: (لا تُشَدُّ الرِّحَالُ) جاء على صيغة المجهول بلفظ النفي بمعنى النهي، بمعنى لا تشدوا الرحال، ونكتة العدول عن النهي إلى النفي؛ لإظهار الرغبة في وقوعه، أو لحمل السامع على الترك أبلغ حمل بألطف وجه. وقال الطبري: النفي أبلغ من صريح النهي، كأنه قال: لا يستقيم أن يقصد بالزيارة إلا هذه البقاع؛ لاختصاصها بما اختصت به.[2]

فالمسجد الأقصى أحد مساجد ثلاثة اختصت بإثابة من يشد الرحال إليها، غير أنه -وللأسف الشديد- يعاني الأمرّين جراء جريمة الاغتصاب البشعة التي ألمت به، وبما حوله من الأرض الطهور التي باركها الله، فهو محتل منذ عقود عجاف، بل ومستهدف بحرب ضروس، تحاول أن تنال من بنيانه وقداسته وحرماته وروادة، ضمن خطة ممنهجة، كُشِف النقاب عن بعض أطرافها، ودخلت بعض أجزائها حيز التنفيذ، وباقيها في الطريق إلى الوجود إن بقي التثاقل عن نصرة المسجد الأقصى سيد مواقف العرب والمسلمين.

1. صحيح البخاري،كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.
2. عمدة القاري، 7/ 252.

وفي هذه الأيام يلتقي أداء الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، وزيارة المسجد النبوي من قبل أعداد ضخمة من مسلمي العالم؛ عربه وعجمه، وذلك بالتزامن مع انتهاك حرمات قبلة المسلمين الأولى، ومسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم، ويجري هكذا تناقض على مرأى من الناس جميعاً، مسلمهم وغيره، ففي فترة أداء مناسك الحج لهذا العام 1436هـ توالت انتهاكات المحتل ومتطرفيه لحرمات المسجد الأقصى والمرابطين فيه، والمصلين في جنباته، فحدث في هذه الأيام ما لم يحدث منذ احتلال القدس عام 1967م، حيث وصل جنود الاحتلال بأحذيتهم محراب المسجد.

والسؤال الذي يشرع طرحه في هذا المقام، يتلخص في استيضاح موقف الأمة برمتها التي يتوافد أبناؤها بالملايين سنوياً لأداء الحج في موسمه، والعمرة عبر أيام العام الأخرى، أين هم؟! وأين مواقفهم الفاعلة مما يجري في صنو المسجدين؟! كيف لا يكون صنوهما، وفيه وإياهما تنحصر مشروعية شد الرحال، من بين مساجد الدنيا بأسرها، وفي إحدى روايات الإمام مسلم في صحيحه، ورد استخدام لفظ السفر بدل شد الرحال، وورد ذكر المسجد الأقصى بذكر القدس التي تحتضنه، وذلك من خلال ذكر أحد أسمائها القديمة، فعن أبي هُرَيْرَة، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (إنما يُسَافَرُ إلى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ؛ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ، وَمَسْجِدِي، وَمَسْجِدِ إِيلِيَاءَ). (*)

والرسول، صلى الله عليه وسلم، عمل على توثيق العرى بين المساجد الثلاثة، بقوله وفعله، وبالآيات القرآنية التي بلغها عن ربه عز وجل، فبالإضافة إلى اشتراك هذه المساجد الثلاثة بمسألة حصر شد الرحال بها وإليها، هناك وشائج توثيقية أخرى لعرى هذه المساجد ليس لأحد أن ينكرها أو يتجاهلها، فأول مسجد وضع في الأرض كان المسجد

* صحيح مسلم، كتاب الحج، باب لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.

الحرام في مكة، ثم تبعه في الوجود على ظهر البسيطة المسجد الأقصى، والرسول، صلى الله عليه وسلم، أسري به من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس، وكانت وجهة المسلمين في صلاتهم أول الأمر إلى بيت المقدس، ثم طرأ عليها تحويل، فصارت إلى المسجد الحرام في مكة المكرمة.

ثاني مسجد وضع في الأرض:

من المعلومات التاريخية الثابتة بيقين، أن أول مسجد وضع في الأرض لعبادة الله هو المسجد الحرام، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ}[1]، ثم لحق المسجد الحرام في الوجود على وجه البسيطة، المسجد الأقصى، فعن أبي ذَر، قال: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، عن أَوَّلِ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأرض، قال: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى، قلت: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قال: أَرْبَعُونَ عَامًا، ثُمَّ الْأَرْضُ لك مَسْجِدٌ، فَحَيْثُمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ، فَصَلِّ).[2]

فلماذا يا ترى كان المسجد الأقصى هو الثاني في الوجود؟ ولماذا كان هو ولم يكن سواه؟ ولماذا عني الرسول، صلى الله عليه وسلم، بذكر هذه الحقيقة التاريخية والواقعية؟ من حق المتدبر في هذه الحقائق، والمفكر في هذه التساؤلات، أن يؤكد دلالاتها على عمق الرابط بين المسجدين، وأنه رباط عقائدي رباني، شاء من شاء، وأبى من أبى.

فهو رباط بين مساجد عظيمة، يفترض في المسلمين عبر الزمان والمكان كليهما، أن يدركوا قدرها، ويحموا حماها، مهما تطلب ذلك من جهود، وتضحيات جسام، فالأمر جلل، والمسألة عقائدية بامتياز.

---

1. آل عمران: 96.
2. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

الإسراء:

من أوثق العرى بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى تلك المتمثلة في رحلة الإسراء من الأول في مكة، إلى الثاني في القدس، والتي أتبعت برحلة المعراج منه إلى السماء، وكان يمكن أن تتم رحلة المعراج من مكة دون رحلة الإسراء، لكن الله تعالى أرادها من القدس بعد رحلة السير الربانية ليلاً من مكة، واهتم القرآن الكريم بذكر هذه الرحلة، وسميت إحدى سوره بالإسراء، التي افتتحت آياتها بخبر تلك الرحلة الميمونة، حيث يقول تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (*)، ومن المحال أن يكون حدوث تلك الرحلة قد تم صدفة أو عبثاً، وإنما هي إرادة العلي القدير؛ لحكم جليلة من لدنه سبحانه، من أعظمها ذلك الربط الإيماني ذو الحبل المتين بين المسجدين العظيمين الحرام والأقصى، حيث وثق الله تعالى هذا الرباط بفعل الإسراء وآيته القرآنية، التي يردد قراءتها مسلمو الدنيا بأسرها، والذين يرجى أن يتعمقوا في تدبر معانيها ومقاصدها وأسرارها؛ لأنهم إن فعلوا ذلك لن يضيعوا مسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم، ولن يفرطوا في ذرة من ترابه، ولا في جزء من مساحته التي تربو عن 144 دونماً، كلها المسجد الأقصى، وليس المباني المشيدة، أو القباب القائمة فحسب، بل هو تلك وغيرها مما تضمه أسوار المسجد الأقصى يميناً وشمالاً، شرقاً وغرباً، حيث باب الأسباط في زاويته الشمالية الشرقية حتى باب الغوانمة في زاويته الشمالية الغربية امتداداً إلى باب المجلس أو الناظر غرباً وصولاً إلى بابي السلسلة ثم المغاربة في زاويته الجنوبية الغربية، مروراً بالمصلى المرواني، ووصولاً إلى باب الرحمة في جانبه الشرقي، فهي سلسلة من الأبواب

* الإسراء: 1.

والأسوار تلف محيط المسجد الأقصى، الذي تعود ملكيته بأجزائه جميعها لمسلمي العالم الغابرين والحاضرين والقادمين، بُترت يدا من يتنازل عن شبر منها، وفُقئت عينا من يفرط بذرة من ترابها، وصُمت أذان من يسمعون صراخه ولا يغيثونه وهم يقدرون على ذلك، وقُطِع لسان الساكت عن نصرته تخاذلاً.

فهذا عرض موجز لحقائق عقائدية، تؤكد عمق الصلة بين المسجد الأقصى في القدس والمسجدين الحرام في مكة والنبوي في المدينة المنورة، يؤمل من التذكير بها تنبيه المسلمين إلى ضرورة أن يقدروا للمسجد الأقصى قدره، وأن ينبروا لحمايته، وأن يرفضوا مشاريع تجزئته، وإجراءات تدنيسه، حماه الله من كل كيد، وحفظ المرابطين فيه من كل سوء وشر، وإلى لقاء آخر لمتابعة الحديث في الحلقة القادمة من هذه الزاوية الصحفية عن توثيق العرى بين المسجد الأقصى المبارك والمسجدين الحرام والنبوي، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يوثق العرى بين المسجد الأقصى والمسجدين الحرام والنبوي ـ الحلقة الأخيرة

تعرضت الحلقة السابقة من هذه الزاوية إلى عمل الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، على توثيق العرى بين المساجد الثلاثة الأعظم في الإسلام، وتم هذا التوثيق بقوله صلى الله عليه وسلم وفعله، وبالآيات القرآنية التي بلّغها عن ربه عز وجل، فوقف عند اشتراك المساجد الثلاثة بحصر شد الرحال بها وإليها، وتم التذكير بأن المسجد الأقصى تبع المسجد الحرام في الوجود على ظهر البسيطة، واستخلصت دلالات من حادثة الإسراء على عمق العلاقة بين المسجدين الحرام والأقصى، وأنها علاقة عقائدية بامتياز، وتتابع هذه الحلقة الحديث عن قضايا وموضوعات ذات صلة بتوثيق العرى بين المسجد الأقصى والمسجدين الحرام والنبوي، بادئة بالوقوف عند قضية تحويل القبلة.

قبلة الصلاة:

من المعلومات التاريخية الثابتة أن المسلمين في بداية عهدهم بالصلاة والإسلام كانوا يتوجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس، حتى جاءهم الأمر الرباني بتغيير الوجهة إلى البيت الحرام، وسجل هذا الأمر في آيات قرآنية، قال الله تعالى فيها: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}.(*)

لكن المشككين، والمتربصين بالإسلام والمسلمين، اعترضوا على تحويل القبلة، وعن

* البقرة: 144.

ذلك يقول تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.[1]

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد مكث ما يقارب العام ونصف يتوجه والمسلمون في صلاتهم إلى بيت المقدس، فعن الْبَرَاءِ، رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، صلى إِلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أو سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وكان يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صلى أو صَلاّهَا صَلاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى معه قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كان صلى معه، فَمَرَّ على أَهْلِ الْمَسْجِدِ، وَهُمْ رَاكِعُونَ، قال: أَشْهَدُ بِاللهِ، لقد صَلَّيْتُ مع النبي، صلى الله عليه وسلم، قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كما هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وكان الذي مَاتَ على الْقِبْلَةِ، قبل أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ، رِجَالٌ قُتِلُوا، لم نَدْرِ ما نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ الله: {وما كان الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لرؤوف رَحِيمٌ}).[2]

فهل يا ترى كان التوجه الأول في الصلاة إلى بيت المقدس، ومن ثم التحول عنه إلى القبلة الأخرى محض صدفة؟! محال ذلك بالتأكيد، وإنما هي الحِكَم الربانية، التي من آكدها الربط العقائدي الوثيق بين المسجدين الأقصى والحرام، في أدق القضايا، وأبلغ الأمور، تلكم هي الصلاة وقبلتها، ومعلوم مقام الصلاة في الإسلام، فهي عموده، وأول ما يسأل عنه المرء يوم القيامة، وبها يفصل بين المسلم وغيره، من أقامها أقام الدين، ومن هدمها هدمه، واستقبال القبلة شرط لصحتها، ولماذا لم تكن قبلة واحدة من البداية إلى النهاية؟ ولماذا كانت الأولى بيت المقدس، والأخرى البيت الحرام؟ من المحال أن يكون ذلك محض صدفة، ولا مجرد خيارات وبدائل عادية، وإنما هو ربط محكم بين المسجدين العظيمين

1. البقرة:142.

2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب قوله تعالى: {سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} (البقرة: 142)

بوساطة عمود دين الإسلام، ومحط الصلة المتكررة بين المسلم وربه، فكيف يقبل إذن ممن يصلي متوجهاً في قبلته إلى البيت الحرام أن ينسى حق القبلة الأولى عليه؟!!

جريمة تقسيم المسجد الأقصى:

يدور الحديث حالياً في مختلف الأوساط المتابعة لقضية المسجد الأقصى عن خطط إحلالية وضعها المحتل لتقسيم المسجد الأقصى زمانياً ومكانياً؛ تمهيداً لهدمه، وإقامة الهيكل المزعوم مكانه، والتقسيم المذكور له صورة سابقة، تتمثل فيما جرى للمسجد الإبراهيمي في مدينة الخليل، والمحتل يهدف إلى إحداث تغيير على أرض الواقع لخدمة أطماعه، وتماشياً مع إستراتيجيته العدوانية ضد العرب والمسلمين ومقدساتهم وبخاصة في القدس وفلسطين، ويجري تنفيذ هذا الإحداث الإحلالي، من خلال مسارات معدة بإحكام، يقوم بعضها على إحداث خلل في العامل الديمغرافي المتعلق بالسكان وأعدادهم، من خلال تقليص أعداد العرب والمسلمين الموجودين في القدس والوافدين إليها، تحت مظلة الضغوط الاقتصادية والإسكانية الممارسة ضدهم باسم القوانين الجائرة التي يشرعها المحتل حسب مزاجه ومقاساته، إضافة لعامل الرعب والمضايقات البدنية وفرض القيود على حرية التنقل والحركة، وعرقلة بناء علاقات اجتماعية مع أبناء الجلدة والدين من سكان المناطق الأخرى من داخل فلسطين وخارجها، وفي مقابل مسار إفراغ القدس من مواطنيها العرب بأساليب ووسائل ما ذكر ليس إلا عينة منها، فالعمل يجري على قدم وساق على إسكان المستوطنين في القدس، والاستيلاء على العقارات لصالح سكنهم، وتعبدهم، وتوفير سبل العيش، ورفاهية الحياة لهم، دون نظر إلى سقف الكلف المالية اللازمة لذلك، ونتيجة لاستخدام هذين المسارين الرئيسين يتم تفعيل عملية الإحلال المقصودة، والمتمثلة في طرد العربي والمسلم من بلده وداره مقابل ترسيخ وجود

المستوطن المستعمر مكانه، ومن المقدمات لهذا التقسيم تلك الإجراءات العدوانية، التي يمارسها المحتل ضد المصلين الذين يحصر دخولهم المسجد في أيام أو ساعات معينة، ويحدد أعمار الداخلين إليه، ويضع قوائم سوداء لممنوعين وممنوعات من دخوله، من حملة الهوية الإسرائيلية الزرقاء، يعني من سكان القدس والمناطق المحتلة عام 1948م، إضافة إلى عرقلة قدوم أبناء الضفة الغربية إلى القدس إلا في نطاق تصاريح شرطية محدودة، وضمن شروط يخفف من بعضها خلال شهر رمضان، كل ذلك يعني أن إفراغ القدس والمسجد الأقصى من العرب والمسلمين مقصود لذاته، في مقابل الإفساح المنظم لقدوم اليهود إليه، وبعضهم يتاح له أن يمارس طقوسه الدينية تحت حراسة الشرطة ورعايتها، وبعض هذا القدوم يكون بمشاركة مسؤولين رسميين من وزراء وأعضاء برلمان أو أحزاب معينة، وبعضهم يكونون من جماعات ترتدي البزات العسكرية والملابس الدينية، وما كانت مثل هذه الخروقات تتم سابقاً بهذا الحجم وعلى هذا النطاق من التكرار، والحماية، والجهر بها، والوضوح في أداء الطقوس الدينية من قبل منتهكي حرمة المسجد الأقصى وخصوصيته للمسلمين دون سواهم، ويبدو أن ما حصل في المسجد الإبراهيمي في الخليل هو النموذج المحتذى لما سيصير عليه الشأن في المسجد الأقصى، وذلك خلال المراحل الأولى من العدوان عليه، والتي يخشى أن تتوج بما هو أعظم، حين تخصص أجزاء من المسجد لأداء طقوس تخص المحتلين ومتطرفيهم، وممارسة عاداتهم الاجتماعية من زواج وطهور وحفلاتهم الأخرى، بل يخشى أن يكون المنتظر الأعظم من قبلهم قادم، وهو تدمير مسجد قبة الصخرة، أو المسجد القبلي لإقامة الهيكل المزعوم مكانه.

المطلوب الأدنى للمسجد الأقصى:

المسجد الأقصى أولى القبلتين، ومسرى الرسول، صلى الله عليه وسلم، وثاني

مسجد وضع في الأرض، وأحد المساجد الثلاثة التي يشرع للمسلم أن يشد الرحال إليها، ما يجري فيه الآن فظيع، وينذر بقادم رهيب، إذا لم يقم مسلمو الدنيا بمختلف مستوياتهم حكاماً وشعوباً وأحزاباً وعلماء بواجبهم نحوه، على الأصعدة كافة، والمطلوب ممن يستطيعون الوصول إلى المسجد الأقصى أن يواظبوا على شد الرحال إليه، وإعماره بالصلاة اليومية، وحضور دروس العلم فيه، وحلقات الذكر، على أن تكون بوصلتهم واحدة، متجهة نحو التقرب إلى الله تعالى في الاعتكاف فيه والمرابطة على ثغوره، مع لزوم تنحية الخلافات الفكرية والسياسية والحزبية والمذهبية جانباً، فلا مجال يتسع الآن لغير نصرة المسجد الأقصى، والاجتهاد في ذب الخطر عنه، والدعاء إلى الله العلي القدير أن يحفظه من كل شر ودنس وكيد، وأن يحرس حراسه، والمرابطين فيه، بعين رعايته، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الفصل الخامس
مناهج وقيم

	الرسول الأسوة صلى الله عليه وسلم	
.1	يحث على مساندة الأسرى	219
.2	يعلم البشرية مكارم الأخلاق في التعامل مع أطفال المحاربين	225
.3	يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الأولى	230
.4	يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الثانية	234
.5	يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الثالثة	239
.6	يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الرابعة	245
.7	يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الخامسة	250
.8	يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الأخيرة	255

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يحث على مساندة الأسرى

عن أبي مُوسَى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (فُكُّوا الْعَانِيَ -يَعْنِي الْأَسِيرَ- وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ).[1]

يوافق اليوم ذكرى يوم الأسير الفلسطيني، الذي من حقه على أبناء شعبه وأمته أن يساندوه مادياً ومعنوياً، بكل ما أوتوا من قوة وإمكانات، فالأسرى قدموا أغلى ما يملكون من أرواح وحريات وأموال؛ دفاعاً عن حرية شعوبهم، وكرامتهم، وحقوقهم المشروعة، وهؤلاء الأبطال لا يشترطون على أحد رداً مقابل ما قدموا، لكن الواجب الديني والأخلاقي يلزم من وراءهم من الناس التنبه إلى هذا الدّين العظيم، المعلق في رقابهم، ليقضوه بشتى السبل المتاحة والممكنة، فذكر هذه الفئة المناضلة، وعدم نسيانهم، والوقوف إلى جانب تضحياتهم، ومؤازرة ذويهم بالدعم المادي والمعنوي، هو حق واجب لهم، وليس مناً ولا إحساناً من أحد عليهم، والرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه المذكور أعلاه، يحث على مساندة الأسرى، من خلال أمره بفك قيودهم، والعمل على إطلاق سراحهم.

والتفسير الوارد في الرواية بأن العاني هو الأسير، ليس من كلامه صلى الله عليه وسلم، وإنما قاله بعض رواة الحديث.[2]

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير.
2. عمدة القاري، 14 /294.

الأسير الشهيد جعفر إبراهيم عوض:

زفت فلسطين قبل أسبوع أسيراً محرراً ارتقى شهيداً إلى جنات الخلد إن شاء الله تعالى، ذلكم هو الشهيد جعفر إبراهيم عوض، الذي استشهد فجر يوم الجمعة الماضي 10 نيسان 2014 م، من بلدة بيت أمر في محافظة الخليل، واستشهد إثر تدهور خطير طرأ على وضعه الصحي. حيث لم تتمكن الطواقم الطبية من إنقاذ حياته، علماً أنه أدخل قسم العناية المكثفة نتيجة تدهور وضعه الصحي، بعد الإفراج عنه من سجون الاحتلال قبل ثلاثة شهور لسوء وضعه الصحي، الذي تسبب به الإهمال الطبي المتواصل خلال فترة اعتقاله إلى أن استفحل به المرض.

ونقلت مصادر صحفية عن جمعية نادي الأسير الفلسطيني أن الشهيد (واحد من مئات ضحايا سياسة الإهمال الطبي، التي ما تزال تمارسها سلطات الاحتلال، وإدارة سجونها، بحق مئات آخرين من الأسرى المرضى، الذين يواجهون سياسة مبرمجة عنوانها: الموت بل القتل للأسرى).

كل ذلك لأنهم يطلبون الحرية والكرامة، فيُواجهون بألوان العذاب النفسي والجسدي من قبل السّجان، مغتصب حريتنا، وأرضنا، ومقدساتنا، الذي يتفنن في قمعهم، وتشديد الخناق عليهم، وعلى ذويهم، الذين يواجهون صنوف العذاب بسبب غياب فلذات أكبادهم، أو أرباب أسرهم، أو إخوانهم عنهم، حتى عند زيارتهم لا يَسْلمون من قمع المحتل، باستخدام التفتيش المهين، وطول الانتظار، والتلذذ في صور القهر والإذلال وأشكالهما، هذا في حال سمح بالزيارات المعدودة في العام، وفي أحيان كثيرة يحرم خواص الأسير وأقاربه من الدرجة الأولى من زيارته، تحت ذريعة السبب الأمني المجهول، الذي

يطال كبار السن وصغارهم، رجالهم ونساءهم.

معاملة الإسلام للأسرى:

يحظى الأسرى بعناية الإسلام ورعاية المسلمين، فالله تعالى أثنى على من يطعم الأسير، فقال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}.(*)

وواقع المسلمين حين يحتكمون إلى إسلامهم، ويعملون وفق قيمه وأحكامه يشهد صفحات ناصعة في مجال معاملة أسرى غير المسلمين لديهم، وكتب الفقه تزخر بأحكام معاملة الأسير وضوابطها، سواء ما تعلق من ذلك بحياته، وعلاجه، وإطعامه، وحفظ كرامته، وإفساح المجال لفدائه ومبادلته، حتى إن المسلمين استثمروا مشروع فداء الأسرى المحتجزين لديهم لخدمة الازدهار المجتمعي والارتقاء الإنساني، حين قبلوا الفداء من الذي يُعلّم عدداً من أبناء المسلمين القراءة والكتابة.

دعم صمود الأسرى وعائلاتهم واجب شرعي ووطني:

إن دعم صمود الأسرى وعائلاتهم يعد واجباً شرعيّاً ووطنيّاً، يجب القيام به، خاصة في ظل تعنت سلطات الاحتلال، وقمعها لهم بمنعهم من أبسط متطلبات الحياة التي يستحقها الإنسان، ويجدر بالمواطنين الكرام العمل على مساندة لجان الأسرى الفلسطينيين وأهلهم، والتصدي لممارسات الاحتلال التي ترمي للنيل من عزيمتهم، ومن صور دعم الأسرى؛ المشاركة في الفعاليات الرسمية والشعبية لدعمهم، كونها تعمل على رفع معنوياتهم، وتظهر للعالم قوتنا ووحدتنا، فقضية الأسرى يجب أن تتقدم القضايا كلها، وأن تظل حَيّة في الظروف جميعها، حتى يخرج آخر أسير من سجون الاحتلال، ومن الأهمية بمكان

* الإنسان: 8.

القيام بمبادرات فاعلة تجاه حث حكومات العالم ومنظماته على مناصرة قضية الأسرى.

وحكم فكاك الأسير فرض على الكفاية، وعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: (فكاك أسرى المسلمين من بيت المال).[1]

استحضار الاهتمام باستحقاقات الأسرى في الصلاة والدعاء:

عن أَبي هُرَيْرَة، قال: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول حين يَفْرُغُ من صَلاةِ الْفَجْرِ من الْقِرَاءَةِ، وَيُكَبِّرُ، وَيَرْفَعُ رَأْسَهُ: سمع الله لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، ثُمَّ يقول، وهو قَائِمٌ: اللهم أَنْجِ الْوَلِيدَ بن الْوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بن هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بن أبي رَبِيعَةَ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ من الْمُؤْمِنِينَ...).[2]

فهذا الحديث الشريف يظهر مدى اهتمام الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقضية الأسرى ونصرتهم، فيجعل لهم حظاً من دعائه في صلاته وقنوته، ورد في عمدة القاري قوله: (أَنْجِ) أمر من أنجى، والأمر في مثل هذا التماس وطلب، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يدعو بالنجاة لهؤلاء الثلاثة، الذين اكتوا بنار المضايقة والحبس والقهر.

جريمة التقاعس عن مناصرة قضية الأسرى:

أسرى الحرية هم الأجدر بالاهتمام والرعاية والتقدير؛ لأنهم قدّموا الأغلى في سبيل دينهم، ووطنهم، وأمتهم، وكرامتهم، فإن نسيهم العالم، يجب أن لا ينساهم أبناء شعبهم وأمتهم؛ وذلك لأن نسيانهم ليس له عقاب في الآخرة، سوى نسيان الله لمن نسيهم؛ لأنهم قعدوا عن نصرة إخوانهم في ساعة العسرة، فينبغي رفع الصوت عالياً؛ نصرة

---

1. عمدة القاري، 14 /294.

2. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة.

للأسرى الذين يُحْتَجَزون رهائن في سجون الاحتلال.

وقد أنكر الله تعالى على الأمة الإسلامية تقاعسها عن تخليص المستضعفين من أبنائها، فقال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً}.[1]

فضل إعالة ذوي الشهداء والأسرى:

كثيرة هي النصوص الشرعية، التي تحث على الإنفاق في سبيل الله، وتبين فضله وأهميته، والتي منها ما رواه أبو مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ، قال: (جاء رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فقال: هذه في سَبِيلِ اللهِ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لَكَ بِها يَوْمَ الْقِيَامَةِ سبع مائة نَاقَةٍ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ.[2]).[3]

وسبيل الله أحد مصارف الزكاة الثمانية، التي حددها القرآن الكريم، فقال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[4]، وفي تفسير القرطبي: (أن سهم (في سبيل الله) يقصد به الغزاة، وموضع الرباط، يعطون ما ينفقون في غزوهم، كانوا أغنياء أو فقراء، وهذا قول أكثر العلماء)[5]، ومن مستلزمات حاجة الغزاة والأسرى،

---

1. النساء: 75.
2. المقصود بالناقة المخطومة: التي فيها خِطام، وهو الحبل الذي يعلق على حلق البعير، ثم يعقد على أنفه، ليقاد به لسان العرب، 5/ 105 - 106.
3. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها.
4. التوبة: 60.
5. تفسير القرطبي، 8 /185.

الإنفاق على من يعولون خلال فترة غيابهم عنهم.

وبما أن الأسرى والشهداء هم الأكرم منا جميعاً، فينبغي أن توجه الجهود والمساعي الخيّرة لإكرام ذويهم من آباء وأمهات وزوجات وأبناء وبنات؛ ليعيشوا حياة كريمة، من خلال تعويضهم عن غياب معيلهم الأسير أو الشهيد، وتسهيل سبل تعليم أبنائهم، وإعطائهم فرصاً خاصة في الوظائف المناسبة لمؤهلاتهم وقدراتهم.

سائلين الله العلي القدير أن يحرر أسرانا، ويطلق سراحهم، ويحسن خلاصهم، وأن يجزيهم عن دينهم ووطنهم وأمتهم وأهلهم خير الجزاء، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يعلم البشرية مكارم الأخلاق في التعامل مع أطفال المحاربين

عن سُلَيْمَانَ بن بُرَيْدَةَ، عن أبيه، قال: (كان رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: إذا أَمَّرَ أَمِيرًا على جَيْشٍ، أو سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ في خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ معه من الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قال: اغْزُوا بِاسْمَ اللهِ في سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا من كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغْدِرُوا، ولا تَمْثُلُوا، ولا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ...).[1]

الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يركز في وصاياه الأخلاقية لأمراء جنده وجيوشه قبيل توجههم لملاقاة محاربين من أعداء الإسلام، بضرورة التحلي بمجموعة من القيم التي يحرص الإسلام على دوام التحلي بها، في السلم والحرب، مع الأحباب والأعداء، ولم تكن الوصايا المذكورة أعلاه مجرد دعاية إعلامية، ولا مزايدة على أحد من الخلق، وإنما هي أخلاق الإسلام على حقيقتها، دون زيف، وبعيداً عن مشاهد العنف المختلق من قبل جهات تعمل لصالح أجندة مسخرة لتشويه صورة الإسلام، وأخلاقه، وقيمه.

وتعقيباً على شرح هذا الحديث الشريف، يقول النووي: وفي هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها، وهي تحريم الغدر، وتحريم الغلول، وتحريم قتل الصبيان، إذا لم يقاتلوا، وكراهة المثلة، واستحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى، والرفق بأتباعهم، وتعريفهم بما يحتاجون في غزوهم، وما يجب عليهم، وما يحل لهم، وما يحرم عليهم، وما يكره.[2]

---

1. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها.

2. صحيح مسلم بشرح النووي، 12/ 37.

لا تَغْدِرُوا ... ولا تَقْتُلُوا وَلِيدًا:

هذا التوجيه النبوي لم يوجه إلى عصابات الإجرام، وإنما وجه إلى فئة مؤمنة، حتى ما تظن في لحظة من اللحظات أن توجهها إلى منازلة أعداء الله تبيح لها ارتكاب محظورات أخلاقية وإنسانية، بل ينبغي التشبث بقيم الإسلام، الذي بعث به النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، رحمة للعالمين، مع ترك خيارات القوة والبطش لحالات تمادى أصحابها، ولم تنفع معهم أساليب الحكمة والتسامح، ونهي الجند عن ممارسة الغدر مهم جداً، إذ قد يبرر بعض الناس اللجوء إلى الغدر في المعارك، بحجة أن الأمر يتعلق بحرب، والمهم في نظرهم تسجيل الانتصار، والإسلام الذي ينهى عن الغدر، ينهى أيضاً عن تبرير الوسيلة بالغاية، بل ينظر الإسلام إلى الوسائل نظرته إلى الغايات، فالسعي لتحقيق غايات نبيلة يلزم أن يكون من خلال وسائل نظيفة طاهرة، غير ملتوية، والغدر خلق ذميم، ينبغي على المسلم التحرز عن اللجوء إليه، بغض النظر عن أهدافه السامية التي يريد الوصول إليها، والنبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يوم الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ)[1]، ومن التطبيقات العملية لذلك في الإسلام، أنه ينهى عن مباغتة الأعداء بحرب، بل كان يسبق ذلك عرض خيارات سلمية عليهم، قبل اللجوء إلى خيار القوة والبطش.

وبالإضافة إلى توصية الجند بالامتناع عن الغدر، فقد شملت وصاياه صلى الله عليه وسلم لهم كذلك النهي الصريح والواضح عن قتل الأطفال، (ولا تَقْتُلُوا وَلِيدًا)؛ أي طفلاً صغيراً[2]، من هنا؛ يلاحظ كم سبق الرسول، صلى الله عليه وسلم، المواثيق العالمية

1. صحيح البخاري، كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت فقضي بقيمة الجارية الميتة ثم وجدها صاحبها فهي له ويرد القيمة ولا تكون القيمة ثمناً.
2. تحفة الأحوذي، 4/552.

والدولية الخاصة بالعناية بالأطفال، فحتى لو كانوا أبناء محاربين، فإن الطفولة تحصنهم، وتحميهم من أن تمتد إليهم آلات البطش، كونهم صغاراً.

الاعتداء الإجرامي على عائلة دوابشة وأطفالها:

الفاجعة التي ألحقها أعداء الله والإنسانية بعائلة دوابشة في الساعات الأولى من فجر يوم الجمعة الحادي والثلاثين من تموز لعام 2015، تمثلت تلك الفاجعة في حرق منزل آمن تسكنه أسرة مكونة من رب الأسرة، وهو عامل بناء، وامرأته معلمة، وطفلين، لم يتجاوز عمر أكبرهما الأربعة أعوام، يسكنون في قرية دوما بمحافظة نابلس، فالمجرمون الذين تحدثت وسائل الإعلام أنهم قدموا من إحدى المستوطنات القريبة إلى تلك القرية، أحرقوا ذاك المنزل على ساكنيه، ونقل عن أحد جيران تلك الأسرة أنه لما قدم لتقديم المساعدة إلى تلك الأسرة المنكوبة طلب له ربها العمل على إنقاذ زوجته وطفله، حيث هرع مسرعاً نحوهما، ليجد والدة الطفل قد اشتعلت النيران في جسدها، فيما كان زجاج النافذة المكسور يغطي كامل جسدها بعد أن أغمي عليها تماماً، وأنه قام بسحبها وإنقاذها وطفلها أحمد (4 سنوات).

وقد مات الطفل الرضيع علي دوابشة الذي لم يتجاوز عمره السنة والنصف، حيث أحرقه الغادرون وهو على قيد الحياة، كما أثبتت التقارير الطبية التي نشرت عقب تشريح جثته، وما زال باقي أفراد الأسرة الأب والأم وابنهما الثاني يتلقون العلاج وحالتهم حرجة وصعبة للغاية.

وهذه الحادثة المأساوية تدل بشكل صارخ على مدى الانحدار في منظومة القيم لدى هؤلاء الذين يعيثون في الأرض فساداً، زاعمين أنهم يعربدون ويقتلون ويدمرون ويحرقون الناس وأملاكهم وأطفالهم تقرباً إلى الله، متجاهلين أن الله منذ بداية وجود

الخلق البشري على الأرض قد حث بني إسرائيل ليكونوا قدوة لغيرهم من البشر في الكف عن اقتراف قتل الناس بغير حق، فقال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}.[1]

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن الاعتداء المروع على عائلة دوابشة سبقه الاعتداء المفزع على الطفل محمد أبو خضير الذي قضى نحبه بآلة الحرق الظالم نفسها التي أشعل لهيبها حاقدون مجرمون، هذا عدا عن محاولات أخرى على هذه الشاكلة وقعت على أرضنا الطهور، والتي لولا لطف المولى عز وجل لانضم أطفال آخرون إلى قافلة المحرَقين من قبل عصابات التطرف.

تاريخ المجرمين يعيد نفسه:

الحاقدون ممن يعادون الإسلام وأهله تمادوا في غيهم إلى أن وصل بهم الاستهتار بدم البشر، وحقوق الطفولة، فأعدموا الأطفال بأبشع الطرق والوسائل، وهم راقدون في أسرّتهم، أو أحضان أمهاتهم، دون أن يجدوا رادعاً يزجرهم عن ذلك، فباءوا بغضب من الله ولعنه، كما باء أسلافهم من قبل أمثال الطاغية فرعون، الذي استسهل قتل مواليد مصر لمجرد تخوف من أن يكون منهم خصمه وعدوه، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، فقال تعالى: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ }[2]، وللأسف فإن كثيراً

1. المائدة: 32.
2. البقرة: 49.

من الذين يدعون اليوم انتسابهم إلى بني إسرائيل لم يتعظوا مما لحق بهم عبر التاريخ من جرائم استبيحت بها دماء أطفالهم، فهم اليوم عندما يحرقون أطفال الشعب الفلسطيني ويعذبون أبناءه يقومون بدور المجرم الذي عانوا من فظائعه، وقاسوا الأمرين من ويلاته، بالضبط تماماً مثل الذين استمرءوا اقتراف القتل ضد أبنائهم في سالف الزمان، حيث يقول تعالى: {فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ}.[1]

ويرى كثير من المفسرين أن هذا القتل غير القتل الذي وقع في وقت ولادة موسى، عليه السلام؛ لأن في ذلك الوقت أخبره المنجمون بولادة عدو له يظهر عليه، فأمر بقتل الأولاد في ذلك الوقت، وأما في هذا الوقت فموسى، عليه السلام، قد جاءه وأظهر المعجزات الظاهرة، فعند ذلك أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه؛ لئلا ينشأوا على دين موسى فيقوى بهم، وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات، فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء.[2]

فهل للناس اليوم وبخاصة الذين يزعمون اتباع الأديان والرسل أن يراجعوا مواقفهم المعادية لرسول الإسلام، صلى الله عليه وسلم، وأتباعه؟! وصلى الله على آله، وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1.غافر: 25.

2. التفسير الكبير، 27/ 48.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الأولى

عن خَبَّابِ بن الأَرَتِّ، قال: (شَكَوْنَا إلى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا له: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا، ألا تَدْعُو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرض، فَيُجْعَلُ فيه، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ من عَظْمٍ، أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا اللهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ).(*)

هذا الحديث النبوي الصحيح يذكي في النفوس المؤمنة روح التفاؤل بالمستقبل الزاهر، حتى وهي تعاني الصعاب، وتواجه المحن، فمما لا يخفى أن لهذا الحديث مناسبة لخصها الصحابي الجليل خباب بن الأرت، رضي الله عنه، في كلمات معدودات، لكنها معبرة عن حالة الاحتقان التي ألمت بالمؤمنين ساعة قدوم بعضهم، يشكوها إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، فقد بلغ السيل الزبى، وضاقت الأرض بما رحبت، وبلغت القلوب الحناجر، وحان في نظر الشاكين وقت طلب النصرة من الله العلي القدير، أن يغير الحال بسيف انتقامه، وجبروت سلطانه، فالذين يعانون هم أنصاره وأحبابه، الذين آمنوا به رباً، وصدقوا برسالة نبيه، صلى الله عليه وسلم، فعاداهم الجاحدون المنكرون، واشتدَّ أذاهم لهم، فحاصروهم في ديارهم، وعرقلوا بيعهم وشراءهم، ونالوا من أجسادهم وأعراضهم، ولاحقوهم مستهدفين قتلهم، والتخلص منهم، في مثل هذه الأجواء الملبدة بالقهر والاضطهاد، جاء بعض المعانين من تبعات ذلك، يشكون لصاحب الدعاء المستجاب، جاءوا لا يطلبون منه سوى أن يدعو صاحب الملكوت الأعلى أن

* صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

ينصرهم، ويرفع الظلم عنهم، وهو الذي قال له المَلَكُ يوماً (إن شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهم الْأَخْشَبَيْنِ)، فعن عَائِشَة، رضي الله عنها، زَوْجَ النبي، صلى الله عليه وسلم، أنها قالت لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم: (هل أتى عَلَيْكَ يَوْمٌ كان أَشَدَّ من يَوْمِ أُحُدٍ؟ قال: لقد لَقِيتُ من قَوْمِكِ ما لَقِيتُ، وكان أَشَدَّ ما لَقِيتُ منهم يوم الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي على ابن عبد يا ليل بن عبد كُلالٍ، فلم يُجِبْنِي إلى ما أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وأنا مَهْمُومٌ على وَجْهِي، فلم أَسْتَفِقْ إلا وأنا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذا أنا بِسَحَابَةٍ قد أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ، فإذا فيها جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فقال: إِنَّ اللهَ قد سمع قَوْلَ قَوْمِكَ لك، وما رَدُّوا عَلَيْكَ، وقد بَعَثَ الله إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قال: يا محمد؛ فقال ذلك فِيمَا شِئْتَ: إن شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهم الْأَخْشَبَيْنِ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله من أَصْلابِهِمْ من يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً).(*)

فالنبي، صلى الله عليه وسلم، أوتي تفويضاً من الله تعالى بأن يطلب تسليط غضب ربه وسخطه على الذين ناصبوه العداء، غير أنه لم يغب عن باله حتى في أحلك الظروف الهدف الذي من أجله كانت بعثته للعالمين، فقال قولته المشهورة:(بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله من أَصْلابِهِمْ من يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً) فلم تأخذه نشوة توفر المدد والعون ليزهو بها، وينتقم من الذين يناصبونه العداء، وهو الآن يشتكى إليه، فماذا كان رده صلى الله عليه وسلم على الشاكين؟ وهل يعبر ذاك الرد عن تجاهل لحال الشاكين أو استهتار بطلبهم؟ معاذ الله أن يبدر عنه شيء من هذا القبيل، وإنما هي التربية الإيمانية التي أرادها لمريديه وأتباعه، أن يكون عملهم لله أولاً وآخراً، وأن يكون احتسابهم الأجر على الله، وأن يكونوا أصحاب رسالة هدفها صلاح العالمين وهدايتهم إلى صراط الله المستقيم، وتلك لعمري قيم لا يدرك مراميها ومعانيها من لم يذق طعم الإيمان، ومن لم

* صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه.

تكن الدنيا وراء ظهره، والآخرة مبتغاه، مستلهماً مسعاه من مثل قوله تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.[1]

إذن ماذا كان رده صلى الله عليه وسلم على الشاكين؟ رد عليهم رداً حاسماً، تكفل بصدهم عن تكرار طلبهم الذي جاءوا به، وتمحور رده حول ثلاثة محاور رئيسة، تمثل أولها بضرب مثل بحال أصعب ابتلاء من حالهم الذي جاءوا يشكونه، والمحور الثاني تمثل بالتأكيد على حتمية انتصار حقهم على باطل عدوهم، والثالث إشارته صلى الله عليه وسلم إلى طبيعة بشرية، يلزمها التهذيب، وتتمثل في استعجال قطف الثمار، وحصد الزرع، وفيما يأتي وقفة موجزة عند هذه المحاور الثلاثة:

مثال لحال أصعب ابتلاء:

رد الرسول، صلى الله عليه وسلم، على طلب بعض شاكي الأحوال الصعبة أن يستنصر لهم الله، تصدره ذكر صورة تجسد مدى الأذى الذي لحق ببعض من سبقونا إلى الإيمان، فكانوا يُقَطَّعون أشلاء، وما يصدهم ذلك عن دينهم، قوله: (بِالْمِنْشَارِ) آلة نشر الخشب، وقوله: (ما دُونَ لَحْمِهِ)؛ أي تحت لحمه أو عند لحمه.[2]

وعلى هذا الدرب، ضرب الصحابة، رضي الله عنهم، أعظم الأمثال في الثبات على الحق، رغم قسوة الأذى، ومرارة الاضطهاد الذي وجدوه من أعدائهم، ومن صور صمودهم الأسطوري ما كان من الصحابي المشهور بلال بن رباح، الذي أوذي في الله أشد الأذى، فقد كان مملوكاً لأمية بن خلف الجمحي، فكان يجعل في عنقه حبلاً، ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به، وهو يقول: أحد أحد، ولم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله، وكان أمية يخرج به وقت الظهيرة في الرمضاء، وهي الرمل الشديدة الحرارة، لو وضعت عليها قطعة لحم، لنضجت، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا حتى

1. القصص: 83.
2. عمدة القاري، 16 /144.

تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول: أحد أحد، رضي الله عنه وأرضاه.[1]

التأكيد على حتمية انتصار الحق:

بعد إثبات الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالصورة المؤثرة لمشهد الاضطهاد الذي واجهه مؤمنون سابقون بالعزيمة والإصرار على التمسك بمبادئهم وقيمهم، تحول في إجابته للشاكين من صعوبة الأذى الذي يجدون، فأكد على حتمية انتصار الحق، ضارباً مثلاً من نوع آخر لخدمة هدف التربية على الصبر والثبات، فأخبر صحابته بأن زماناً سيأتي لا محالة ينتصر فيه حقهم، ويعم الأمن طرقهم وحياتهم حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه.

المراد بالأمر في قوله: (والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ) هو الإسلام، وقوله (الذِّئْبَ على غَنَمِهِ): تقديره ولا يخاف إلا الذئب على غنمه؛ لأن مساق الحديث إنما هو للأمن من عدوان بعض الناس على بعض، كما كانوا في الجاهلية، لا للأمن من عدوان الذئب، فإن ذلك إنما يكون في آخر الزمان عند نزول عيسى.[2]

وقوله: (من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ) هما من مدن اليمن، والغرض بيان انتفاء الخوف من الكفار على المسلمين، وقوله: (أو الذِّئْبَ) عطف على الاسم الأعظم، وإن احتمل أن يعطف على المستثنى منه المقدر.[3]

سائلين الله العلي القدير أن يثبتنا على الإيمان، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يكتب لنا العز، وأن يهبنا نصراً عزيزاً مؤزراً، وإلى لقاء في الحلقة التالية من هذه الزاوية الصحفية مع متابعة الحديث عن الحث على الصبر، والوعد بالنصر المبين، كما جاء عن رسولنا، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. السنن والمبتدعات، 1 /375.
2. فتح الباري، 7 /167.
3. عمدة القاري، 16 /144 - 145.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الثانية

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (...والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا اللهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ). [1]

تعرضت الحلقة السابقة إلى ذكر المحاور الثلاثة التي تضمنها رده صلى الله عليه وسلم على الشاكين إليه تردي أوضاعهم الأمنية والحياتية، حيث عبروا عن قسوة ما يجدون من اضطهاد وصعوبة في العيش بسبب إيمانهم بدينهم الذي ارتضاه الله تعالى لهم، فضرب لهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، مثلاً بحال أصعب ابتلاء من حالهم الذي جاءوا يشكونه، وأكد لهم على حتمية انتصار حقهم على باطل عدوهم، وتتابع هذه الحلقة الحديث عن المحور الثاني الذي يؤكد فيه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالقسم على حتمية انتصار الإسلام الذي سيعم به الأمن والأمان.

حتمية نصر المرسلين والمؤمنين:

الآيات القرآنية التي تؤكد حتمية انتصار الحق، ولو بعد حين كثيرة، منها قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ}[2]

ذكر البغوي وجوهاً لنصر الرسل، منها: ما روي عن ابن عباس أنه يكون بالغلبة والقهر، وقال الضحاك: بالحجة، وفي الآخرة بالعذاب، وقيل: بالانتقام من الأعداء في الدنيا والآخرة، وكل ذلك قد كان للأنبياء والمؤمنين، فهم منصورون بالحجة على من خالفهم، وقد نصرهم الله بالقهر على من ناوأهم، وإهلاك أعدائهم ونصرهم، بعد أن

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
2. غافر: 51.

قتلوا بالانتقام من أعدائهم، فهم منصورون بأحد هذه الوجوه.(*)

وأورد الطبري تساؤلاً عند هذه الآية الكريمة، حول مسألة حتمية نصر الله رسله، ومنهم من قتله أعداؤه ومثلوا به كيحيى بن زكريا، عليهما السلام، ومنهم من همَّ بقتله قومه، فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجياً بنفسه، كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه، مفارقاً لقومه، وعيسى الذي رفع إلى السماء إذ أراد قومه قتله، فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصرها رسله والمؤمنين به في الحياة الدنيا، وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم من قومهم ما نالهم، وما نصروا على من قيل: إن نصر الله رسله والذين آمنوا له وجهان، كلاهما صحيح معناه، أحدهما: أن يكون معناه إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا إما بإعلائهم على المكذبين، وإظفارهم بهم، حتى يقهروهم غلبة، كالذي فعل من ذلك بداود وسليمان، فأعطاهما من الملك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكالذي فعل بمحمد، صلى الله عليه وسلم، بإظهاره على من كذبه من قومه، وإما بانتقامنا ممن حادهم وشاقهم بإهلاكهم، وإنجاء الرسل ممن كذبهم، وعاداهم، كالذي فعل تعالى ذكره بنوح وقومه من تغريق قومه، وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه، إذ أهلكهم غرقاً، ونجى موسى ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم، ونحو ذلك، أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذبيهم بعد وفاة رسلنا من بعد مهلكهم كانتصارنا لعيسى من مريدي قتله بالروم حتى أهلكناهم بهم، فهذا أحد وجهيه، وقد كان بعض أهل التأويل يوجه معنى ذلك إلى هذا الوجه، فقد كانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون، وذلك أن تلك الأمة التي تفعل ذلك بالأنبياء والمؤمنين لا تذهب حتى يبعث الله قوماً، فينتصر بهم لأولئك الذين قتلوا منهم.

* تفسير البغوي، 4/ 100.

والوجه الآخر: أن يكون هذا الكلام على وجه الخبر عن الجميع من الرسل والمؤمنين، والمراد واحد، فيكون تأويل الكلام حينئذ: إنا لننصر رسولنا محمداً، صلى الله عليه وسلم، والذين آمنوا به في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، والعرب تخرج الخبر بلفظ الجميع، والمراد واحد إذا لم تنصب للخبر شخصاً بعينه.[1]

وتفسير قوله تعالى: {في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}؛ أي في الدنيا والآخرة؛ يعني أنه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على مخالفيهم وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين، امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم، ويتيح الله من يقتص من أعدائهم، ولو بعد حين، والأشهاد جمع شاهد، كصاحب وأصحاب يريد الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمّة محمد، صلى الله عليه وسلم.[2]

وقيل: الأشهاد هنا يعني يوم القيامة، قال زيد بن أسلم الأشهاد أربعة الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد، وقال مجاهد والسدي: الأشهاد الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأمم بالتكذيب.[3]

والآيات القرآنية الكريمة التي تؤكد حتمية انتصار المرسلين والمؤمنين كثيرة، منها قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ* وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}.[4]

وفي تفسير أضواء البيان أن هذه الآية الكريمة تدلّ على أن الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم وأتباعهم منصورون دائمًا على الأعداء بالحجّة والبيان، ومن أمر منهم

1. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 22/ 82 - 83.
2. الكشاف، 4/ 176 - 177.
3. تفسير القرطبي 15/ 322.
4. الصافات: 171 - 173.

بالجهاد منصور أيضًا بالسيف والسنان، والآيات الدالَّة على هذا كثيرة، والله تعالى يقول: {كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي}، ويقول سبحانه وتعالى: {وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}[1]

النصر دون قتال:

من أساليب نصر المؤمنين، عدا عن الغلبة في ساحات الوغى بعد التحام الجيوش، ونزف الدماء، تحقق دون قتال وهذا ورد في السيرة النبوية حدوثه وذكره، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، والمسلمون هزموا جيش الروم في تبوك من غير قتال، وإنما بالرعب الذي سلطه الله على قلوب الأعداء، وهو سلاح فاعل أيد الله تعالى به نبيه، صلى الله عليه وسلم، فعن جَابِرِ ابن عبد الله، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاء قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ من أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لي الْغَنَائِمُ، وكان النبي يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إلى الناس كافة، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ).[2]

وحرص عليه الصلاة والسلام على فتح مكة دون قتال رغم الجاهزية العسكرية التي أعدها له حذراً من مباغتة أو مفاجأة من قبل الكفار، ومما يدل على هذا الحرص ما روي في صحيح السنة والسيرة، أنه لما خَرَجَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حتى كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ خَالِدَ بن الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ في خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ، فَوَاللهِ ما شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ، حتى إذا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النبي، صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان بِالثَّنِيَّةِ التي يُهْبَطُ عليهم منها، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فقال الناس: حَلْ حَلْ، فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا:

1. أضواء البيان 6/ 321.

2. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً).

خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ، خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: ما خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ، وما ذَاكَ لها بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قال: وَالَّذِي نَفْسِي بيده، لا يسألونني خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فيها حُرُمَاتِ اللهِ، إلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا، ثُمَّ زَجَرَهَا، فَوَثَبَتْ، قال: فَعَدَلَ عَنْهُمْ، حتى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ ...).(*)

سائلين الله العلي القدير أن يثبتنا على الإيمان، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يكتب لنا العز، وأن يهبنا نصراً عزيزاً مؤزراً، وإلى لقاء في الحلقة التالية من هذه الزاوية الصحفية مع متابعة الحديث عن الحث على الصبر والوعد بالنصر المبين، كما جاء عن رسولنا، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الثالثة

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (...والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا اللهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ).[1]

وقفت الحلقتان السابقتان من هذه الزاوية الصحفية المباركة عند محاور دار حولها حديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي رد فيه على من جاءه شاكياً الأوضاع، وطالباً النجدة بالدعاء، وتواصل هذه الحلقة الوقوف عند محور الصبر، وبيان أهميته وفضله، وبعض مسائله الأخرى.

الاستعانة بالصبر وفضله:

ورد في القرآن الكريم الأمر بالاستعانة في ثلاث آيات، ارتبطت جميعها بالصبر، ففي سورة البقرة يقول تعالى: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}.[2]

ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[3]. أي استعينوا على ما يستقبلكم من أنواع البلاء، وقيل: على طلب الآخرة بالصبر والصلاة.[4]

ويقول الرازي: إن الله تعالى خص الصبر والصلاة بذلك؛ لما فيهما من المعونة على العبادات، أما الصبر فهو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله، وتوطينها على تحمل المشاق، وتجنب الجزع، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل، سهل عليه فعل

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
2. البقرة: 45.
3. البقرة: 153.
4. تفسير البغوي، 1 /68.

الطاعات، وتحمل مشاق العبادات، وتجنب المحظورات.[1]

وموسى، عليه السلام، وجه قومه إلى الاستعانة بالله، وقرن بذلك الحث على الصبر، فقال تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.[2]

ومن دلالات الاهتمام بالصبر، واستشعار فضله، ما جاء عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ففي بَاب الصَّبْرِ عن مَحَارِمِ الله، وَقَوْلِهِ عز وجل: {إنما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، قال عُمَرُ: (وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ).[3] والصبر مطلوب دائماً، وتشتد الحاجة إليه عند لقاء الأعداء، وفي ساحات الوغى، ورَسُول الله، صلى الله عليه وسلم: (كان فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ التي لَقِيَ فيها الْعَدُوَّ يَنْتَظِرُ حتى إذا مَالَتْ الشَّمْسُ، قام فِيهِمْ، فقال: يا أَيُّهَا الناس؛ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فإذا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ، ثُمَّ قام النبي، صلى الله عليه وسلم، وقال: اللهم مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانْصُرْنَا عليهم).[4]

التواصي بالصبر:

من دلالات أهمية الصبر وفاعليته أن الله سبحانه أثنى على المؤمنين الصالحين الذين يتواصون به، فقال تعالى: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}.[5]

---

1. التفسير الكبير، 4/ 131.
2. الأعراف: 128.
3. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله.
4. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء.
5. البلد: 17.

فهم يوصون بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان، والثبات عليه، أو الصبر عن المعاصي، وعلى الطاعات والمحن، التي يُبتلى بها المؤمن.[1]

وإنما قال: {وَتَوَاصَوْاْ} ولم يقل ويتواصون؛ لئلا يقع أمراً، بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي، وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل.[2]

وسورة العصر ذات الثلاث آيات، والكلمات القليلة، عنيت بالثناء على المتواصين بالصبر، فقال تعالى: {وَالْعَصْرِ*إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}.[3]

الصبر الجميل عند ترقب النصر:

أمر الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، وهو يواجه عنت أعدائه وصلفهم، بالصبر الجميل، فقال تعالى: {فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً}.[4]

والصبر الجميل لا يشوبه استعجال، واضطراب قلب[5]، ويقتضي من صاحبه أن لا يشكو إلى البشر[6]، وهو هنا متعلق بسأل سائل بعذاب واقع، في افتتاحية سورة المعارج؛ لأن السؤال كان عن استهزاء وتعنت وتكذيب بالوحي، وذلك مما يضجره عليه الصلاة والسلام، أو كان عن تضجر واستبطاء للنصر، أو بسأل سائل أو سال سيل، فمعناه جاء العذاب لقرب وقوعه، فقد شارفت الانتقام.[7]

1. التفسير الكبير، 32 /85.
2. الكشاف، 2 /140.
3. العصر: 1 – 3.
4. المعارج: 5.
5. تفسير البيضاوي، 5 /387.
6. تفسير الثعالبي، 2 /228
7. تفسير أبي السعود، 9 /30.

والصبر الجميل لا يلحقه عيب، ولا تشكٍ، ولا قلة رضا، ولا غير ذلك.[1]

والشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، فوالد يوسف، عليهما السلام، صاحب الصبر الجميل، شكى بثه وحزنه إلى الله تعالى، كما جاء على لسانه، في قوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ...}[2]

الصبر... والهجر الجميل:

إلى جانب الحث على الصبر، فقد فتح الله تعالى المجال للهجر الجميل، فقال تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً}.[3]

وفي التفسير الكبير أن المعنى إن الله يبلغ رسوله، صلى الله عليه وسلم، أنك لما اتخذتني وكيلاً، فاصبر على ما يقولون، وفوض أمرهم إليَّ، فإنني لما كنت وكيلاً لك، أقوم بإصلاح أمرك، أحسن من قيامك بإصلاح أمور نفسك، والإنسان إما أن يكون مخالطاً للناس، أو مجانباً عنهم، فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيذائهم، فإنه إن كان يطمع منهم في الخير والراحة لم يجد، فيقع في الغموم والأحزان، فثبت أن من أراد مخالطة مع الخلق، فلا بد له من الصبر الكثير، فأما إن ترك المخالطة، فذاك هو الهجر الجميل، فثبت أنه لا بدَّ لكل إنسان من أحد هذين الأمرين، والهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه، ويخالفهم في الأفعال مع المداراة والإغضاء، والترك، ونظيره: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ}[4]،

1. تفسير الثعالبي، 4/ 339.
2. يوسف: 86.
3. المزمل: 10.
4. النساء: 63.

{وَأَعْرِض عَنِ الْجَاهِلِينَ}[1]، {فَأَعْرَضَ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا}[2]

الصبر والمصابرة والمرابطة:

ختم الله سورة آل عمران بآية شملت الأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.[3]

فالله تعالى أمر المؤمنين بالصبر على مشاق الطاعات وغير ذلك من المكاره والشدائد، وأمرهم بالمصابرة، المتمثلة في مغالبة أعداء الله تعالى بالصبر في مواطن الحروب، وأعدى عدوكم بالصبر على مخالفة الهوى، وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر؛ لكونها أشد منه وأشق، وأمرهم بالمرابطة التي تكون بالإقامة في الثغور، رابطين خيلهم فيها، مترصدين للغزو، مستعدين له.[4]

وروي عن الحسن البصري أنه قال: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء، ولا لضراء، ولا لشدة، ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم، وكذلك قال غير واحد من علماء السلف، وأما المرابطة، فهي المداومة في مكان العبادة، والثبات، وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة[5]

ومن فضائل الرباط في سبيل الله تعالى، أن الله تعالى يمحو به خطايا المرابطين، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ على الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَى إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ،

1. الأعراف: 199.
2. النجم: 29، التفسير الكبير، 30 /159.
3. آل عمران: 200.
4. تفسير أبي السعود، 2 /136.
5. تفسير ابن كثير، 1 /445.

فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ).[*]

ألهمنا الله تعالى الصبر والسلوان على ما نجد وشعبنا الأبي الصابر من ظلم الغزاة المحتلين، الذين يعيثون في أرضنا أبشع ألوان الفساد، وكتب الله لنا ثواب الرباط على ثغور أرض الإسراء والمعراج، قائلين: إن لم يكن بك علينا غضب فلا نبالي، وإلى لقاء آخر مع متابعة الحديث عن حث الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، على الصبر، ووعده بالنصر المبين، سائلين الله العلي القدير أن يثبتنا على الإيمان، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يكتب لنا عزاً لا نذل بعده أبداً، وأن يهبنا نصراً عزيزاً مؤزراً، كما نصر عبده ورسوله محمداً، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* سنن النسائي، كتاب الطهارة ، باب الفضل في ذلك، وصححه الألباني.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الرابعة

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (...والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا اللهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ).[1]

وقفت الحلقات الثلاث السابقة من هذه الزاوية الصحفية المباركة عند محاور ردّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، على من جاءه شاكياً الأوضاع، وطالباً النجدة بالدعاء، وتواصل هذه الحلقة الحديث عن محور آخر من تلك المحاور، ويتعلق بالنصر، من خلال التذكير بوعد الله لعباده المتقين بالنصر والتأييد، مقدمين لذلك بوقفة إجمالية لحديث القرآن الكريم عن الابتلاء المتبوع بالفرج.

الابتلاء المتبوع بالفرج:

قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}[2]

ورد في التفسير أن الزّجاج قال في قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ} معناه بل حسبتم، وكل شيء في القرآن من هذا النحو، فهذا سبيله وتأويله، ومعنى الآية أظننتم والرسول أن تدخلوا الجنة {وَلَمَّا يَأْتِكُم} يعني ولم يأتكم، وقوله: { مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم}؛ أي مَضَوا من قبلكم من النبيين والمؤمنين وسُنّتهم.

ثم ذكر ما أصابهم، فقال: {مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء}يعني الفقر والضرّ والشدّة والبلاء، {وَالضَّرَّاء}

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
2. البقرة: 214.

المرض، {وَزُلْزِلُوا} حُرّكوا بأنواع البلايا والرزايا وخُوِّفوا، {حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ} أي ما تلك البلايا، حتى استبطأوا النصر؟! قال الله: ألا إن نصر الله قريب[1]، فنصر الله قريب قريب، وهو آت آت، والإيمان بذلك عقيدة راسخة في قلوب المؤمنين، الذين لم يزيغوا عن درب الحق، ونجحوا في امتحان الابتلاء، كالذي يواجه شعبنا وشبابنا، الذين ابتلوا بالمحن والقتل والضيق والقيود، وذلك ليس نشازاً في عالم الامتحانات الربانية، التي نجح فيها الأنبياء والصالحون من قبل، والصابرون والمرابطون اليوم على أرض الكنانة، يسيرون على دربهم بإذنه تعالى.

الوعد بالنصر والاستخلاف والتأييد ومعززات ذلك:

تحدث القرآن الكريم في آياته العطرة عن الفتح القريب، والنصر العزيز، والوعد بهما، والتأييد بمعززات النصر والاستخلاف في الأرض، فقال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}[2]

فالله تعالى أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين، والسكينة تشمل الطمأنينة، والسكون إلى الحق، والثبات، والشجاعة عند البأس، ومحل إنزال السكينة هو القلوب، بدليل قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}.[3]

والآيات القرآنية الدالة على مدد الله للمؤمنين في معاركهم مع القوى الباغية والظالمة كثيرة، منها قوله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ* وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ

1. تفسير الثعلبي، 2/ 135.
2. الفتح: 18.
3. أضواء البيان، 7/ 397.

عَزِيزٌ حَكِيمٌ* إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}.[1]

يقول صاحب تفسير أضواء البيان: فما جعل الله الإمداد بالملائكة إلا لتطمئن به قلوبهم، وما غشاهم النعاس إلا أمنةً منه، وتم كل ذلك بما ربط على قلوبهم، فقاوموا بقلتهم قوى الشر على كثرتها، وتم نصرهم بمدد من الله، كما ربط على قلوب أهل الكهف، حيث قال تعالى: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا}.[2]

أما بالنسبة إلى أعداء الله والمؤمنين، فإن الله يدب الذعر في قلوبهم، فترى الفزع يسيطر عليهم، والله تعالى يقول: {فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ}[3]، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ)[4]، فالله نصر المؤمنين بالطمأنينة، وهزم الأعداء بالفزع والهلع، وفي هذا يقول تعالى: {إِذْ يُوحي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ}[5]، فنص على الطمأنينة بالتثبيت في قوله تعالى: {فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ}، ونص على الرعب في قوله تعالى:{سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ} فكانت الطمأنينة تثبيتاً للمؤمنين، والرعب زلزلة للكافرين.[6]

ومثلما كان الرعب سبباً من أسباب هزيمة أعداء الله تعالى، فإن مفهوم المخالفة يدل

1. الأنفال: 9 – 11.
2. الكهف: 14.
3. الحشر: 2.
4. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً).
5. الأنفال: 12.
6. أضواء البيان، 8/ 20.

على أن العكس بالعكس، أي أن الطمأنينة وهي ضد الرعب، سبب من أسباب النصر، وهو ضد الهزيمة.[1]

وَوَعْدُ الله تعالى للمؤمنين بالعزة والنصر كثيراً ما كان يأتي وهم يعانون الشدائد، وذكر القرآن الكريم شواهد دالة على هذا، منها قوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً}.[2]

والوعد الرباني بالنصر العزيز بشر الله به المؤمنين ورسولهم، صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}[3]، وقال جل شأنه: {وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً}.[4]

ونصر المؤمنين وعد الله به عباده المؤمنين، فقال تعالى: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.[5]

وتكرر الوعد بالنصر والتمكين للمؤمنين في آيات قرآنية عديدة، منها قوله تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} [6]

الوعد الرباني المذكور في هذه الآية الكريمة يشير إلى أول غزوة كبرى خاضها جيش

1. أضواء البيان، 8/ 19.
2. الفتح: 27.
3. الصف: 13.
4. الفتح: 3.
5. النور: 55.
6. الأنفال: 7.

المسلمين الفتي ضد جحافل الظالمين من قريش، الذين أخرجوهم من ديارهم، وآذوهم أشد الأذى، فلما مضت أيام وسنون على ذلك، حان موعد اللقاء الفاصل بين المعسكرين، معسكر معه الله تعالى يؤيده ويرعاه، والآخر يكفر بالله، ويعادي أولياءه، ووقعت ذات الشوكة وهي المعركة العسكرية الفاصلة، لتحقيق غاية ربانية، تتلخص في إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، فانتصر المسلمون، وهزم الكافرون شر هزيمة.

والوعود الربانية لأوليائه بالنصر والتأييد إضافة إلى الحماية من الخوف والحزن، تتضافر في تسليحهم بقوة واقعية لمّا استشعروها، وأيقنوا صدقها، غلبوا أعداءهم، رغم التفاوت الكبير في العدد والعدة بينهما لصالح أعدائهم، حتى إن الله تعالى تعرض لذكر هذا التفاوت في بعض الآيات القرآنية.

وما نراه على أرض الواقع في أرض الرباط يثبت أن المؤمن صاحب القضية العادلة تبدو منه شجاعة، ويظهر منه استبسال منقطع النظير، في مقابل انهزام ظالله وجبنه، حين يتعرض إلى محكات أو يواجه الحقيقة بعيداً عن آلات بطشه، فظهر ضعيف الإرادة رغم تدججه بأشد أنواع الأسلحة، أمام قويها الذي يفتقر إلى عتاد عدوه، وما له سوى إرادته وعزمه وقوة عقيدته وإيمانه.

وإلى لقاء آخر مع متابعة الحديث عن حث الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، على الصبر، ووعده بالنصر المبين، سائلين الله العلي القدير أن يثبتنا على الإيمان، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يكتب لنا عزاً لا نذل بعده أبداً، وأن يهبنا وأقصانا ومسرانا وأسرانا نصراً عزيزاً مؤزراً، كما نصر عبده ورسوله محمداً، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الخامسة

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (...والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا اللهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ).[1]

تواصلاً مع ما تناولته الحلقات الأربع السابقة تأتي هذه الحلقة لتتابع الوقوف المتدبر عند محور النصر، من خلال متابعة التأمل في مسألة وعد الله للمؤمنين بالنصر والاستخلاف والتأييد بمعززات ذلك، إضافة إلى التذكير بوعيد الظالمين، وأعداء الله بسوء المصير، والعقاب الوخيم، مع الشروع في إجمال بيان وصف عباد الله المنصورين.

انتصار الإيمان والعزيمة على العتاد المادي:

سجل تاريخ الأنبياء والمؤمنين حدوث انتصارات مزلزلة لصالح قوة الحق والإيمان على قوى الظلم والطغيان رغم التفاوت في نوع السلاح والعتاد بين المعسكرين، فنوعية قوة معسكر الإيمان كانت من نوع مميز، تمثل في العزيمة، والإصرار، والشجاعة، والاستبسال، إضافة إلى مدد الله تعالى وعونه، أما قوة الطرف الآخر، فكانت في ضخامة العدد وأنواع السلاح المادي وحجمه، والله تعالى ذكر التفاوت بين عتاد المعسكرين في بعض الآيات القرآنية، فبين في البداية أن عشر عدد الكافرين من المؤمنين كفيل بأن يغلب عشرة أضعافهم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ}[2]، وفي مرحلة تالية تغيرت الموازين والاعتبارات لتغير الهمم والنفوس، ولم

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
2. الأنفال: 65.

يعد الواحد يقابل عشرة، لكنه بقي يقابل ضعفه، وفي هذا يقول تعالى: {الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}.[1]

فالمسألة إذن ترتبط المعايير فيها بالنوعية، وليس بالكمية، وما نراه على أرض الواقع يثبت أن المؤمن صاحب القضية العادلة، تبدو منه شجاعة، ويظهر منه استبسال في مقابل انهزام ظالمه وجبنه، واعترف ساسة وإعلاميون ممن ينتمون إلى معسكر الظالمين بحزي تلك المشاهد بالنسبة لهم ولجيشهم.

توعد الظالمين:

يقتضي الإيمان الاعتقاد بالصلة الوثيقة بين كل من النصر والهزيمة، وبين وعد الله تعالى وإرادته وجبروته وسلطانه، فإذا ما جاء وعد الله تعالى، فإن الزلزلة تقع على رؤوس الظالمين، وفي هذا يقول جل ذكره: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}[2]، ومعنى الإملاء الإمهال؛ أي أطلت لهم المدة بتأخير العقوبة، ثم أخذتهم، فكيف كان عقابي لهم[3]، فالله يتوعد الظالمين بعقاب كالذي حل بالمتقدمين منهم، {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ* وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ* أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ* فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ* وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ* وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}[4]

وورد ذكر وعيد الظالمين والكافرين بالعقاب على ما اقترفت أيديهم في آيات قرآنية

1. الأنفال: 66.
2. الرعد: 32.
3. التفسير الكبير، 19 /44.
4. الصافات: 174 - 179.

عديدة، من مثل قوله تعالى: {...وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}[1]

أي ولا يزال الذين كفروا -ويقصد هنا من أهل مكة- تصيبهم بسبب ما صنعوه من الكفر، والتمادي فيه، تصيبهم (قارعة)؛ أي داهية تقرعهم، وتقلقهم، وهو ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل، والأسر، (أو تحل) تلك القارعة (قريباً)؛ أي مكاناً قريباً (من دارهم) فيفزعون منها، أو يتطاير إليهم شرارها، شبهت القارعة بالعدو المتوجه إليهم، فاسند إليها الإصابة تارة، والحلول أخرى، (حتى يأتي وعد الله)؛ أي موتهم أو القيامة، فإن كلا منهما وعد محتوم، ولا مرد له، وفيه دلالة على أن ما يصيبهم عند ذلك من العذاب في غاية الشدة، وأن ما ذكر سابقاً نفحة يسيرة بالنسبة إليه، ثم حقق ذلك بقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}؛ أي الوعد كالميلاد، والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة؛ لاستحالة ذلك على الله سبحانه.[2]

فالظالمون على موعد أكيد مع انتقام الله منهم، وزلزلة أركانهم، وانهيار كيانهم، وقد توعدهم الله بالصبح، كما كان لقوم لوط، فقال تعالى: {قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}[3]، وصبح العذاب والهزيمة قريب من الظالمين، الذين يتهاونون في سفك الدماء، وانتهاك الحرمات، كما كان قريباً لقوم لوط، ولن يكون هؤلاء بعيدين عن انتقام الله، وهو الذي توعد قوم لوط بالعذاب صباحاً، فكان ما كان من سخطهم، ومهما تعاظمت قوة الكافرين فإنهم أمام جبروت

1. الرعد: 31.
2. تفسير أبي السعود، 5/ 23.
3. هود:81.

الله وبطشه ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، والله رد على أمثالهم ببيان صغر حجمهم، وضعف جبروتهم، مهما بلغوا منه، وظنوا أنه كافيهم، فقال تعالى: {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً* قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً* أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً* يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً}.[1]

ولا يتناقض إمهال الظالمين مع حقيقة وعيد الله تعالى لهم، فالطامة ستحل بهم طال الزمان أم قصر، والله تعالى يقول: {فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ}[2]، وكان الرد البين على من تساءل عن موعد العذاب الموعود، في قوله سبحانه وتعالى: {قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً} [3]، والمعنى أن ما توعدون به آت لا محالة، وأن وقوعه متيقن، أما وقت وقوعه فغير معلوم.[4]

فعسى أن يكون سحق الله لمن يعيثون في أرضه الفساد قريباً قريباً.

من هم المنصورون؟

الذين تعهد الله تعالى لهم بأن ينصرهم على أعدائهم هم أولياؤه، ممن قال جل شأنه فيهم: {وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ}.[5]

وقد وعد الله أولياءه بأن يدفع عنهم الخوف والحزن، فقال تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ

1. الإسراء: 49 – 52.
2. الأنبياء: 109.
3. الجن: 25.
4. التفسير الكبير، 30 /148.
5. المائدة: 56.

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[1]، والملاحظ هنا أن النعم التي تفضل الله تعالى بها على أوليائه مردودها معنوي ونفسي، وورد التصريح بالمردود المادي، من خلال إعلان الله تعالى الحرب على أعداء أوليائه، ففي الحديث القدسي، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ قال: من عَادَى لي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إليّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إليّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليّ بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ).[2]

راجين الله تعالى أن يجعلنا وأمتنا وأقصانا وشبابنا الميامين من أولياء الله الصالحين، الذين ينتصر الله لهم ممن يعادونهم، ويستحلون سفك دمائهم، وينتهكون حرماتهم، بأن يسلط الله عليهم سيف سخطه وعقابه.

وإلى لقاء آخر في الحلقة القادمة لمتابعة الحديث عن عباد الله المنصورين، وختم حلقات الحث على الصبر والوعد بالنصر المبين في ضوء حديثه صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. يونس: 62.

2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الأخيرة

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (...والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا اللهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ).[1]

تواصلاً مع ما تناولته الحلقات الخمس السابقة تأتي هذه الحلقة لتختم تلك الحلقات، بمتابعة التذكير بتوعد الظالمين وأعداء الله، مع التعريج على حال الاستعجال الذي ينتاب الناس غالباً وهم يتطلعون إلى تحقيق ما يرغبون فيه من خيرات، سواء ما تعلق من ذلك بالنصر والغلبة على الظالمين أم حصولهم على شفاء من مرض، أو رزق، أو خروج من مأزق، وهكذا دواليك.

المنصورون هم أولياء الله:

الذين تعهد الله تعالى بأن ينصرهم على أعدائهم هم رسله وأولياؤه، فقال جل شأنه: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ*إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ* وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}[2]

فعباد الله المرسلون وأتباعهم من جند الله لهم الغلبة وفاء لوعده سبحانه، على الرغم من الوقائع المشاهدة على الأرض في بعض مراحل الحياة، وبخاصة حين تعتري أهل الله حالة من الضعف أمام استقواء أهل الباطل، والله تعالى نبه إلى هذا، بعد جراح غزوة أحد، فقال جل شأنه: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[3]،

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
2. الصافات: 171 - 173.
3. آل عمران: 140.

فالأيام دول، فيها الجراح وفيها النصر، ولكن الغلبة في نهاية المطاف لا تكون للظالمين بل لأصحاب الحق، الذين يحملون راياته؛ لأنه هو الذي يمكث في الأرض، والباطل إلى زوال، مصداقاً لقوله تعالى: {...كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ}(*)

نماذج لنصرة الحق وأهله:

يشهد التاريخ أن المسلمين بقيادة الرسول، صلى الله عليه وسلم، انتصروا على أعدائهم في بدر الكبرى، وكان عددهم لا يتجاوز ثلث عدد عدوهم، فبلغ عدد المسلمين ما يقارب 314 مقابل ما يقارب 950 مقاتلاً من قريش. فعن عُمَر بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، قال: (لَمَّا كان يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثلاثمائة وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، اللهم أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي، اللهم آتِ ما وَعَدْتَنِي، اللهم إن تُهْلِكْ هذه الْعِصَابَةَ من أَهْلِ الإِسْلام، لا تُعْبَدْ في الأرض، فما زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حتى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عن مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أبو بَكْرٍ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ على مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ من وَرَائِهِ، وقال: يا نَبِيَّ اللهِ؛ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ الله عز وجل: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ من الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} فَأَمَدَّهُ الله بِالْمَلَائِكَةِ، قال أبو زميل: فحدثني ابن عَبَّاسٍ، قال: بَيْنَمَا رَجُلٌ من الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ، يَشْتَدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ من الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سمع ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إلى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ، فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إليه، فإذا هو قد خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: صَدَقْتَ، ذلك من مَدَدِ السَّمَاءِ

* الرعد: 17

الثَّالِثَةِ، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ).[1]

وفي معركة حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، انتصر المسلمون، ولم يزد عدد جيشهم فيها عن 12 ألف مقاتل، بينما بلغ جيش أعدائهم فيها 63 ألف مقاتل؛ أي أن نسبة المسلمين فيها لم تصل إلى 20 % مقارنة بعدوهم، ومع ذلك، كان الانتصار المؤزر فيها للقلة المؤمنة على الكثرة الضالة.

النهي عن استعجال النصر:

بعد النبضات التي تيسر استلهامها من محاور حديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي رد فيه على من جاءه شاكياً الأوضاع، وطالباً النجدة بالدعاء، تأتي هذه الحلقة لتختم تلك النبضات، من خلال الوقوف عند التعقيب الذي ختم به النبي، صلى الله عليه وسلم، جوابه لطالبي دعاء النصر، فقال عليه الصلاة والسلام: (وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)؛ مشيراً بذلك إلى الطبيعة التي خلق الله تعالى الإنسان عليها، وفق ما جاء في قوله تعالى: {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}.[2]

وكأنه صلى الله عليه وسلم بهذا التعقيب ينهى عن استعجال طلب النصر؛ أي لا تستعجلوا؛ فإن من كان قبلكم قاسوا ما ذكرنا فصبروا، وأخبرهم الشارع بذلك؛ ليقوى صبرهم على الأذى.[3]

وينبه الرسول، صلى الله عليه وسلم، المؤمنين، بهذا التعقيب إلى أن عذاب المشركين سيزول، فاصبروا على أمر الدين، كما صبر من سبقكم.[4]

---

1. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.
2. الأنبياء: 37.
3. عمدة القاري، 16 /145.
4. عون المعبود، 7 /222.

فالعبرة بالخواتيم، والمغتر بقوته يضحك الآن، وليس بالضرورة أن يستمر سروره إلى ما لا نهاية، فالأحوال تتغير، والظروف تتقلب، والأيام يداولها الله بين الناس، إذن فليضحك الظالمون، لكنه ضحك لن يدوم، وسيأتي اليوم الذي يبكون فيه على ما اقترفت أيديهم، ويتمنون فيه لو أنهم ما وجدوا في الدنيا من قبل؛ لأن العاقبة للمتقين، وهم ليسوا منهم؛ ولأن الله تعالى توعدهم بجبروته وعظمته، أن يقلب ضحكهم إلى بكاء، فقال تعالى: {فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}[1]، وما دامت الأمور تسير على هذا النحو البين فَلِمَ الاستعجال؟! ولِمَ الضجر؟! ولِمَ العجز عن الصبر؟!

حتمية نصر المؤمنين الصابرين:

الله تعالى أمر بالصبر، ونهى عن استعجال النتائج المرجوة، فقال عز وجل: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا القَوْمُ الفَاسِقُونَ}[2]، ومعلوم للمؤمنين جميعاً أن الله تعالى يسير الأمور، ويقلبها كيف يشاء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وكثير منهم يستعجلون، لكن الله تعالى لا يعجل بعجلة العباد، وإنما هي إرادته وحكمته وقدرته، لا مبدل لحكمه وقضائه، وهو القائل جل شأنه: {...إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ}.[3]

وقضاء الله في الظالمين قادم لا محالة، طال الزمن بهم أم قصر، مصداقاً لقوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[4]، وقوله جل شأنه: {فَلا

1. التوبة: 82.
2. الأحقاف: 35.
3. الأنعام: 57.
4. النحل: 1.

تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً}.[1]

وقد توعد الله جل شأنه الظالمين في مثل قوله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ}[2]، وقوله عز وجل: {فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ}.[3]

ويقابل وعيد الظالمين طمأنة المؤمنين بأن الله معهم، والتوجيهات النبوية للصحابة الشاكين المستعجلين هي نفسها التوجيهات التي ينبغي للمسلمين، وبخاصة الذين يعانون من غطرسة الظالمين، وجرائم القتلة المجرمين الأخذ بها، والعمل بمقتضاها، فالله لن يضيعنا، فينبغي ألا يساورنا اليأس، أو ينتابنا الضعف، عملاً بمقتضى هديه تعالى، إذ يقول سبحانه: {فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمَ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}.[4]

سائلين الله العلي القدير أن يتقبل شهداءنا في عليين، وأن يفك قيد أسرانا، وأن يلهمنا وشعبنا وأمتنا الصبر، ويثبتنا على الإيمان، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يكتب لنا عزاً لا نذل بعده أبداً، وأن يهبنا نصراً عزيزاً مؤزراً، كما نصر عبده ورسوله محمداً، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1.مريم: 84.

2. إبراهيم: 42.

3.الذاريات: 59.

4. محمد: 35..

الفهرس

الفصل الأول / عقيدة		
.1	يخبر عن فتنة أصحاب الأخدود	6
.2	واستذكار حتمية الموت ـ الحلقة الأولى	11
.3	واستذكار حتمية الموت ـ الحلقة الثانية	16
.4	واستذكار حتمية الموت ـ الحلقة الأخيرة	21
.5	يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الأولى	25
.6	يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الثانية	31
.7	يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الثالثة	36
.8	يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الرابعة	41
.9	يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الخامسة	46
.10	يحذر من فتنة الناس عن الدين ـ الحلقة الأخيرة	51
.11	يستعيذ بالله من الهم والحزن ـ الحلقة الأولى	56
.12	يستعيذ بالله من الهم والحزن ـ الحلقة الثانية	61
.13	يستعيذ بالله من الهم والحزن ـ الحلقة الثالثة	66
.14	يستعيذ بالله من الهم والحزن ـ الحلقة الأخيرة	71
.15	أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الأولى	76
.16	أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الثانية	81
.17	أمره ربه أن يتخذه وكيلا ـ الحلقة الثالثة	85
.18	أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الرابعة	90
.19	أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الخامسة	95
.20	أمره ربه أن يتخذه وكيلاً ـ الحلقة الأخيرة	100
الفصل الثاني / عبادات		
.1	يمتنع عن الصلاة على ميت مدين ـ الحلقة الأولى	106

.2	يمتنع عن الصلاة على ميت مدين ـ الحلقة الثانية	111
.3	يمتنع عن الصلاة على ميت مدين ـ الحلقة الأخيرة	116
.4	ينهى عن منع النساء من الصلاة في المساجد	121
.5	أمره ربه أن يصلي إليه وينحر ووعده الكوثر	126
.6	ينهى عن صيام الدهر ويعد بثوابه	131
.7	هديه في صيام شعبان	136
.8	واستقبال رمضان بالإيمان والاحتساب	140
.9	يبين حكم الصيام وفضله وأهميته	145
.10	يخبر عن فتح أبواب الجنة وغلق أبواب النار في رمضان	150
.11	هديه في العيد وصلاته	155
	الفصل الثالث / معاملات	
.1	يبين فضل العمل وأصحاب المهن	161
.2	ينظم العلاقة بين العمال وأرباب العمل	166
	الفصل الرابع / سيرة نبوية	
.1	أسماؤه وكنيته	172
.2	يبين فضل الصلاة والسلام عليه	177
.3	تزوج في شوال	182
.4	نُصِرَ بالصَّبَا	187
.5	يقود المسلمين إلى نصر الله المؤزر في رمضان	192
	الفصل الخامس / المسجد الأقصى المبارك	
.1	بعد الإسراء جلا الله له بَيْتَ الْمَقْدِسِ فأخبر عن آيَاتِهِ وهو يَنْظُرُ إليه	198
.2	استقبل بيت المقدس في بداية عهده بالصلاة	203
.3	يوثق العرى بين المسجد الأقصى والمسجدين الحرام والنبوي ـ الحلقة الأولى	208
.4	يوثق العرى بين المسجد الأقصى والمسجدين الحرام والنبوي ـ الحلقة الأخيرة	213
	الفصل الخامس / مناهج وقيم	
.1	يحث على مساندة الأسرى	219
.2	يعلم البشرية مكارم الأخلاق في التعامل مع أطفال المحاربين	225
.3	يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الأولى	230

.4	يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الثانية	234
.5	يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الثالثة	239
.6	يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الرابعة	245
.7	يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الخامسة	250
.8	يحث على الصبر ويعد بالنصر المبين ـ الحلقة الأخيرة	255